الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الأمير عبد القادر
للعلوم الإسلامية قسنطينة
-قسنطينة-

كلية أصول الدين والشريعة
والحضارة الإسلامية
قسم العقيدة ومقارنة الأديان

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

العنوان

مناهج المستشرقين في دراسة الوحي والنبوة
-في العقيدة الإسلامية-

بحث مقدم لنيل شهادة الماجستير في شعبة العقيدة

من إعداد الطالبة:
فاطمة سوالمي

إشراف الدكتور:
صـــــالح نعمان

أعضاء اللجنة:	الاسم واللقب	الرتبة	الجامعة الأصلية
الرئيس:	-عبد القادر بخوش	أستاذ محاضر	الأمير عبد القادر
المشرفا:	-صالح نعمان	أستاذ محاضر	الأمير عبد القادر
الأعضاء:	-بشير بوجنانة	أستاذ محاضر	الأمير عبد القادر
	-محمد بشير مغلي	أستاذ محاضر	الأمير عبد القادر

السنة الدراسية: 2003-2004

بسم الله الرحمن الرحيم

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

شكر وتقدير

أقدم خالص شكري واعترافي بالجميل إلى كل الذين ساهموا في إنضـــاج فكـــرة هـــذا البحث أخص بذلك:

مشرفي الأول الدكتور بشير بوجنانة، الذي منحني الكثير من وقته وتوجيهاته العلميـــة، وأسأل الله له الشفاء العاجل.

وكذا الدكتور صالح نعمان، الذي قبل الإشراف على هذه الرسالة ، فأمدني بـــالنصح الصادق والمشورة الحكيمة.

كما أوجه شكري الخالص إلى أستاذة الأدب العربي: شهرزاد بن يونس على توجيـــهاتها القيمة.

وإلى صديقاتي اللواتي كن لي نعم الناصح ونعم المعين.

وإلى كل عمال وعاملات مكتبة جامعة الأمير عبد القادر بأقســـامها الثلاثـــة: مكتبـــة الأساتذة والباحثين، مكتبة الطلبة والدوريات.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الإهداء

إلى روح والدي.

إلى العزيزة الغالية .... والدتي

إلى الذين انتظروا بشوق ثمرة جهدي إخواني وأخواتي.

إلى الذي ظل إلى جانبي يمدني بالأمل والإصرار.... زوجي الكريم.

إلى أفراد عائلة زوجي.

إلى أبنائي الأعزاء: أيمن بهاء الدين، غادة، ولاء.

إلى كل هؤلاء أهدي ثمرة جهدي هذا.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المقدمة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

إن حضارة أية أمة من الأمم هي ملك للتراث الإنساني العام، يحق للأجيال اللاحقة أن تطلع عليه، وأن تتناوله بالبحث والدراسة. وما الحضارة إلا مجموعة من العوامل التاريخية والثقافية والدينية عملت ممتزجة مع بعضها البعض على صياغة هذه الحضارة أو تلك. وليست الحضارة الإسلامية إلا حلقة في سلسلة الحضارات الإنسانية، ولكنها لقيت من الاهتمام والعناية ما لم تحض به أية حضارة أخرى، كما أنه لم يحدث أبدا في تاريخ العلوم أن وُجّه فرع كامل من المعرفة أو نوع من العلم بكل إمكانياته وأجهزته ورجاله لدراسة حضارة معينة كما حدث ذلك مع الحضارة الإسلامية والتراث الإسلامي. وكان الباعث على هذا الاهتمام هو الرغبة في التعرف على المنظومة المعرفية التي حكمت نشأة هذه الحضارة وتطورها.

ولما كانت النبوة هي الواسطة التي يتم بها إدراك مفاهيم وأبنية تلك المنظومة، ركز المستشرقون جهودهم حولها منذ القرون الوسطى وحتى العصر الحاضر، فلا يكاد يخلو مؤلف لأي مستشرق أيا كانت عقيدته الدينية أو اتجاهه الإيديولوجي من الحديث أو الإشارة إلى مسألة النبوة. وما ميّز تلك الجهود هو وجود نوعين من الخطابات التي عالجت النبوة في الإسلام. النوع الأول وهو الخطاب الذي جعل من المنهج المتبع وسيلة لتحقيق أغراضه المتمثلة في هدم أسس الرسالة الإسلامية ومقوماتها، من خلال تطبيقه لأدوات لا علاقة لها بالبحث العلمي التاريخي مطلقا.

أما النوع الثاني، فهو الخطاب الذي عبّر عن تطور الموقف الغربي من الإسلام حينما قام بنقد الصورة القاتمة التي رسمت لنبي الإسلام في العصور الوسطى وأعلن عن رغبته الشديدة في دراسة نبوة محمد ﷺ دراسة جادة تتصف بالعلمية عن طريق اتباعها لشروط البحث العلمي.

وإن العمل الذي أردنا القيام به من خلال هذا البحث الموسوم بـ:"**مناهج المستشرقين في دراسة الوحي والنبوة –في العقيدة الإسلامية–**". يهدف إلى الإجابة عن سؤالين هامين هما جوهر إشكالية هذا البحث.

الدينية إن لم نقل ترفضها، الأمر الذي سيؤثر سلبا على السير الحقيقي لعملية البحث و التحليل وعلى النتائج المتوصل إليها. هذا من جهة.

ومن جهة أخرى يهدف إلى الكشف عن زيف دعوة التجديد التي تبناها مذهب الاستشراق العلمي ابتداء بماسينيون حتى جاك بيرك، وأن عملية النقد الذاتي التي تبنتها هذه الدعوة لم يكن الغرض منها الوقوف على حقائق الإسلام بقدر ما كانوا يسعون من ورائها إلى تحقيق أهداف أخرى، وعلى رأسها محاولة كسب ثقة المثقف العربي المسلم حتى يتسنى لهم تمرير ما شاءوا من الأفكار، كفكرة الحوار بين الأديان، والسلام بين الأديان، وهي كلها أفكار مهما كانت حسن نية مروجيها تهدف في الأساس إلى تقويض المعنى السماوي للنبوة في الإسلام.

أما الدراسات التي اهتمت بالرد على المشككين في صدق النبوة من المستشرقين فهي كثيرة ومتنوعة، ولكنها كانت تأتي على شكل أنساق دفاعية هجومية، غالبا ما تفتقد إلى الموضوعية فتكون بذلك بعيدة عن تحديد الهدف بدقة.

ولم يلتفت الباحثون المسلمون إلى هذه المسألة إلا حديثا حينما بدأوا يوجهون اهتمامهم إلى جوانب أخرى تتعلق بالباحث المستشرق من ناحية عقيدته وإيديولوجيته، والقيم الفاعلة في مجتمعه، فهذه العوامل مجتمعة تمكن الباحث من معرفة نوعية التفكير السائد لدى هؤلاء المستشرقين ومعرفة نوعية التفسير الذي يصلون إليه بخصوص قضية الوحي والنبوة، الأمر الذي يسهل من مهمة الباحث ويكون النقد حينها موضوعيا وذو أثر إيجابي.

وكانت أول دراسة تسير في هذا الاتجاه هو مؤلف يقع في جزأين بعنوان "مناهج المستشرقين في الدراسات العربية و الإسلامية"، لمجموعة من الباحثين منهم: عماد الدين خليل، والتهامي نقرة وغيرهم، الذين قاموا بمحاولة إبراز طرق وأدوات المناهج الاستشراقية في كل جوانب التراث الإسلامي كالعقيدة والتاريخ والسيرة والفقه. وتلتها دراسة أخرى للباحث ساسي الحاج بعنوان "الظاهرة الاستشراقية وأثرها على الدراسات الإسلامية".

وقد امتازت هذه الدراسات بالدقة في البحث وبالموضوعية في التحليل والنقد، ولكنها قليلة العدد ولم تكن شاملة لمختلف جوانب الموضوع، وإنما اقتصرت على دراسة جزء منه و هو الجزء المتعلق بنظريات المستشرقين حول المصدر الإلهي للوحي، على اعتبار أن هذه

-لماذا اهتم الاستشراق العلمي بموضوع الوحي والنبوة؟

-وهل نجح الخطاب الاستشراقي المعاصر من خلال تبنيه لفكرة التجديد ونقد الذات في تقديم قراءات جديدة لمفهوم الوحي والنبوة في الإسلام؟

-وما هي المناهج والأدوات المستعملة في تلك القراءات؟

وتأتي أهمية هذا البحث في كونه يشتمل على جانبين، جانب نظري معرفي، وجانب واقعي محسوس، له علاقة بحياة المسلمين في العصر الحاضر. ذلك أن طرق البحث وأساليب التفسير التي يستخدمها المستشرقون هي فعلا طرق علمية ولكن سوء استخدامهم لها جعلهم يحيدون بها عن جادة الصواب ويخطئون مرة أخرى في نقل صورة الإسلام الحقيقية وصورة نبيه للإنسان الغربي، وخصوصا في هذا الظرف الراهن الذي ازدادت فيه الهجمة الغربية الشرسة على الدين الإسلامي.

أما عن الأسباب التي دعتني للقيام بهذا البحث فهي عديدة وأهمها:

- التأكد من حقيقة الدعوة التي رفع شعارها المستشرقون ذوو الاتجاه العلمي والمتمثلة في تطبيق مقاييس البحث العلمية والالتزام بالحياد والموضوعية في الدراسات الإسلامية وخصوصا في المواضيع العقائدية.
- السعي لمعرفة السر في استمرار ظاهرة البحث عن الأصول الأجنبية أو المصادر الأجنبية للقرآن الكريم، والبحث عن السبب الحقيقي أو الأسباب الحقيقية وراء استمرار هذه الفرضية التي بدأها يوحنا الدمشقي منذ ما يربو عن عشرة قرون.
- الإحساس بأهمية بل بضرورة معرفة ما يكتبه الغرب عنا، حتى نتمكن من الرد عن تلك الكتابات وتصحيحها بكل رزانة وموضوعية وبعيدا عن الانفعال الذي يشوش الأفكار ويعيق في الوصول إلى الهدف بدقة. وكل هذا في إطار الإحساس بمسؤولياتنا كمسلمين أولا، وكحاملي رسالة ثانيا، مطالبون بتبليغها وتوصيلها للآخر على أكمل وجه.

وتكمن أهمية هذا البحث في محاولة إبرازه للمناهج التي استخدمها المستشرقون في تفسير نبوة محمد ﷺ مع بيان الخطأ المنهجي الذي يصرّون دوما على ارتكابه، وهو إخضاع مواضيع دينية لها طبيعتها الغيبية (الماورائية) لمناهج لا تعطي اهتماما للمفاهيم

الثالث، فيتناول الحديث عن الأدوات التي يتبعها كل منهج، وكيف أثرت سلبا على قيمة البحث الاستشراقي.

في حين تناول الفصل الرابع، الحديث عن تفسير المستشرقين للوحي المحمدي، بدءا بالمبحث الأول الذي يتحدث عن أسباب استمرار شبهة الأصول الأجنبية للقرآن الكريم، ومرورا بالمبحث الثاني الذي يتعرض لنظريات المستشرقين حول مصدر الوحي الإلهي وكيف انتقلت –طبقا لمفهومهم للوحي– تلك الأصول المتمثلة في المعتقدات الدينية التي كانت سائدة في شبه الجزيرة العربية إلى ذهن النبي ﷺ، وقد اتخذت اثنين من المستشرقين كنموذج عن الموقف الموحد للمستشرقين من الوحي والنبوة.

ونخلص في الأخير إلى الخاتمة المتضمنة لجملة من النتائج.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الدراسات كانت تهدف إلى الكشف عن مناهج المستشرقين في دراسة التراث الإسلامي ككل. فجاء هذا العمل الذي قمنا بإنجازه مكملا لتلك المجهودات الجبارة بأن تخصص في دراسة مناهج المستشرقين في العقيدة الإسلامية وتحديدا موضوع الوحي والنبوة.

أما المنهج الذي اعتمدناه في هذا البحث فهو المنهج النقدي، لأن المهمة التي أردنا القيام بها من خلال هذا العمل هي التحليل النقدي لمناهج المستشرقين، ولافتراضاتهم ولنتائجهم.

ولقد واجهتنا صعوبات جمة أثناء قيامنا بهذا العمل، أهمها قلّة المراجع الاستشراقية التي تتحدث عن صلب الموضوع، والتي تمكنّا من الحصول عليها لا تتعدى كونها شذرات متناثرة هنا وهناك، والصعوبة في تصنيف المناهج المستخدمة من قبل المستشرقين بسبب كثرتها وتداخلها بحيث يجد الباحث صعوبة كبيرة في التمييز بين المناهج والأدوات.

ويشتمل البحث على مقدمة وأربعة فصول وخاتمة.

يتناول الفصل الأول مفهوم الوحي والنبوة، ويتضمن مبحثين، خصصت المبحث الأولى للحديث عن مفهوم الوحي والنبوة في العقيدة الإسلامية، وخصصت المبحث الثاني للحديث عن الوحي في كل من الديانتين اليهودية والمسيحية، ثم مفهوم الوحي والنبوة في الفكر الإلحادي.

أما الفصل الثاني فيتعرض للحديث عن الاستشراق ومذاهبه في الدراسات الإسلامية وينقسم إلى مبحثين، يتناول المبحث الأول الحديث عن الإستشراق الدوافع والنشأة، ويتعرض المبحث الثاني لمذاهب المستشرقين في الدراسات الإسلامية الذي خلصنا منه إلى ثلاثة مذاهب (مذهب الاستشراق التقليدي، مذهب الاستشراق الاستعلائي، ومذهب الاستشراق العلمي).

والفصل الثالث: الذي تتوضح لنا فيه صورة تلك المناهج، وكيف أثرت سلبا، فينقسم إلى ثلاثة مباحث. المبحث الأول ويتعرض للمنطلقات الأساسية لهذه المناهج التاريخية منها والفكرية، وهذا في إطار مذهب الاستشراق العلمي. أما المبحث الثاني، فيه تم تصنيف هذه المناهج وحصرها في منهجين اثنين هما: المنهج التشكيكي، والمنهج الماركسي، أما المبحث

الفصـــل الأول:

الوحـــي والنبـــوة

المبحث الأول: الوحي والنبوة في العقيدة الإسلامية

المبحث الثاني: الوحي والنبوة في اليهودية والمسيحية

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

تمهيد

ما إن فتح الإنسان عينيه في هذا العالم، وأدرك الموجودات من حوله حتى أحس بأن هناك قوتين متضادتين بداخله، تتنازعانه وتتجاذبانه، هما قوة الخير وقوة الشر المركوزتين في النفس الإنسانية، وكل طرف منهما يحاول أن يسيطر على الآخر، الأمر الذي دفع بالإنسان للتأمل والتفكير في حل لهذه المشكلة، التي أقلقت راحته ونغصت عليه حياته.

وكانت نتيجة ذلك التفكير والتأمل هو ظهور العديد من الأنظمة والتشريعات والمذاهب الفلسفية والأخلاقية والاجتماعية، تهدف جميعها إلى توفير الحياة الآمنة والهادئة والسعيدة للإنسان، مثلما حاول أفلاطون في جمهوريته.

وكان الفشل من نصيب هذه المحاولات الإنسانية، فأدرك الإنسان حينها بأنه لا غنى له عن تدخل السماء، ولا غنى له عن هداية السماء، ولا غنى له عن الحقيقة الإلهية. فالإنسان رغم تميّزه وأفضليته عن باقي المخلوقات بملكة العقل وخاصيّة الإدراك، فذلك لا يعني الاعتقاد في سلطة العقل المطلق، واعتباره المصدر الوحيد للمعرفة.

فكون العقل قادرا على أن يتوصل إلى معرفة بعض الحقائق والكشف عنها، فذلك لا يتناقض ولا يتنافى مع وجود رسول يؤكد ويقوي ما توصل إليه العقل.

كما أن خضوع مقياس الخطأ والصواب والخير والشر للحكم العقلي، قد يؤدي إلى حدوث نوع من الفوضى والاضطراب بين أفراد المجتمع الواحد، فما تراه جماعة من الناس خطأ قد تراه مجموعة أخرى صوابا، وما تنظر إليه هذه الفئة على أنه خيرا وصلاحا قد تنظر إليه فئة أخرى على أنه ضررا وفسادا. ذلك لأن عقول البشر متفاوتة ومختلفة باختلاف بيئاتهم ونشأتهم.

ومن هنا تتجلى لنا أهمية النبوة وحاجة البشر إلى وجود نبي ليبيّن للناس النهج الصحيح، ويخبرهم عن الأمور التي عجزوا عن إيجاد التفسير المناسب لها. وفي هذا حماية وصيانة للعقل البشري من الدخول في متاهات لا مخرج منها ولا يجني من ورائها غير الحصرة والألم، كما حصل للمجتمعات التي تبنت الأفكار والفلسفات الإلحادية التي تجاهلت الحقيقة الدينية، بل أنكرتها ورفضتها، كما رفضت كل بعد روحي لمعنى الإنسان والحياة والكون.

المبحث الأول: الوحي والنبوة في العقيدة الإسلامية:

المطلب الأول: الوحي في العقيدة الإسلامية:

إن الوحي هو الأساس الذي تقوم عليه النبوة لأنه الطريق الوحيد الذي يتلقى النبي منه المعلومات والمعارف الغيبية، فهما أمران متلازمان ولا يمكن وجود أحدهما من غير وجود الآخر .

فما هي حقيقة الوحي والنبوة في العقيدة الإسلامية؟

وهل يمكن إثبات النبوة في العقيدة الإسلامية من غير الاعتماد على الوحي؟

أولا: تعريف الوحي:

1-التعريف اللغوي[1]:

الوحي في اللغة هو الكلام الخفي، والإشارة السريعة كما في قوله تعالى: ﴿فخرج عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾[2].

كما تفيد كلمة وحي أيضا إلقاء علم أو غيره في إخفاء إلى غيرك.

وقال ابن الأنباري سمي وحيا لأن الملك أسره على الخلق وخص به النبي ﷺ المبعوث إليه، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾[3].

وقد استعملت كلمة وحي في اللغة العربية للدلالة على عدة معاني:

1-1-الوحي بمعنى الإلهام: وهو الملقى إلى الحيوانات والبشر كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾[4].

---

[1]-ابن فارس بن زكريا: معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ج6، ص93.

-ابن منظور: لسان العرب، بيروت، دار الجيل، 1988، مج6، ص892.

-الفيروز أبادي: القاموس المحيط، ط3، مصر، 1301هـ، ج4، ص391.

[2]-سورة مريم، الآية: 11.

[3]-سورة الأنعام، الآية: 112.

[4]-سورة النحل، الآية: 68.

وقوله أيضا: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾[1].

1-2-الوحي بمعنى الأمر: كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾[2]. أي أمرتهم.

ومثل قوله: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا﴾[3]. أي أمرها.

1-3-الوحي بمعنى الروح: أطلقت لفظة الروح على الوحـــي لأن حيـــاة البشـــر لا تستقيم إلا بالوحي المنزل من عند الله، فإذا فقد الوحي ضاعت الحياة ومـــاتت القلـــوب مـــن الجهل والضلالة، قال المولى ﷻ: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِـــرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[4]. وقوله كذلك: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾[5].

1-4-الوحي بمعنى وسوسة الشيطان: كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾[6].

1-5-الوحي بمعنى كلام الله المنزل على أنبيائه (الوحي الإلهي): من ذلـــك قولـــه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾[7].

---

(1)-سورة القصص، الآية: 7.

(2)-سورة المائدة، الآية: 111.

(3)-سورة الزلزلة، الآية: 5.

(4)-سورة الشورى، الآية: 52.

(5)-سورة النحل، الآية: 2.

(6)-سورة الأنعام، الآية: 121.

(7)-سورة الشورى، الآية: 51.

2-التعريف الاصطلاحي:

أما الوحي في الاصطلاح فمعناه في لسان الشرع «أن يعلم الله تعالى من اصطفاه من عباده كل ما أراد إطلاعه عليه من ألوان الهداية والعلم، ولكن بطريقة سرية خفيـــة، غـير معتادة للبشر»[1].

ويوضح ذلك الدكتور سعيد رمضان البوطي[2]: «بأن الوحي هو الأساس الأول الـذي يقوم على حقيقته معنى النبوة والرسالة، ومن ثمّ فهو المنبع الأول لعامـــة الأخبـــار الغيبيـــة وشؤون القعيدة وأحكام التشريع، ذلك أن حقيقة الوحي هي الفيصل الوحيد بين الإنسان الـذي يفكر من عنده ويشرع بواسطة رأيه وعقله، والإنسان الذي يبلغ عن ربه دون أن يغير أو أن ينقص أو يزيد»[3].

ثانيا: أنواع الوحي:

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُـولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾[4].

فهذه الآية تدل على أنواع الوحي في العقيدة الإسلامية، كما بينت الكيفيـــة التـــي يتـــم بـــها الاتصال بين الله وبين أنبيائه الذين اختارهم لتلقي الوحي. وهذه الأنواع هي: الوحـــي عـــن طريق الرؤيا، الوحي القلبي، الوحي من وراء حجاب والوحي عن طريق إرسال الملك.

---

[1]-محمد عبد العظيم الزرقاني: مناهل العرفان في علوم القرآن، دط، لبنان، دار الفكر، 1988، ج1، ص63.

[2]-سعيد رمضان البوطي: داعية ومفكر إسلامي كبير، ولد عام 1929 في قرية رحيلفا الواقعة في شمالي شرقي ســـوريا. أنهى دراساته الثانوية في معهد التوجيه الإسلامي بدمشق في سنة 1953 التحق بكلية الشريعة في جامعة الأزهر، التي حصـل منها على درجة الدكتوراه في عام 1965، وفي نفس السنة عين أستاذا في كلية الشريعة بجامعة دمشق ثم وكيلا ثم عميـــد لها، وهو الآن رئيس قسم العقائد الأديان في جامعة دمشق، يتقن اللغة التربية والكردية إلى جانب إلمامه بالإنجليزية. له مـــا يقارب الأربعين مؤلف ترجم البعض منها إلى اللغة الانجليزية والألمانية والفرنسية، من مؤلفاته "كبرى اليقينيات الكونيـــة"، "منهج الحضارة الإنسانية في القرآن"، "من الفكر والقلب". (البوطي: الحكم العطائية شرح وتحليل، بيروت، دار الفكـــر المعاصر، 1428هـــ-2001م، صفحة الغلاف، ص400. البوطي: شخصيات أوقفني ، ط2، لبنان، دار الفكر المعـــاصر، دمشق، دار الفكر، 1999، صفحة الغلاف).

[3]-محمد سعيد رمضان البوطي: كبرى اليقينيات الكونية، ط8، دمشق، دار الفكر، 1402هـــ، ص186.

[4]-سورة الشورى، الآية: 51.

1-الوحي عن طريق الرؤيا:

الرؤيا هي التي ابتدئ بها الوحي والتي عبر عنها الرسول ﷺ بالرؤيا الصادقة أو الرؤيا الصالحة وقد عدها بعض العلماء نوعا من الوحي وجزاء منه، وقد جاء في الحديث أنه كان لا يرى شيئا في المنام إلا جاء كما رأى، فعن عائشة -رضي الله عنها- قالت: «إن أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤية إلا جاءت مثل فلق الصبح»[1].

وعن طريق الرؤيا كذلك أوحي الله إلى نبيه إبراهيم عليه السلام بذبح ابنه إسماعيل، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَابُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَاأَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ. فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ. وَنَادَيْنَاهُ أَن يَاإِبْرَاهِيمُ. قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾[2].

2-الوحي عن طريق الإلهام:

وهو ما كان يقذفه الله في قلب من اصطفاه من عباده على وجه من العلم الضروري لا يستطيع له دفعا ولا يجد فيه شكا[3]، وهو ما عرف بالنفث في الروع كما قال النبي ﷺ: «إن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها، فاتقوا الله، واجملوا في الطلب، ولا يحملنكم استبطاء الرزق على أن تطلبوه بمعصية الله فإن ما عند الله لا ينال إلا بطاعته»[4].

---

[1]-رواه البخاري في صحيح، دط، دب، دار الفكر، (1401هـ-1981م)، كتاب بدء الوحي. باب: كيف كان بدء الوحي، ج1، ص4.

-رواح مسلم في صحيحه، دط، بيروت، دار الفكر، كتاب الإيمان. باب: بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، ج1، ص97.

[2]-سورة الصافات، الآيات: 102-105.

[3]-محمد الزرقاني: مرجع سابق، ص63.

[4]-يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر، التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، تحقيق: مجموعة من العلماء، دط، دب، (1387هـ-1967م)، ج1، ص84.

3-الوحي من رواء حجاب:

وهو كلام الله لأنبيائه مباشرة من غير وساطة الملك، كما حدث ذلك للنبـــي موســـى عليه السلام، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ فِـي الْبُقْعَـةِ الْمُبَارَكَـةِ مِـنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَامُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ... وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾[1]. وللنبي محمد ﷺ فـي حادثة الإسراء.

4-الوحي بإرسال الملك:

وهو أن يخاطب الله رسوله بواسطة الملك المرسل من الله إلى أنبيائه لقوله تعـــالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ. نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ. عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ. بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾[2]. وظهور الملك للنبي يكون على ثلاثة كيفيات:

1-الملك على صورته الحقيقية الملكية.

2-مجيء الملك على صورة إنسان يراه الحاضرون ويستمعون إليه لقوله ﷺ: «...وأكثر ما كنت أراه على صورة دحية الكلبي»[3].

3-مجيء الملك للنبي خفية فلا يرى ولكن يظهر آثار ذلك الالتقاء على صـــاحب الرســـالة. وجاء في الحديث عن عائشة -رضي الله عنها-: «أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: أحيانا يـــأتيني مثـــل صلصـــة الجرس وهو أشده علي فيفصم عني وقد وعيت ما قال وأحيانا يتمثل الملك رجـــلا فيكلمنـــي فأعي ما يقول».

قالت عائشة: «فلقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه

---

[1]-سورة القصص: الآيتين: 30-31.

[2]-سورة الشعراء: الآيات: 192-195.

[3]-رواه النسائي في السنن، دط، بيروت، دار الكتاب العربي، دت، كتاب الإيمان وشرائعه. باب: صفة الإيمان والإســـ...، ج8، ص103.

ليتفصد عرقا»[1].

ومن نعم الله على نبينا محمد ﷺ أن اجتمعت له هذه الأنواع كلها، فقد أوحي إليه عن طريق الرؤيا في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ﴾[2]. وثبت له التكلم ليلـــة المعراج في قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾[3]. وكان جبريل عليه السلام يأتيه بـالوحي: ﴿فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾[4].

ثالثا: الفرق بين الوحي والإلهام:

من خلال التعرض للتعريف اللغوي والاصطلاحي للوحي يمكننا أن نستنتج الفرق بين الوحي الجلي (الوحي القرآني) وبين الإلهام الذي يعتمد عليه المستشرقون كثيرا في تحليلـــهم للوحي الإسلامي.

فالإلهام هو قذف من الله تعالى في قلب طائفة من عباده الصالحين سواء أكانوا مـــن الأنبياء أو من غيرهم من الناس تكريما لهم على حسن طاعتهم وعبادتهم له سبحانه وتعالى. كما يأتي الإلهام في صورة وساوس يقذفها الشيطان في قلوب البعض من الناس. كما عـــبر عنه الماوردي: «هو أمر خفي غامض يدعيه المحق والمبطل»[5].

ويحدث الإلهام للإنسان في المنام كما يحدث له في اليقظة، ثم أن الملهم قـــد يخطـــئ ويصيب حتى ولو كان من الصالحين والأتقياء والأولياء؛ لأنه يفتقد إلى العصمة التي خـــص الله بها أنبيائه ورسله دون سائر البشر هذا من جهة. ومن جهة أخرى فإن «طبيعة الحقـــائق الدينية والأخبار الغيبية تأبى الخضوع لهذه الأساليب اللاشـــعورية التـــي تستشـــف حجـــاب المجهول بالفراسة الذكية الخفية والحدس الباطني السريع. مثلما تأبى الخضـــوع لمقـــاييس

---

[1]-رواه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي. باب: كيف كان بدء الوحي، ج1، ص3.

-رواه مسلم في صحيحه، كتاب الفرائض، باب: طيب عرق النبي ﷺ ، ج7، ص82.

[2]-سورة الفتح، الآية: 27.

[3]-سورة النجم، الآية: 10.

[4]-سورة الشورى، الآية: 51.

[5]-أبو الحسن الماوردي: أعلام النبوة، د.علق عليه: الشيخ خالد عبد الرحمن العك، دار النفائس، 1994، ص73.

الحس الظاهرة التي تخترق حرمات المجهول بالأدلة المنطقية والاستنباط المتروي البطيء، وإنما تخضع لتصور حوار علوي بين ذاتين، ذات متكلمة آمرة معطية وذات مخاطبة مأمورة متلقية»[1].

وبسبب الطبيعة الخاصة لتلك الحقائق الدينية والأخبار الغيبية فإن الوحي القرآني لا يحتوي في كل مادته على جزء ولو يسير جدا من ذلك الأسلوب اللاشعوري أو الإلهام حتى ولو كان الشخص الملهم نبيا مرسلا ضمنت له العصمة فيما يجيء به. وهنا تتجلى لنا المكانة الخاصة للقرآن الكريم والتي امتاز بها عن سائر الكتب السماوية الحالية كما سنرى فيما سيأتي:

وللاستدلال على هذا الكلام نذكر بعض الموافق التي حدث فيها للنبي ﷺ إلهام ومع ذلك لم يشأ تبليغ ذلك للناس وانتظر حتى أنزله الله عليه وحيا جليا. مثال ذلك ما حدث من إلهام سبق غزوة بدر الكبرى وكانت سورة الأنفال هي التي أشارت إلى هذا الإلهام، قال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ. وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[2].

لقد ألهم الله نبيه في المنام ووعده بالنصر في غزوة بدر قبل بدأ المعركة، ففي الحديث أن ابن عباس قال كان رسول الله ﷺ يوم بدر في العريش قاعدا يدعو وكان أبو بكر قاعدا عن يمينه ليس معه غيره، فخفق رسول الله ﷺ من نفسه نعسا ثم ضرب بيمينه على فخد أبي بكر وقال: «أبشر بنصر الله ولقد رأيت في منامي جبريل يقدم الخيل»[3].

والنبي نفسه نهى عن تدوين شيئ غير القرآن وقال: «من كتب عني غير القرآن فليمحه»[4] احترازا منه على أن لا يختلط القرآن بأي شيء، فالرسول ﷺ كان أحرص الناس على أن لا يختلط وحي القرآن بشيء حتى ولو كان إلهاما ربانيا وبذلك يتبين الفرق الواضح بين الوحي والإلهام.

---

[1]-صبحي الصالح: مباحث في علوم القرآن، ط17، بيروت، دار العلم للملايين، 1988، ص27.

[2]-سورة الأنفال، الآيتين: 9-10.

[3]-الفخر الرازي، تفسير الفخر الرازي (التفسير الكبير ومفاتيح الغيب)، ط1، بيروت، دار الفكر، 1401هـ-1981م، مج8، ص135.

[4]-رواه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، باب التثبت في الحديث وحكم كتابة العلم، ج8، ص229.

رابعا: صلة النبي بالوحي:

يعتبر حديث "كيفية بدء الوحي" هو عمدة الأحاديث المثبتة للوحي والتي تتكلم عن صلة النبي بهذا الوحي، تلك الصلة التي حاول المستشرقون بكل الطرق والوسائل قطعها ثم تفسيرها على أنها إلهام أو وحي نفسي.

فعن عائشة -رضي الله عنها- قالت:«أول ما بدأ به رسول الله من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه -وهو التعبد- الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، قال: فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثالثة، ثم أرسلني فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ. خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ. اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ. الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ. عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[1]. فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد، فقال: زملوني، زملوني، زملوني حتى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة: مالي، وأخبرنا الخبر، لقد خشيت على نفسي فقالت خديجة: كلا، والله ما يخزيك الله أبدا، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد الغزى بن عم خديجة -وكان إمرؤ تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء له أن يكتب، وكان شيخا كبيرا قد عمى- فقالت له خديجة: يا ابن عم! اسمع من ابن أخيك، فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نزله الله على موسى، يا ليتني فيها جدعا، ليتني أكون حيا إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله ﷺ أومخرجي هم؟ قال: نعم، لم يأتي رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرا مؤزرا، ثم لم ينشب ورقة أن توفي وفتر الوحي»[2].

---

[1]-سورة العلق، الآيات: 1-5.

[2]-رواه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب: كيف كان بدء الوحي، ج1، ص3.

-رواه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الوحي، ج1، ص97.

ولقد شرح لنا الإمام الزرقاني كيفية الوحي إلى النبي ﷺ بطريقة عملية تقربه مـــن الأذهان وتجعله أمرا مستساغا لذي العقول، حيث يقول: «فالوحي عن طريق الملك عبـــارة عن اتصال الملك بالرسول اتصالا يؤثر به الأول في الثاني، ويتأثر فيه الثاني بالأول وذلـــك باستعداد خاص في كليهما، فالأول فيه قوة الإلقاء والتأثير لأنه روحاني محض، والثاني فيـــه قابلية التلقي عن هذا الملك لصفاء روحانيته، وطهارة نفسه المناسبة لطهارة الملـــك، وعنـــد تسلط الملك على الرسول ينسلخ الرسول عن حالته العادية، ويظـــهر اثـــر التغـــير عليـــه، ويستغرق في الأخذ والتلقي عن الملك، وينطبع ما تلقاه في نفسه، حتى إذا انجلى عنه الوحي وعاد إلى حالته الأولى، وجد ما تلقاه ماثلا في نفسه، حاضرا في قلبه، كأنما كتب في صحيفة فؤاده كتابا»[1].

خامسا: إمكانية وقوع الوحي:

بعدما أثبتنا عجز العقل عن إدراك الحقائق الغيبية وحاجة البشر الماسة إلـــى هدايـــة السماء ووحي الأنبياء ليبين لهم الطريق الواجب اتباعه ليفـــوزوا بالســـعادة فـــي الداريـــن، ويحذرهم من الطريق الذي يؤدي بهم إلى الزيغ والانحراف، بما يقدمـــه لـــهم مـــن النظـــم والتشريعات والأحكام، نتعرض الآن إلى الاستدلال على إمكانية وقوع الوحي.

1-الدليل الفلسفي:

-**دليل الفارابي**[2]: يعتبر الفيلسوف الفارابي أول من ذهب إلى القول بنظرية النبـــوة من خلال مؤلفاته وخاصة مؤلفه "آراء أهل المدينة الفاضلة" الذي أفرد فيه فصلين متكـــاملين "في سبب المنامات وفي الوحي ورؤية الملك".

يقول الفارابي عن النبوة بأنها وسيلة من وسائل الاتصال بين العالم العلوي والعـــالم السفلي،وهي ضرورة اجتماعية اعتبر وجودها لازم في حياة مدينته الفاضلة التـــي تســـعى

---

[1]-محمد الزرقاني: مصدر سابق، ص68-69.

[2]-الفارابي: هو أبو نصر بن محمد بن أزيغ بن طرخان الفارابي. ولد بفاراب فيما وراء النهر ســـنة (259هـــ-872م). توفي بدمشق سنة (339هـــ-950م)، لقب بالمعلم الثاني لبراعته في شرح مؤلفات أرسطو المعلم الثاني، حاول التوفيق بـــين العقل والوحي من خلال نظريته في النبوة. من مؤلفاته: "المدينة الفاضلة"، وفيها تحدث عن الصفات التي يجب أن يتحلى بها الرئيس أو الحاكم. (عبد الرحمان بدوي: موسوعة الفلسفة، ج2، ص93. محمود يعقوبي: معجم الفلسفة، ص309).

لتحقيق الخير والسعادة والكمال الأقصى، وذلك من الناحيتين: الناحية السياسية والناحية الأخلاقية.

- **كيفية تلقي الوحي عند الفارابي:** يوضح لنا الفارابي كيفية الاتصال بالعقل الفعال (مصدر الوحي والإلهام)، ويقول بأن ذلك ميسور من طريقين[1]:

أ-**طريق العقل:** إن العقل البشري في سبيل ارتقائه وبلوغه درجة الكمال، يمر بعدة مراحل متدرجة، فهو يبدأ أولا عقلا بالقوة ويسميه الفارابي العقل الهيولاني: وهو هيئة ما في مادة معدة لئن تقبل رسوم المعقولات. فإذا ما تجردت المعقولات عن موادها أصبح عقلا بالفعل.

ويستمر في التدرج والصعود حتى يحيط بأغلب الكليات، فيصل بذلك إلى درجة العقل المستفاد وهو أسمى درجات الكمال الإنساني وعندها يتمكن من الاتصال بالعقل العاشر أو العقل الفعال، والعقل الفعال هو أحد العقول العشرة المتصرفة في الكون ومصدر الوحي والإلهام[2]، إضافة لذلك فهو الواسطة بين الله وأنبيائه.

فمن هذا الطريق يحصل له القرب والكمال ويستمد على هذا النحو العلم والمعرفة من الله.

ب-**طريق المخيلة:** يتعرض الفارابي للكلام عن المخيلة، فيقول بأن المخيلة متى كانت قوية وبعيدة عن الاشتغال بالمحسوسات الواردة عليها من الخارج وكانت حالها في اليقظة مثل حالها عند تحللها من المحسوسات في النوم، فحينئذ تحقق الاتصال بالعالم العلوي ويتلقى النبي الوحي الذي عرفه الفلاسفة على أنه فيض من الله عن طريق العقل الفعال.

ويوضح الفارابي بأن الارتقاء إلى درجة العقل المستفاد أو بلوغ مرتبة السعادة أمر نادر وغير ميسور، وفئة قليلة جدا هي التي تحقق هذه المرتبة «فإذا اتفقت التي حاكت بها القوة المتخيلة تلك الأشياء محسوسات، في نهاية الجمال والكمال، قال الذي يرى ذلك أن لله عظمة جليلة عجيبة، ورأى أشياء عجيبة لا يمكن وجود شيء منها في سائر الموجودات أصلا. ولا يمتنع أن يكون الإنسان إذا بلغت قوته المتخيلة نهاية الكمال، فيقبل في يقظته عن

---

[1]-أبو نصر الفارابي: آراء أهل المدينة الفاضلة، تحقيق: ألبير نصري نادر، ط1، 1959، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ص91-92.

[2]-الفارابي: مصدر سابق، ص92.

العقل الفعال، الجزئيات الحاضرة والمستقبلة، أو محاكياتها من المحسوسات، ويقبل محاكيات المعقولات المفارقة وسائر الموجودات الشريفة ويراها. فيكون له بما قبله من المعقولات نبوة بالأشياء الإلهية، فهذا هو أكمل المراتب التي تنتهي إليها القوة المتخيلة وأكمل المراتب التـــي يبلغها الإنسان بقوته المتخيلة»[1].

والملاحظ أن الفارابي في إثباته للنبوة اعتمد على النفس وأقسامها، حيـــث يـــرى أن المخيلة[2] إذا ما تخلصت من أعمال اليقظة تفرغت أثناء النوم لبعض الظواهر النفسية، فتخلق صورا جديدة أو تجمع صورا ذهنية قديمة على أشكال مختلفة فهي قوية مخترعة قادرة على الخلق والإيجاد والتصوير والتشكيل. فأحوال النائم العضوية والنفسية واحساســاته ذات أثـــر واضح في مخيلته وبالتالي في تكوين أحلامه[3].

وإذا كان في مقدور المخيلة أن تحدث كل هذه الصور فهي تستطيع أن تشكلها بشكل العـــالم الروحاني، فيرى النائم السماوات وما فيها ويشعر بما فيها من لذة وبهجة[4].

فميزة النبي الأولى أن تكون له مخيلة قوية تمكنه من الاتصال مباشرة بالعقل الفعـــال أثنـــاء اليقظة وفي حال النوم، وبهذه المخيلة يصل إلى إدراك الحقائق التي تظهر على صورة وحي أو رؤيا صادقة.

وهناك من الناس من يملكون مخيلة قوية ولكنهم لا يستطيعون الاتصال بالعقل الفعال إلا فـــي حال النوم وهم جماعة الأولياء والواصلين، يقول الفارابي: «ودون هذا: من يرى جميع هـــذه بعضها في يقظته، وبعضها في نومه؛ ومن يتخيل في نفسه هذه الأشياء كلها، ولكن لا يراهـــا ببصره؛ ودون هذا من يرى جميع هذه في نومه فقط، وهؤلاء تكون أقاويلهم التي يعبرون بها أقاويل محاكية ورموزا وألغازا وإيدالات وتشبيعات، ثم يتفاوت هؤلاء تفاوتا كثيرا...»[5].

وقد أعترض على الفارابي القول باكتساب النبوة حتى وإن جعلها أمرا نادرا وغير ميسور.

---

[1]-الفارابي، مصدر سابق، ص94.

[2]-المخيلة هي التي تنتج الرؤى والأحلام.

[3]-الفارابي: المصدر السابق، ص93.

[4]-المصدر نفسه، ص94.

[5]-المصدر نفسه، ص94.

2-دليل ابن خلدون[1]:

يوضح لنا العلامة ابن خلدون أن العالم يتكون من مجموعة من المخلوقات مرتبة ترتيبا تصاعديا وهي المعادن (الجماد) ثم النبات ثم الحيوان ويليه الإنسان في المرتبة النهائية (من جهة التكوين المادي) من سلسلة التدرج بسبب مداركه العقلية التي تميز بها عن باقي المخلوقات وكل مخلوق يتفاضل عن الذي سبقه، ويقل عن الذي يليه بفضل الاستعدادات التي ركبت في كل نوع من هذه المخلوقات، ويبدأ ابن خلدون بالجماد فيقول: «آخر أفق المعادن متصل بأول أفق النبات مثل الحشائش وما لا بذر له، وآخر أفق النبات مثل النخل والكرم متصل بأول أفق الحيوان مثل الحلزون والصدف، ولم يوجد لهما إلا قوة اللمس فقط. ومعنى الاتصال في هذه المكونات أنّ آخر أفق منها مستعد بالاستعداد الغريب لأن يصير أول أفق الذي بعده»[2].

والإنسان بسبب طبيعة تكوينه المادي والروحي يستطيع في لحظة من اللحظات أن ينسلخ من الطبيعة البشرية إلى الطبيعة الملكية فيكون لها اتصال بالأفق الذي بعدها وهذا الإنسان هو النبي.

ثم ينتقل ابن خلدون بعد أن أثبت لنا إمكانية الاتصال بين الإنسان (النبي) وعالم الملائكة إلى شرح كيفية هذا الاتصال فيقول: «وهؤلاء الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، قد جعل الله لهم الانسلاخ من البشرية في تلك اللمحة، فطرة فطرهم الله عليها، وجبلة صورهم فيها، ونزههم عن موانع البدن وعوائقه ما داموا ملابسين لها بالبشرية، بما ركب من غرائزهم من القصد والاستقامة التي يحاذون بها تلك الوجهة – أي الوجهة الملكية – وركزهم في طبائعهم رغبة في العبادة تكلف بتلك الوجهة، وتسيغ نحوها، فهم يتوجهون إلى ذلك الأفق بذلك النوع من الانسلاخ متى شاؤوا – بتلك الفطرة التي فطروا عليها، لا باكتساب

---

[1]-ابن خلدون: هو ولي الدين عبد الرحمان بن محمد ابن خلدون (1332 – 1406 م) واضع فلسفة التاريخ برهن على وجود الله بالاعتماد على سلسلة الأسباب والمسببات التي لا بد أن تنتهي إلى علة أولى. كما أثبت حاجة الإنسان إلى وحي الله المنزل على أنبيائه، (محمود يعقوبي: معجم الفلسفة، ص286).

[2]-ابن خلدون: مقدمة ابن خلدون، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية، 1993، ص77.

ولا صناعة – فلهذا توجهوا وانسلخوا عن بشريتهم وتلقوا في ذلك الملأ الأعلى ما يتلقونه»[1].

ويضيف قائلا: «والتلقي من الملك والرجوع إلى المدارك البشرية، وفهمه ما ألقى عليه كله في لحظة واحدة، بل أقرب من لمح البصر، لأنه ليس في زمان، بل كلها تقع جميعا فتظهر كأنها سريعة، ولذلك سميت وحيا، لأن الوحي في اللغة الإسراع»[2].

3-الدليل العلمي:

إن الوحي وكيفية مجيئه أمر فوق إدراك العقل ولا يمكن معرفته أو التوصل إليه عن طريق العقل الذي جعل خصيصا للعمل داخل نطاق الحواس، الأمر الذي حدا بالمفتتنين بالعقل والعلم إلى إصدار حكم نهائي يقضي بانحصار المعرفة في المجال الحسي المشاهد، وأن أية معرفة لا تأتي من غير هذا الطريق، فهي معرفة غير صحيحة، وما هي إلا مجرد أوهام وتخيلات. تلك هي المقولة التي سادت في ظل التصورات المادية للكون والحياة.

غير أن دوام الحال من المحال كما يقال، فالعلم الذي اتخذه البعض ذريعة ودعوة للإلحاد ولإنكار هداية السماء، أصبح في العصر الحديث دعوة للإيمان بالله وبوحي السماء.

لقد جاء التأكيد على إمكانية حدوث الوحي هذه المرة من طرف علماء الغرب أنفسهم الذين بقدر ما تفننوا في صور الإنكار والابتعاد عن الله بقدر ما قربوا الإيمان للناس وأزاحوا الغشاوة عن أعين الذين عميت أبصارهم عن النظر إلى آفاق السماء، وإلى مخلوقات الأرض وإلى خصائص النفس. قال تعالى: ﴿قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[3].

وقال أيضا: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى﴾[4]. لقد بدأ العلم الحديث يتقبل فكرة أن عدم رؤية الشيء لا يعني إنعدام وجوده،

---

[1]-ابن خلدون، مصدر سابق، ص79.

[2]-المصدر نفسه، ص79.

[3]-سورة يونس، الآية: 110.

[4]-سورة الروم، الآية: 8.

كوجود الروح غير المنظورة في الجسم المادي المنظور، يقول الدكتور راين: «أنه ثبت من أبحاثه في المعامل أن في الجسم البشري روحا أو جسما آخر غير منظور»[1].

ووجود العقل أو الوعي وإمكانية استقلاله عن المخ ولوفي أحوال نادرة عكس ما كان يعتقده الماديين الملحدين ومن بينهم (فوجت – C.VOGT) (1847 – 1898) الـذي قـال: «بـأن التفكير عبارة عن مجرد إفراز يفرزه المخ كما يفرز الكبد الصفراء»[2]. فقد أعلـن العـالم شارل ريشه في مطلع القرن العشرين في مؤتمر علمي بأنه: «يمكن دون كبير كبرياء تصور وجود الذكاء دون أن يكون المخ جهازا له ولو أن ذلك يبدو لأول وهلة أمر غير معقول».

ويعتبر ميدان علم النفس الحديث الذي بدأ يتحرر شيئا فشيئا مـن النظـرة الماديـة للإنسان والتي ميزت علم النفس التقليدي خطوة عملاقة في إثبات إمكانية حـدوث الوحـي خصوصا في جانبه المتعلق بدراسة التكوين الروحي للإنسان بعد أن تحـول علـم النفـس الحديث من دراسة السيكولوجي إلى دراسة الباراسكولوجي (التحول من النفس إلى مـا وراء النفس) عندما «بيّن أنه لم يعد ثمة شك عند دوائر العلم في وجود جسد هيولي أوأثيري لكـل كائن حي. وهذا الجسد تنبعث منه طاقة حيوية نشطة ذات خصائص مركبة لم يستكشف العلم بعد كل أسرارها ويكشف عن وجود هذه الطاقة وجود حقـل بيولوجـي لـه إشـعاعات كهرومغناطسية تتجاوز في نطاقها أبعاد الجسد المادي بل أيضـا حـدود الجسـد الـهيولي أو الأثيري»[3].

ويؤيد هذا الكلام تلك الإكتشافات التي توصل إليها العلماء في عالم الحشرات، حيـث تمكنوا من معرفة وجود موجات كهرومغناطسية تصدرها بعض الحشرات للإتصال فيمـا بينها على مسافات بعيدة.

أما في عالم الإنسان فقد تمكنت فئة قليلة من الناس من أن تدرك أشـياء أو تعـرف حقائق دون استخدام وسائل الإدراك الحسية كأن تسمع أو ترى عن بعد أومن وراء الحواجز المادية، وهو ما يعرف بظاهرة الجلاء البصري، وقدرة الشخص على إرسال الأفكار إلـى

---

[1]–محمد الغزالي: عقيدة المسلم، دط، باتنة، دار الشهاب، 1985، ص25.

[2]–رؤوف عبيد: الجديد في التكوين الروحي وأسرار السلوك، دط، دب، دار الفكر العربي، 1982، ج2، ص635.

[3]–المرجع نفسه، ص649.

شخص أخر من غير طريق الحواس، وهو ما يعرف بظاهرة التخاطر أو تراسل الأفكار (Télépathy).

- **ظاهرة الجلاء البصري:** وهو الإدراك من غير طريق الحواس للاحداث الموضوعية[1] أو هو القدرة على رؤية بعض الأحداث القادمة رؤية صحيحة مثال ذلك ما نشر في بعض الصحف في شهر أفريل من عام 1977 عن الطالب الأمريكي الذي تنبأ بحادث تصادم طائرتين. وقبل حدوث الكارثة بأسبوع، طلب أحد طلاب جامعة ديول في درهام ويدعى (لي فريد leefred) من عميد الجامعة وبحضور عدد كبير من الأساتذة أن يحتفظ له بظرف مغلق فيه رسالة على أن لا يفتح إلا بتاريخ: 29 مارس أي بعد ثمانية أيام من تحرير الرسالة.

وفي نفس التاريخ فتح عميد الجامعة بحضور الأساتذة الظرف المغلق وكم كانت دهشتهم كبيرة حينما قرأوا عبارة:«إنني أتوقع أن أقرأ يوم الاثنين القادم 29 مارس على الصفحة الأولى من صحيفة نيوز أند أوبزرفر (NEWS AND OB SEVER) ما يلي: مصرع 583 شخصا في حادث تصادم طائرتي بوينغ 747 في أكبر كارثة في تاريخ الطيران»[2].

ومن أمثلة الجلاء البصري في تاريخنا الإسلامي ما كان يحدث للخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقد ذكرت كتب السيرة حادثتين تدل كلتاهما على امتلاكه رضي الله عنه لقدرة خارقة للعادة مكنته من معرفة أحداث ما يقع في أماكن بعيدة وهي ما عبر عنها علماء الإسلام بالكرامة.

الحادثة الأولى: وهي قصة عمر وسارية بن الحصين. حيث جاء في الآثار أن عمر بن الخطاب بعث جيشا وأمر عليهم رجلا يدعى سارية بن الحصين، وبينما عمر يوم الجمعة يخطب جعل يصيح في خطبته وهو على المنبر: «يا سارية الجبل». قال علي بن أبي طالب – كرم الله وجهه – فكتبت تاريخ تلك الكلمة. فقدم رسول مقدم الجيش فقال: يا أمير المؤمنين غزونا يوم الجمعة في وقت الخطبة فهزمونا فإذا بإنسان يصيح يا سارية الجبل الجبل،

---

[1]-رؤوف عبيد: المرجع السابق، ج23، ص649.

[2]-المرجع نفسه، ص628.

فأسندنا ظهورنا إلى الجبل فهزم الله الكفار وظفرنا بالغنائم العظيمة ببركة ذلك الصوت[1].

الحادثة الثانية: قصة عمر وجمرة بن شهاب. ذكر يحي بن سعيد أن: «عمر بن الخطاب قال لرجل: ما اسمك؟ قال: جمرة، فقال: ابن من؟ فقال: ابن شهاب، قال: ممن؟. قال: من الحرقة، قال: أين مسكنك؟، قال: بحرة النار، قال: بأيها؟، قال: بذاتي لظى، قال عمر: أدرك أهلك فقد إحترقوا. قال فكان كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه»[2].

فهذه الظواهر الروحية لا تعترف بحدود الزمان وبحواجز المكان، وقد وقف أمامها العلم التجريبي عاجزا حائرا ولا سبيل إلى تفسيرها أوتعليلها إلا في إطار الدراسات الروحية أو الدراسات الدينية.

- **ظاهرة التخاطر(Télépathy):** وهو القدرة على معرفة ما قد يجول بداخل وعي إنسان ما من أفكار أومن مشاعر.

يقول كارل يونج[3]: «إن أي إنسان له أدنى معرفة بمادة الباراسيكولوجي كما هي قائمة الآن بالفعل، وكما تم تحقيقها بعناية، سوف يعلم أن ظواهر التخاطر (télépathie phenemena) تعبر عن وقائع لا يمكن إنكارها، وأن الدراسة الموضوعية الناقدة لعمليات المسح التي تمت بشأنها كفيلة بأن تثبت أن عمليات الإدراك تحدث كما لو كانت مستقلة في جانب منها عن المكان وفي جانب آخر عن الزمان»[4].

---

[1]-إسماعيل بن محمد العجلوني: كشف الخفاء ومزيل الألباس عما اشتهر من الحديث على ألسنة الناس، صححه وعلق عليه أحمد القلاش، ط4، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1405هـ-1985م، ج2، ص514.

-محمد ناصر الألباني: سلسلة الأحاديث الصحيحة، دط، الرياض، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، 1415هـ-1995م، مج3، ص101.

[2]-الإمام مالك: الموطأ، إعداد: أحمد راتب عكرموش، ط10، دب، دار النفائس، (1407هـ-1987م)، حديث رقم 1777، ص691.

[3]-يونج (1875-1905): عالم نفساني السويسرية معاصر لفرويد الذي اختلف معه حول مفهوم الليبيدو الذي يعرفه فرويد من خلال المفاهيم الجنسية في حين يرى يونغ أن الليبيدو هي الطاقة العامة للحياة والتي يكون الجنس أحد حواسها. من أهم مؤلفاته: "الأنماط النفسية" (PSYCHOLOGYCOL TYPES)، كما كانت له اهتمامات بدراسة الأساطير وأساليب التفكير عند البدائيين. (محمد ربيع: تاريخ علم النفس ومدرسته، ص311).

[4]-رؤوف عبيد: مرجع سابق، ج2، ص641.

وقد لاحظ الدكتور جيمس هاسيلوب (jams hyslop) [1] من خلال ظاهرة التخاطر (تراسـل الأفكار) ما يلي:

1)- يستطيع (التخاطر) أن يقوم باختيار محتويات معينة من عقل باطن أي إنســان، أي أن عملية تبادل الأفكار لا تخضع لعملية اختيار الأشخاص وإنما تحدث جزافا.

2)- بمقدور (التخاطر) أن يحصل على معلومات من الشخص المستقبل تفيد في تكوين إنطباعات حول شخصية معينة.

3)- بإمكان (التخاطر) أن يتضمن اتصالا مباشرا مستقرا بين الراسل و المستقبل.

4)-يستطيع (التخاطر) أن يتخير ذكريات معينة من عقل إنسان حي لكي يشـــخص إنســانا ميتا[2].

ومن أهم اختبارات التخاطر تلك التي أطلق عليها اسم (اختبارات المقاعد) ومن بينها الاختبار الذي قام به فورتيني ويتلخص في أنه كان يختار مقعدا من بين المقاعد التي سوف يجلـــس عليها المجتمعون في أي اجتماع لاحق، ويقوم الوسيط بإعطاء معلومات مسبقة عن الشخص الذي سوف يجلس على ذلك المقعد المختار في الاجتمـــاع المقبـــل بعـــد يومين. وكـــانت المعلومات التي أدلى بها الوسيط مذهلة من حيث صحتها ودقتها[3].

وبتاريخ: 07 فيفري 1997 أجرى الوسيط كروازيه اختبار المقاعد.

في إحدى قاعات معهد الباراسيكولوجي بجامعة أوترخت، كان عدد المقاعد سبعة وثلاثـــون (37) مقعدا فأختار كروازيه واحدا منها وأعطاه رقم (09)، ثم ذكر معلومات عن الشـــخص المجهول الذي سوف يجلس على هذا المقعد، وكانت معلوماته محددة ودقيقة شـــملت شـــكله الجسماني ومعلومات عن العديد من الأحداث الماضية التي مرت به أو ببعض أقاربه.

وهذه المقدرة الخارقة (الجلاء البصري – التخاطر) ليست في متناول جميع الناس، بل هـــي ومضات روحية تمنح لقلة من الناس، تتخلص الروح أثنائها من القيـــود الماديـــة وتنطلـــق بسرعة يقال أنها أسرع من الضوء، فترى وتسمع مهما بعدت المسافات.

---

[1]-جيمس هايسلوب: شغل أستاذا بجامعة كولومبيا وهو من أحسن من بحثوا ظواهر التخاطر tétépathy.

[2]-رؤوف عبيد: المرجع السابق، ج2، ص641.

[3]- المرجع نفسه، ص644-645.

وقد سلم العلم الحديث بتوفر هذه المقدرة للإنسان، وعن ذلك يحدّث حجة الطـــب الدكتـــور أليكسيس كاريل قائلا: «إن وجود الاستشفاف والتواصل عن بعد هو من المعطيات المباشـرة للملاحظة، يدرك ذووا الجلاء البصري بدون وساطة أعضاء الحس أفكار شخص آخر وهم يعرفون كذلك أحداثا بعيدة أن قليلا أو كثيرا في المكان أو الزمان، هذه المقدرة خارقة وفريدة في بابها، إنها لا تنمو إلا عند عدد قليل جدا من الأشخاص ولكنها موجودة في حالة بدائيـــة عند كثير من الأفراد وهي تمارس دون جهد وبطريقة خاطفة، وهي تبدو بسيطة جدا لمـــن يمتلكونها»[1]. وقد استطاع علم النفس الحديث في إطار علم الروح أن يثبت ما يلي:

1- وجود الطبيعة الروحية للكون.

2- أن جسم الإنسان المادي يحوز روحا مستقلة عنه تمام الاستقلال.

فإذا كان الاتصال عن بعد وبغير واسطة قد أثبته العلم الحديث للإنسان وللحيوان، فكيف جاز للعقل البشري أن يفكر -ولو للحظة- في نفي ذلك عن الله العزيز القدير.

المطلب الثاني: النبوة في العقيدة الإسلامية

أولا: تعريف النبوة:

1-التعريف اللغوي[2]:

إن لفظة (نبوة) مشتقة من مادة النبأ (بالهمز) وتعني الخبر. والنبيء (بالهمز) تعنـــي المخبر عن الله لأنه أنبأ عنه، كما تعني أيضا الطريق الواضح.

وإذا عريت لفظة النبيء من اللمز، فإنها مأخوذة من النبوة والنباوة، وهـــي الارتفـــاع عـــن الأرض، بمعني أن النبي أعلى الناس مقاما وأشرفهم مكانة لاختصاصه بالوحي.

والأصح في الاستعمال النبي وليس النبيء والسبب ما روي عن النبي – صلى الله عليه وسلم – أن أعرابيا قال له: «يا نبيء الله (بالهمز)»، فقال الرسول: «لا تنبر باسمي، فإنما أنا نبـــي الله ولست نبيءالله».

---

[1]-رؤوف عبيد: المرجع السابق، ج2، ص629-630.

[2]-الفيروز أبادي: القاموس المحيط: ج1، ص27.

-ابن منظور: لسان العرب، مج6، ص562.

-ابن فارس بن زكريا: معجم مقاييس اللغة، ج5، ص385.

فالمعنى على هذا أن النبوة تعني الأخبار التي تأتي من السماء أو من العالم العلـــوي إلـــى العالم الأرضي بواسطة النبي الذي أرتفع على سائر البشر بخطاب الله تعالى له.

2-التعريف الاصطلاحي:

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَـــالَمِينَ﴾[1].
وقال أيضا: ﴿قُلْ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّـــهُ خَـــيْرٌ أَمَّـــا يُشْـــرِكُونَ﴾[2].
ويقول كذلك: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنْ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنْ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾[3].
فهذه الآيات تدل على أن النبوة في القرآن هي اصطفاء واختيار وهبة من الله تعالى يختـــص بها من يشاء من عباده، ولا تخضع لإرادة الإنسان كما ذهب إليه الفلاسفة.
وهذا هو الاتجاه الذي تبناه علماء الإسلام. يقول الراغب الأصفهاني: «إن النبوة سفارة بيـــن الله وبين ذوي الألباب لإزالة عللهم فيما يحتاجون من مصالح الدارين وهذا حد كامل جـــامع بين المبدأ المقصود من النبوة وهو السفارة المخصوصة وبين منتهاها وهو إزاحة عللهم»[4].
وعرفها الإمام البيجوري قائلا: «إن النبوة هي إختصاص العبد بسماع الوحي من الله تعـــالى بحكم شرعي تكليفي سواء أمر بتبليغه أم لا، وهكذا الرسالة بشرط أن يؤمـــر بـــالتبليغ ولا يكتسب النبوة بمباشرة مخصوصة كملازمة الخلوة والعبادة وتناول الحـــلال كمـــا زعمـــت الفلاسفة»[5].
أما الإمام "ابن حزم"[6] فيرى: «أن النبوة هي بعثة قوم قد خصهم الله تعالى بالحكمة والفضيلة والعصمة لا لعلة إلا أنه شاء ذلك، فعلمهم الله تعالى بدون تعليم ولا تنقل فـــي مراتبـــه ولا بطلب له»[7].

---

[1]-سورة آل عمران، الآية33.
[2]-سورة النمل، الآية: 59.
[3]-سورة الحج، الآية: 75.
[4]-الراغب الأصفهاني: الاعتقادات، تحقيق: شمران العجلي، ط1، بيروت، مؤسسة الأشراف، 1988، ص19.
[5]-إبراهيم بن محمد البيجوري: شرح جوهرة التوحيد، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية، 1903، ص287.
[6]-هو أبو محمد بن حزم العلامة علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن صالح الأموي القرطبي الظاهري، كان عالما بالكتاب والسنة والمذاهب والملل والنحل، ألف حوالي 400 مجلد من بينها: "الفصل في الأهواء والملـــل والنحـــل". (أبـــو الفلاح عبد الحي بن العماد: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، بيروت، دار الكتب العلمية، ج3، ص299).
[7]-ابن حزم: الفصل في الملل والأهواء والنحل، تحقيق: محمد إبراهيم نصر وعبد الرحمان عميرة، ط1، المملكـــة العربيـــة السعودية، مكتبة عكاظ، 1982، ج1، ص140.

نستنتج مما تقدم أن النبوة هي وحي الله يوحيه إلى من اختاره من عباده الصـــالحين ليبلغ عنه أحكامه وتعاليمه، وتكون مهمة النبوة هي تحديد الأعمال التي بـــها تتـــم ســـعادة الإنسان في الدارين «لأن الأنبياء هم رسل الله تعالى إلى عباده بأوامره ونواهيه، زيادة على ما اقتضته العقول من واجباتها، وإلزامها لما جوزته من مباحاتها، لما أراده الله تعالى مـــن كرامة العاقل وتشريف أفعاله واستقامة أحواله وانتظام مصالحه»[1].

ولا يكون للنبي أو الرسول يد في ذلك الاختيار وهذا مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَـــا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِـــهِ مَـــنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[2].

أ-تعريف النبي: أما مفهوم النبي في الاصطلاح، فقد اتفق العلماء على أن النبي هو إنسان أوحى الله إليه بشرع سواء أمر بتبليغه أم لم يؤمر، فإن أمر بالتبليغ فهو نبي رسول.

فما هو الفرق بين النبي والرسول؟.

ب-الفرق بين النبي والرسول: ذكر الإمام الماوردي أن العلماء اختلفوا في الأنبيـــاء والرسل على قولين[3]:

«**القول الأول:** أن الأنبياء والرسل واحد فالنبي رسول والرسول نبي، والرسول مأخوذ مـــن تحمل الرسالة والنبي مأخوذ من النبأ (وهو مذهب جمهور المعتزلة).

القول الثاني: أما من فرق بين النبي والرسول فقد اعتمد على الآية الكريمة ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِـــنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾[4]. فدلت الآية على أن اختلاف الأسماء يدل على اختلاف المسميات وذكروا في الفرق بينهما عدة فروق منها:

1)- أن الرسول هو من يأتيه الوحي من الوجوه كلها والنبي هو من له الوحـــي المنـــامي والإلهامي فقط.

---

(1)-عضد الدين الإيجي: المواقف في علم الكلام، دط، القاهرة، مكتبة المتنبي، دت، ص331.

(2)-سورة الشورى، الآية: 52.

(3) الماوردي: مصدر سابق، ص93.

(4)-سورة الحج، الآية: 52.

2)- الرسول هو الذي يأتي بالشرائع والأحكام، والنبي هو الذي يحفظ شريعة من قبله كأنبياء بني إسرائيل الذين بعثوا لتصحيح شريعة موسى عليه السلام.

ثانيا: إثبات نبوة محمد ﷺ:

بعدما أثبتنا بالدليل النقلي والعقلي والعلمي إمكانية حدوث الوحي وضرورته لتنظيم حياة الناس ومصالحهم، نتوجه الآن للحديث عن العنصر الثاني من عناصر النبوة وهو الرسول محمد ﷺ وسأخص بالذكر حيزا من سيرته الطاهرة والتي تعتبر في ذات الوقت إحدى الوجوه الدالة على صدق نبوته – عليه الصلاة والسلام.

1-نشأة اليتم والفقر:

ولد النبي محمد –عليه الصلاة والسلام– يتيم الأب ولما بلغ السادسة من عمره توفيت والدته السيدة –آمنة– فكفله جده عبد المطلب، مكث النبي عند جده سنتين وشهرين بعدها توفي، فانتقلت كفالته إلى عمه أبي طالب.

جاء الرسول إلى الحياة ولم يجد في إنتظاره سوى الفقر والحرمان، وهوميراث لولقيه أحد غيره من الناس لقاده ذلك إلى إحدى السبيلين:

- إما سبيل الانحراف والضياع وما ينجر عنه من مساوئ قد تجعل منه أحد لصوص الصحراء أو أحد قطاع طرقها الذين يهيمون في شعاب مكة وما جاورها ينتظرون مرور القوافل لنهبها وسرقتها.

- وإما سبيل النجاح والتقدم وحينئذ يكون الفقر والحرمان دافعا له نحو العلا وعاملا يحثه دوما على العمل والاجتهاد والمثابرة ليتخلص من حياة الفقر والشقاء. وقد أثبتت الحقائق التاريخية أن العديد من المشاهير والعظماء ولدوا يتامى وعاشوا محرومين.

ولكن أن يولد الإنسان يتيما وفقيرا ويقضي طفولته في التنقل من بيت إلى آخر، ولكل بيت عاداته وقوانينه الخاصة به، ويعيش في مجتمع تسوده الفوضى الأخلاقية ويحكمه قانون الغاب ثم يكون بمستوى أخلاق محمد وبمستوى صدقه وأمانته وعفته وطهارة قلبه، هذا ما لم يحدث أبدا ولن يحدث على الإطلاق. لماذا؟

أولا لأن تجارب الحياة أثبتت أن فاقد الشيء لا يعطيه. ثانيا لأن علماء النفس يقولون بأن مرحلة الطفولة هي أهم المراحل في حياة الإنسان فهي المسؤولة عن التـــوازن النفســـي للشخص حينما يكبر، والإنسان الذي يقضي طفولة عادية سيكون إنسانا ســـويا بعيـــدا عـــن الأمراض النفسية، أما الإنسان الذي يقضي طفولة محرومة يكون عرضة لمختلف الأمراض النفسية وقد يصبح إنسانا معقدا بسبب ما عاناه في تلك المرحلة.

فمن أين إذن أتى محمد ﷺ بذلك الأدب السامي وتلك الأخلاق العاليـــة؟ ومـــن أيـــن أتـــى بالرحمة والحياة لم ترحمه؟

ومن أين أتى بالحب والحنان وقد حرمته الحياة الحب قبل أن ترى عينيه الشريفتين النـــور، ثم حرمته منه ثانية وهو طفل في السادسة من عمره؟

ومن أين أتى بالعفو والصفح وقد عاش وسط أعراب غلاظ شداد؟.

إن في هذه المسألة أمرا غير طبيعيا هو الذي حفظ حيـــاة محمـــد مـــن الانحـــراف والضياع وهو الذي حفظ نفس محمد من العقد والأمراض النفسية، وهو المسؤول عن تلـــك الخصال الكريمة التي يتصف بها محمد – عليه أفضل الصلاة والسلام–.

ذلك الأمر غير الطبيعي هو العناية الإلهية التي تدخلت في نشأة النبي ﷺ، قـــال تعـــالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى. وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى. وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾[1].

وقال أيضا:﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[2].

إن النبي محمد ﷺ مدين بهذه النشأة الفريدة في مجتمعه لله سبحانه وتعـــالى الـــذي تعـــهده بالعناية منذ ولادته وحتى تكليفه بالرسالة الخالدة.

لقد شاء المولى عز وجل أن ينشأ رسوله نشأة روحية قوامها طهارة القلب وصفـــاء النفـــس فأرسل إليه جبريل وهو طفل صغير لا زال في بادية بني سعد عند مرضعته حليمة السـعدية لكي يطهر قلبه من الرجس والشوائب.

---

[1]–سورة الضحى، الآيات: 6-8.

[2]–سورة الأنعام، الآيتين: 161-162.

فقد روى الإمام مسلم [أن النبي ﷺ بينما هو يلعب مع الغلمان أتاه جبريل فـأخذه فأضجعـه فشق عن قلبه فأستخرجه، وأستخرج منه علقة، فقال: «هذا حظ الشيطان منك ثم غسله فـي طست من ذهب، بماء زمزم، ثم لأمه ثم أعاده إلى مكانه»، وجاء الغلمان يسعون إلى أمـه -يعني مرضعته- أن محمد قد قتل، فاستقبلوه وهو ممتقع اللون، وكان ذلك وهو ابن أربـع سنوات تقريبا][1].

وحينما تتحرك نوازع النفس البشرية وتحثه على مشاركة أقرانه من الشباب في حيلة اللهو والسمر تتدخل العناية الإلهية لتمنعه من القيام بذلك، ذكر البخاري عن النبي ﷺ أنـه قال: «ما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يهتمون إليه إلا ليلتين، كلتاهما عصمني الله عز وجل فيهما، قلت ليلة لبعض فتيان مكة ونحن في رعاء غنم أهلها.

فقلت لصاحبي: ألا تبصر لي غنمي حتى أدخل مكة أسمر فيها كما يسمر الفتيان؟

فقال: بلى.

قال: فدخلت حتى جئت أول دار من دور مكة، فسمعت عزفا بالغرابيل والمزامير، فقلت: ما هذا، قالوا: تزوج فلان فلانة.

فجلست أنظر فيضرب الله على أدني فوالله ما أيقضني إلا مـس الشـمس، فرجعـت إلـى صاحبي.

فقال: ماذا فعلت؟

فقلت: ما فعلت شيئا، ثم أخبرته بالذي رأيت.

ثم قلت له ليلة أخرى: أبصر لي غنمي حتى أسمر، ففعل فدخلت، فلما جئت مكة سمعت مثل الذي سمعته في تلك الليلة فسألت: فقيل: نكح فلان فلانة، فجلست أنظر، فظـرب الله علـى أدني فو الله ما أيقضني إلا مس الشمس.

فرجعت إلى صاحبي فقال: ما فعلت؟

فقلت لا شيء، ثم أخبرته الخبر، فوالله ما هممت ولا عدت بعدها لشيء مـن ذلـك حتـى أكرمني الله عز وجل بنبوته»[2].

---

[1]-رواه مسلم في صحيحه كتاب الإيمان، باب الوحي، ج1، ص101.

[2]-رواه الحاكم في المستدرك، دط، بيروت، دار الكتاب العربي، دت، كتاب التوبة والإنابة، ج4، ص245.

وبدافع تلك النشأة الروحية توجه محمد ﷺ إلى غار حراء أياما ولياليَ، حيث الـهدوء والسكينة، لعله يجد مخرجا لحيرته في الطريقة التي يجب أن يعبد بها الله، وقد أدرك بفطرته السليمة حقيقة وجوده.

2-صدقه ﷺ:

كان الرسول ﷺ طوال فترة حياته قبل البعثة ملاكا في صورة إنسان يمشـــي علـــى الأرض، فلم يحدث أبدا أن ظلم أحدا، أو سخر من أحد، أو خاصم أحدا. كما لم يُجَرَّب عليـه ولو كذبة واحدة حتى لقب بالصادق الأمين. وحتى الذين أخذتهم العزة بالإثم مـــن زعمـاء قريش وسادتها لم يجرؤوا على اتهامه بالكذب وإنما رموه بالسحر والكهانة لأنهم لو فعلوا ذلك فسيصبحون عرضة للسخرية من طرف المحيطين به، الذين يعلمون علم اليقين بأن محمدا لا يكذب وأنه الصادق في كل أقواله مهما تغيرت أحواله.

وللاستدلال على صدق النبي تم اختيار ثلاثة نماذج من الشواهد الدالة على صفة النبوة وهي صفة الصدق.

أ-شهادة أبي سفيان: روت لنا كتب السيرة أن أبا سفيان وقد كان على الشرك آنـذاك، ومن أشد الناس بغضا وعداوة للنبي ﷺ، في الوقت الذي جرى بينه وبين هرقل ملك الـروم هذا الحديث المتضمن لجملة من الأسئلة عن أحوال النبي:

سأل هرقل أبا سفيان الذي كان متواجدا بالشام رفقة مجموعة من تجار قريش، وقـــد أمـــر الباقين إن كذب أن يكذبوه، فصاروا بسكوتهم موافقين له في الأخبار.

هل كان في أبائه ملك؟ فقالوا: لا.

هل قال هذا القول أحد قبله؟ فقالوا: لا.

هل هوذونسب فيكم؟ فقالوا: نعم.

هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فقالوا: لا، ما جربنا عليه كذبا.

هل أتبعه ضعفاء الناس أم أشرافهم؟ فذكروا أن الضعفاء اتبعوه.

هل يزيدون أم ينقصون؟ فذكروا أنهم يزيدون.

هل يرجع أحد عن دينه سخطة له بعد أن يدخل فيه؟: فقالوا: لا.

هل قاتلتموه؟ قالوا: نعم.

ما طبيعة الحرب بينكم وبينه؟ قالوا: يدال علينا مرة، وندال عليه أخرى.

هل يغدر؟: فقالوا: لا يغدر.

بماذا يأمركم؟ فقالوا: يأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئا، وينهانا عما كان يعبد أباؤنا، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة.

ثم بين هرقل لأبي سفيان وللحاضرين معه في النهاية دلائل أسئلته فقال:

سألتكم هل كان في أبائه من ملك؟ فقلتم لا، قلت لوكان في أبائه من ملك لقلت: رجل يطلب ملك أبيه.

وسألتكم هل قال هذا القول (فيكم) أحد قبله؟ فقلتم لا، فقلت: لوقال هذا القول أحد قبله لقلت رجل أئتم بقول قيل قبله.

وسألتكم هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فقلتم لا، فقلت: قد علمت أنه لم يكن ليذع الكذب على الناس ثم يذهب فيكذب على الله تعالى.

وسألتكم أضعاف الناس يتبعونه أم أشرافهم؟ فقلتم ضعفاؤهم وهم أتباع الرسل، يعني في أول أمرهم.

وسألتكم هل يزيدون أم ينقصون؟ فقلتم: بل يزيدون، وكذلك الإيمان حتى يتم.

وسألتكم هل يرتد أحد منهم عن دينه سخطة له بعد أن يدخل فيه؟ فقلتم لا، وكذلك الإيمان إذا خالط بشاشة القلوب لا يسخطه أحد.

وأعلم أن من علامات صدق نبوته ﷺ أن أتباعه يزيدون ولا ينقصون، لأن الكذب والباطل لابد أن ينكشف في آخر الأمر، فيرجع عليه أصحابه، ويمتنع عنه من لم يدخل فيه، والكذب لا يروع إلا قليلا ثم ينكشف.

وسألتكم هل يغدر؟ فقلتم: لا، وكذلك الرسل لا تغدر، إذ الغدر قرين الكذب.

وسألتكم عما يأمركم به؟ فذكرتم أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف والصلة، وينهاكم عما كان يعبد أباكم وهذه صفة نبي.

وعلق هرقل في النهاية بقوله: «ولو كنت أعلم أن نبيا يبعث، ولم أكن أظنه منكم، ولـــوددت أني أخلص إليه، ولولا ما أنا فيه من ملك لذهبت إليه، وإن يكن ما تقول حقا فسيملك موقـــع قدمي هاتين»[1].

ب-شهادة أبي جهل: جاء في الأثر أن رجلا من سادة قريش لقي (أبا جهل) في أحد طرقات مكة، فاستوقفه ثم قال له: يا أبا الحكم ليس هنا غيري وغيرك، أناشدك بـــالله هـــل محمد ﷺ صادق أم كاذب؟ فأجابه أبو جهل: والله إن محمدا صادق، وما كذب قط.

فقال: فما الذي يمنعك من اتباعه؟، فقال أبو جهل: تنافسنا نحن وبنو هاشم وتنازعنا الزعامـــة والفخر، فأطعموا فأطعمنا، وسقوا فسقينا، وأجاروا فأجرنا، حتى كنا كفرسي رهـــان، - أي استوينا وإياهم في السبق والفخر-، ثم زادوا علينا فقالوا: أنزل الله تعالى تثاؤه تسلية لنبيه.

جـــ-حادثة جمع الناس في جبل الصفا: صعد النبي ﷺ بعد أن صدر الأمر الإلهي بتكليفه بالرسالة جبل الصفا فجعل ينادي لبني قريش حتى اجتمعوا فســـألهم: " أرأيتكـــم لـــو أخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم كنتم مصدقي؟ «قالوا: نعم ما جربنا عليـــك إلا صدقا، قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد»[2].

فهذه الشواهد التي ذكرناها هي اعترافات صريحة صدرت عن رؤوس الشرك في مكة ولكن ما الذي يمنعهم من الإقرار بنبوة محمد والاعتراف به نبيا مرسلا؟ إنـــها الزعامـــة وحـــب الرياسة والحقد، تلك هي الأسباب التي منعت الكفار من إبصار نور الحق وإتباعه.

ثالثا:معجزة النبي ﷺ:

1-تعريف المعجزة:

-المعجزة في اللغة: اسم مفعول مأخوذ من العجز، بمعنى نقيض الحزم، والضعـــف وعدم القدرة[3].

-أما في الاصطلاح: فهي أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي مع عدم المعارضة، وهي من فعل الله تعالى خص به أنبيائه الكرام[4].

---

(1)-رواه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي. باب: كيف كان بدء الوحي، ج1، ص5-6.

(2) رواه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير. باب: "وانذر عشيرتك الأقربين"، ج5، ص87.

رواه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان. باب: في قوله: "وانذر عشيرتك الأقربين"، ج1، ص134.

(3) ابن منظور: لسان العرب، ج4، ص2817.

(4) - الفخر الرازي: محصلة أفكار المتقدمين والمتأخرين والحكماء والمتكلمين، دط، دب، مكتبة الكليات الأزهرية، دت، ص227.

وقوله: أمر معجز: أي أعجز الخصم عن الإتيان بمثله واستعمال لفظ (أمر) يشـــمل القـــول كالقرآن الكريم، والفعل كانفجار الماء من بين أصابع النبي ﷺ ويشمل الترك (عدم الفعـــل) كعدم إحراق النار سيدنا إبراهيم عليه السلام.

2-شروط المعجزة:

وضع العلماء سبعة شروط يجب توفرها في الأمر المُعجَز وهي:

1- أن يكون من فعل الله أو ما يقوم مقامه.

2- أن يكون خارقا للعادة، إذ لا إعجاز دونه.

3- أن تتعذر معارضته بمثله، فإن ذلك حقيقة الإعجاز.

4- أن يكون ظاهرا على يد مدعي النبوة ليعلم أنه تصديق له.

5- أن يكون الأمر المعجز موافقا للدعوى، فلو قال معجزتي أن أحيي ميتا ففعل خارقا آخـر لم يدل على صدقه.

6- أن لا يكون الأمر الخارق مكذبا له، فلو قال أن معجزتي أن ينطق هذا الضب فنطـــق فقال: إنه كاذب، لم يدل ذلك على صدقه، بل افتضح أمره وظهر كذبه.

7- أن لا يكون الأمر الخارق متقدما على الدعوى بل مقارنا لها، لأن التصديق قبل الدعوى لا يعقل فلو قال معجزتي ما قد ظهر على يدي من قبل لم يدل على صدقه[1].

ولا تظهر المعجزة إلا على يدي الأنبياء لتكون دليلا على صدقهم، ولا يمكن ظهورها علـــى يد من كذب على الله من المدعين للنبوة، يقول ابن حزم: «حاشا لله أن يظهر آية على مـــن يمكن أن يكذب أو يأمر بباطل»[2].

وعدم ظهور معجزة على يد كاذب لا يعني عجز الله تعالى وعدم قدرته على ذلـــك «فـــالله تعالى قادر على إظهار المعجزة على أيدي الكذابين المدعين للنبوة، لكنه تعالى لا يفعل كمـــا لا يفعل ما لا يريد أن يفعله من سائر ما هو قادر عليه»[3].

---

[1]- عضد الدين الإيجي: مصدر سابق، ص ص339-340.

[2]- ابن حزم: مصدر سابق، ج5، ص104.

[3]- المصدر نفسه، ص99.

3-كيفية إدراك المعجزة:

يتم العلم بالمعجزة عن طريق المشاهدة لمن حضرها، أما من غاب عنها لبعد المسافة أولتباعد العصور، فيدركها عن طريق التواتر الموجب للعلم الضروري.

4-أنواع المعجزة:

ذكر العلماء أن المعجزة ضربان «حسي وعقلي، فالحسي ما يدرك بالعيان وتقع عليه المشاهدة كطوفان نوح وناقة صالح وعصا موسى، والعقلي ما لا يدرك إلا بالبصيرة والروية والفكرة، والعقلي أبلغ في القوة وأدل على أصدق وأبعد عن الشبهة»[1].

- **المعجزة الحسية:** والمعجزة الحسية لا يطلبها إلا العوام ذووا التفكير السطحي البسيط وقد يعرض لطالبها الشك والإرتياب بعد الإيمان، كما حدث مع قوم ثمود، يقول تعالى: ﴿وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا﴾[2]. وما حدث مع نبي إسرائيل أيضا، يقول تعالى: ﴿يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَامُوسَى اجْعَل لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ. إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[3].

-**المعجزة العقلية:** أما المعجزة العقلية فهي التي جاءت تخاطب العقل والقلب معا، ولا يتزعزع إيمان من اعتمد عليها، بل يزداد قوة ورسوخا مع مرور الزمن، يقول الإمام السيوطي: «وأكثر معجزات بني إسرائيل كانت حسية لبلادتهم وقلة بصيرتهم، وأكثر معجزات هذه الأمة عقلية لفرط ذكائهم وكمالأفهامهم، ولأن هذه الشريعة لما كانت باقية على صفحات الدهر إلى يوم القيامة خصت بالمعجزة العقلية الباقية ليراها ذووا البصائر»[4].

وقد جمع للنبي محمد ﷺ كلا النوعين الحسي والعقلي، فقد حكى لنا القرآن الكريم عن كفار قريش الذين اشترطوا لإيمانهم رؤية المعجزات الحسية، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا. أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ

---

[1]-الراغب الأصفهاني: مصدر سابق، ص122.

[2]-سورة الإسراء، الآية: 59.

[3]-سورة الأعراف، الآيتين: 138-139.

[4]-الإمام السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، دط، دب، دت، ج2، ص148-149.

خِلَالَهَا تَفْجِيرًا. أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا. أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾[1].

أما معجزة الرسول العقلية فهي القرآن الكريم، وقد اقتضت حكمة الله أن تكون معجزة آخر أنبيائه عقلية لتساير التطور الذي حصل للبشرية التي انتقلت من طور الطفولة إلى طور الرشد، ولم تعد تقتنع بتلك المعجزات الحسية التي كانت للأنبياء السابقين، هذا الكتاب الذي تحدى العرب جميعا إن استطاعوا أن يأتوا بمثله، أو بمثل صورة منه وهم فرسان البلاغة والأدب والشعر. فما كان منهم إلا التسليم والعجز، قال تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾[2].وقوله أيضا: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[3].

ولم يستطع رؤوس الشرك بمكة أن يخفوا إعجابهم بالقرآن الكريم وبما اشتمل عليه من أسلوب ونظم وبلاغة تجدب إليها كل من يستمع إليه. فهذا الوليد بن المغيرة – وهو على الشرك – يقول لبني صخر وقد سمع آيات من القرآن الكريم: «والله ما منكم أحد أعلم بالأشعار مني، أعرف رجزها وقصيدها، والله ما يشبه الذي يقوله شيئا من ذلك، إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق وإنه لا يعلو ولا يعلى عليه، ما يقول هذا بشر»[4].

وروي أن أبا جهل قال لملأ من قريش: «قد التبس علينا أمر محمد، فلو التمستم رجلا عالما بالشعر والكهانة والسحر فكلمه ثم أتانا ببيان عن أمره؟ فقال عتبة: والله لقد سمعت الشعر والكهانة والسحر وعلمت من ذلك علما وما يخفى عليّ، فأتاه فاسمعه رسول الله أوائل سورة " فصلت " فلما بلغ قوله: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ

---

[1]–سورة الإسراء، الآيتين: 90-93.

[2]–سورة البقرة، الآية: 23.

[3]–سورة الإسراء، الآية: 88.

[4]–رواه الحاكم في المستدرك، كتاب التفسير. باب: تفسير سورة المدثر، ج2، ص570.

وَثَمُودَ﴾[1]. فأمسك عتبة على فيه وناشد الرحم ورجع إلى أهله ولم يخرج إلى قريش، فلما احتبس عنهم قالوا ما نرى عتبة إلا قد صبا، فانطلقوا إليه وقالوا: يا عتبة ما حبسك عنا إلا أنك قد صبأت، فغضب وأقسم لا يكلم محمدا أبدا، ثم قال: والله لقد كلمته فأجابني بشيء والله ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر، ولما بلغ: ﴿صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ أمسكت بفيه وناشدته الرحم، وقد علمتم أن محمدا إذا قال شيئا لم يكذب فخفت أن ينزل بكم العذاب»[2].

ولما علم كبار المعارضين للنبي ﷺ مدى التأثير الذي يحدثه القرآن في نفوس من يستمعون إليه، اتفقوا على أن لا يستمعوا إليه، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾[3] خوفا من ازدياد أمثال جبير بن مطعم الذي أسلم عند سماع النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، قال جبير فلما بلغ هذه الآية: ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ. أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ. قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ. أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ. أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ. فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ. أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ. أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ. أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ﴾[4] قال جبير: فكاد قلبي حينذاك أن يطير، وذلك أول ما وقر الإسلام في قلبه.

وإلى جانب تحديه البلاغي والبياني للعرب في عصر النبوة اشتمل القرآن على أنواع أخرى من التحدي من ذلك مثلا إخباره عن الأمور الغيبية الماضية منها كذكر أخبار الأنبياء السابقين وأحوال أممهم والحديث عن العذاب الذي حل ببعض هذه الأمم بسبب عنادهم وكفرهم.

مثال ذلك: ما ذكره القرآن بعد ذكر قصة مريم وكفالة نبي الله زكريا لها، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾[5].

---

[1]-سورة فصلت، الآية: 13.

[2]-أبو الفداء إسماعيل بن كثير، السيرة النبوية، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، ط2، بيروت، دار الفكر، (1328هـ-1989م)، ص503.

[3]-سورة فصلت، الآية: 26.

[4]-سورة الطور، الآيات: 29-37.

[5]-سورة آل عمران، الآية: 44.

ووجه التحدي أووجه الإعجاز في ذكر قصص الماضي أن النبي ﷺ كان أميا لا يعرف القراءة ولا الكتابة، فمن أين أتى بهذه الأخبار والتي كان بعضها مجهولا حتى لدى أهل الكتاب أنفسهم؟

ولقد تكفل القرآن الكريم بالإجابة عن هذا السؤال، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾[1].

وقال أيضا: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَـٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾[2].

وأما إخبار القرآن عن الأمور الغيبية المستقبلية فمن ذلك قول الرسول ﷺ لعمار: «تقتلك الفئة الباغية»[3].

وإخباره عن هزيمة الفرس بعد غلبهم، قال تعالى: ﴿الم. غُلِبَتِ الرُّومُ. فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ. فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾[4].

إعجاز أخر تضمنه القرآن الكريم وهو الإعجاز العلمي الذي يقول عنه الأديب مصطفى صادق الرافعي: «إن في ذكر الآيات الكونية والعلمية في القرآن دليل على إعجاز آخر فهو بذلك. يومئ إلى أن الزمن متجه في سيره إلى الجهة العلمية القائمة على البحث والدليل، وأن الإنسانية ذاهبة في أرقى عصورهاإلى هذا المذهب، وان الدين سيكون عقليا، وأن العقل هو آخر أنبياء الأرض، فوجود ذلك فيه قبل أن يوجد ذلك في الزمن بأربعة عشرة قرنا، شهادة ناطقة من الغيب لا يبقى عليها موضع شبهة»[5].

---

[1]-سورة يوسف، الآية: 102.

[2]-سورة هود، الآية: 49.

[3]-الإمام أحمد: مسند الإمام أحمد، رقم: 6211.

[4]-سورة الروم، الآية: 1-4.

[5]-مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ط4، بيروت، دار الكتاب العربي، دت، ص131.

المبحث الثاني: الوحي والنبوة في اليهودية والمسيحية

المطلب الأول: الوحي والنبوة في اليهودية

أولا: تعريف الوحي:

جاء في سفر الخروج الإصحاح 11/4 «أما أنا هو الرب، فالآن اذهب وأنا أكـــون مع فمك وأعلمك ما تتكلم به».

وفي سفر العدد الإصحاح 17/11 «فأنزل أنا أتكلم معك وآخذ من الروح الذي عليك وأضـــع عليهم»، وفي مكان آخر من نفس السفر الإصحاح 8/6/12 قال الرب: «إن كان منكم نبـــي للرب فبالرؤيا استعلن له في الحلم أكلمه فمإلى فم وعين أتكلم معه لا بالألغاز».

فهذه النصوص تناولت الحديث عن الوحي في الديانة اليهودية مشـــيرة إلـــى تعـــدد وتنوع أساليب الاتصال بين الله وأنبيائه.

فالنص الأول والثاني (سفر الخروج 11/4 وسفر العدد 17/11) يتحدث عن وحي الله المباشر إلى موسى عليه السلام وهي أعلى مرتبة يصل إليها النبي كما يقول ابن كمونة: «المرتبة العاشرة أن يرى أن الله تعالى يخاطبه في حال يقضته»[1].

أما النص الثالث «وإن كان منكم نبيا للرب فبالرؤيا استعلن له في الحلم أكلمه فما إلـــى فـــم وعين أتكلم إليه لا بالألغاز»، فيتحدث عن وجود طرق أخرى للاتصـــال الإلـــهي كالرؤيـــا والحلم مثلما حدث لسيدنا إبراهيم وسيدنا يوسف –عليهما السلام–.

ولقد حكى سفر التكوين عن الحلم الذي رآه سيدنا يوسف عليه السلام قائلا: «وأما إســـرائيل فأحب يوسف أكثر من سائر بنيه، لأنه ابن شيخوخته، فصنع له قميصا ملونـــا، فلمـــا رأى اخوته أن أباهم أحبه أكثر من جميع اخوته بغضوه ولم يستطيعوا أن يكلموه بســـلام، وحلـــم يوسف حلما وأخبر اخوته فازدادوا أيضا بغضا له، فقال لهم: اسمعوا هذا الحلم الذي حلمـت، فها نحن حازمون حزما في الحقل، وإذا حزمتي قامت وانتصبت فاحتاطت حزمكم وســـجدت لحزمتي، فقال له اخوته: لعلك تملك علينا ملكا أو تتسلط علينا تسلطا، وازدادوا بغضا له من

---

[1] ابن كمونة: مصدر سابق، ص7.

أجل أحلامه ومن أجل كلامه»[1]. ويضيف السفر: «ثم حلم حلما آخر وقصه علـــى اخوتـــه فقال: إني قد حلمت حلما آخر أيضا، وإذا الشمس والقمر وأحد عشرة كوكبا ســـاجدة لـــي، وقصه على أبيه وعلى اخوته، فانتهره أبوه وقال له: ما هذا الحلم الذي حلمت، هل نأتي أنـــا وأمك واخوتك لنسجد لك إلى الأرض، فحسده اخوته، وأما أبوه فحفظ الأمر»[2].

ويتحدث ابن كمونة عن طرق الاتصال بين الله والنبي الذي يخاطبه بقوله: «والوحـــي الذي يأتي الأنبياء ينقسم بحسب القسمة العقلية على وجوه أربعة، لأنه إما في النـــوم أو فـــي اليقظة، وعلى كل واحد من التقديرين إما بواسطة ملك أو غيره أو بغير واسطة إن أمكـــن. وكل واحد من هذه الأقسام فقد يصرح النبي به عند الدعوة وقد لا يصرح، وقد يكـــون مـــن الأنبياء من يتنبأ بالأمثال، وذلك أنه يرى شيئا على جهة المثل، فقد يشرح له معنى ذلك المثل وقت رؤيته له، كمثل ما يرى الإنسان مناما ويتخيل في منامه ذلك، أنه قد انتبه وقصّ المنـــام على غيره وشرح له معناه والكل منام»[3].

ثانيا: تعريف النبي:

1-التعريف اللغوي:

وردت لفظة نبي ([ ]ٌ) في اللغة العبرية للدلالة على عدة معاني مختلفة، فقد جاءت بمعنى تنبأ وتحدث، وتغنى وأنشد[4].

---

[1]-سفر التكوين، الإصحاح 37/3-8.

[2]-سفر التكوين، الإصحاح، 37/9-11.

-يعتبر هذا النص من بين النصوص الدالة على وجود الاختلاف بين ما جاء في نصوص العهد القديم وما جاء في القـــرآن الكريم، وهو الأمر الذي يتعمد تجاهله معظم المستشرقين، الذين يهتمون فقط بالنصوص المتشابهة ليثبت فكرهم عن وجـــود التأثير بين كل من اليهودية والإسلام.

والاختلاف الحاصل في هذا النص هو أن القرآن حينما تعرض لقصة يوسف عليه السلام ذكر أن هذا الأخير لم يخبر اخوته بمـــا رآه في الحلم بل أخبر والده فقط، قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَاأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَـــرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ .قَالَ يَابُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّـــيْطَانَ لِلْإِنسَـــانِ عَـــدُوٌّ مُبِـــينٌ﴾ (يوسف/4-5).

[3]-ابن كمونة: مصدر سابق، ص5.

[4]-محمد خليفة: مرجع سابق، ص117.

غير أنه وجد من الباحثين من يرفض أن يكون معنى النبي (المتحدث أو المتنبئ) من الناحية اللغوية كما كان يعتقد كثير من القدماء وكتاب العصر الوسيط، ويفضل عليهما معنى المتحدث باسم الرب[1].

2-التعريف الاصطلاحي:

ومن ذلك الاختلاف الحاصل في التعبير اللغوي عن لفظة النبي، اختلف العلماء في تحديد معنى النبي في العهد القديم، الأمر الذي تسبب في ظهور عدة قراءات مختلفة لمعنى النبي بالرغم من كونها جميعا مستوحاة من نصوص العهد القديم.

أ-النبي بمعنى المتحدث باسم الرب: جاء في المعجم اللاهوتي أن النبي هو المتحدث باسم الرب وبلسانه، ويعبر عن فرائضه ووعوده[2]. كما نص على ذلك صفر إرمية، فمثل "فمي تكون"[3].

ب-النبي بمعنى المتحدث بالنيابة عن الرب: كما جاء في صفر الخروج الذي يتحدث عن خطاب الرب لموسى عليه السلام والمتضمن أمر نيابة هارون عليه السلام عن أخيه موسى مثل ما هو ينوب عن الرب «...أليس هارون اللاوي أخاك، أنا أعلم أنه يتكلم... فتكلمه وتضع الكلمات في فمه وأنا أكون مع فمك ومع فمه وأعلمكما ماذا تصنعان، وهو يكلم الشعب عنك وهو يكون لك فما وأنت تكون له إلها»[4].

جـ-النبي بمعنى المخبر عن الرب: جاء في تعريف العلامة اليهودي ابن كمونة: «يقال نبي ورسول لمن يؤدي أخبارا عن الله تعالى من غير أن يكون بينه وبينه واسطة آدمي، فيدخل في ذلك من يأتيه الخطاب من الله سبحانه بغير واسطة، أو بواسطة هي غير إنسان آخر كملك من الملائكة، أو نفس من النفوس السموية أو عقل من العقول على اصطلاح الحكماء أو غير ذلك»[5].

---

(1)-Lo Bouyer : Dictionnaire dielogique, desclée, P548.

(2)-Lo Bouyer : Op.Cit, P548.

(3)-سفر إرميا، الإصحاح، 19/15.

(4)-سفر الخروج، الإصحاح، 41/4.

(5)-سعد بن منصور بن كمونة: تنقيح الأبحاث للملل الثلاث اليهودية، المسيحية والإسلامي، دط، القاهرة، دد، دت، ص3.

ويميز ابن كمونة بين نوعين من الأنبياء، النوع الأول يتمثل في: «النبي المخـــاطب من جهة الله تعالى لإصلاح نوع البشر، وهذا إنما يصدق على نبي مبعوث بشريعة عامـــة». والنوع الثاني يتمثل في: «الأنبياء الذين بعثوا للإخبار بنزول عقاب على أمة مخصوصـــة أو تخص معيّن، أو أنه بعث ليخبر بأمر يتجدد في المستقبل أو وقع فـــي المـــاضي أو بغـــير ذلك»[1]. وإلى هذا النوع الثاني ينتمي الكهنة والعرافون.

د-النبي بمعنى الكاهن أو العرّاف: الكهانة هي إدعاء معرفة الغيب والتنبؤ بما يحدث على الأرض. وهي مرادفة للفظ (العرافة)، وإن وجد من فرق بينهما على اعتبار أن الكهانة تختص بالأمور المستقبلية والعرافة تختص بالأمور الماضية[2].

أما الكاهن، فهو لفظ يطلق على:« -العراف الذي يضرب بالحصى والمنجم.

-ويطلق على من يقوم بأمر آخر ويسعى في قضاء حوائجه.

-وقال في المحكم: الكاهن: القاضي بالغيب.

-وقال في الجامع: العرب تسمي كل من أذن بشيء قبل وقوعه كاهنا»[3].

ومن الباحثين من يذهب إلى أن لفظ النبي أطلق أول الأمر على الكهنة والعرافـــة[4]، ومن هؤلاء المؤرخ "ول ديورانت" الذي يقول: «ولم يكن أولئك الذين أطلق عليهم هذا اللفـظ العبري أول الأمر من طبقة عاموس وإشعيا الجديرة باحترامنا، بل كان بعضهم من المتنبئين الذين يستطيعون قراءة قلوب الناس وماضيهم ويخبرونهم بمستقبلهم حسبما يتقاضون منهم من أجور، ومنهم متعصبون متهوسون يستثرون مشاعرهم بالأصوات الموســـيقية الغريبـــة، أو المشروبات القوية أو الرقص الشبيه برقص الدراويش، ينطقون في أثناء غيبوبتهم بعبـــارات يراها أصحابهم وحيا أوحي إليهم، أي بثتها فيهم روح غير روحهم»[5].

---

[1]-سعد بن منصور بن كمونة، مصدر سابق، ص3.

[2]-محمد إبراهيم الفيومي: في الفكر الديني الجاهلي، ط3، القاهرة، دار المعارف، (1402هـ-1982م)، ص291.

-جورجي زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية، دط، بيروت، منشورات دار مكتبة الحياة، 1983، مج1، ص181.

[3]-محمد إبراهيم الفيومي: المرجع السابق، ص291.

[4]-Vocabulaire de théloogie Biblique, Op.Cit, P870.

[5]-ول ديوروت: قصة الحضارة، ترجمة: زكي نجيب محمود، دط، بيروت، دار الجيل، مج1-2، ص349.

هـــ-النبي بمعنى التعلم من الله: النبي في الديانة اليهودية هو رسول من الله مكلف بتبليغ رسالة، أو هو شخص يختار من طرف الرب ليعلم الإنسان ما لا يستطيع أن يتعلمه بقواه الخاصة[1].

وزيادة على لقب النبي، وجدت في العهد القديم مفردات أخرى كلها تحمل معنى النبي مثل رجل الله والرائي والحالم. يقول صموئيل: «هو ذا رجل الله في هذه المدينة والرجل مكرم وكل ما يقوله يصير...وسابقا في إسرائيل هكذا كان يقول الرجل عند ذهابه ليسأل عن الله هلم نذهب إلى الرائي لأن النبي اليوم كان يدعى سابقا الرائي فذهب إلى المدينة التي فيها رجل الله»[2].

ويضيف سبينوزا وجود لقب آخر للنبي وهو المفسر؛ أي «الذي يفسر أمر الله لمن يوحى إليهم»[3].

ويعتقد بعض المؤرخين أن لفظة النبي ظهرت متأخرة ويرجح البعض منهم أنها ظهرت «في نهاية عهد الحكام حينما ظهرت جماعة أبناء الأنبياء وظهر معهم اسم (نبي) وبقيت معهم الأسماء القديمة مثل المنجم أو الرائي أو رجل الله»[4].

3-الشروط الواجب توفرها في النبي المؤهل للنبوة:

لقد قاد الاختلاف في تحديد معنى النبي والناتج عن الغموض الذي أحاط معنى النبي في الديانة اليهودية إلى الاختلاف -بطبيعة الحال- في تحديد الشروط التي تثبت نبوة الشخص المستحق للنبوة على ثلاثة آراء.

<u>الرأي الأول</u>: وهو الذي يعتبر النبوة اختيار واصطفاء من الله تعالى، بشرط أن يكون الشخص المختار ذو أخلاق كريمة.

---

(1)-Le prophetisme : Lumiere et vie, Revue de formation et de réflexion, Théologique, 2place, Gailleton, 62002, Lyon, P. Novembre- Décembre, 1973, P41.

(2)-صموئيل: الإسحاق، 9/6-10.

(3)-سبينوزا: الرسالة في اللاهوت والسياسة، ترجمة: حسن حنفي، فؤاد زكريا، ط3، بيروت، دار الطليعة، 1994، ص48.

(4)-Vocabulaire de théologique biblique, Op.Cit, P870.

الرأي الثاني: أن تكون النبوة دليل على كمال الشخص، «وذلك الكمال لا يحصـــل لشخص من الناس إلا بعد ارتياض يخرج ما في قوة النوع إلى الفعل، إن لم يعق مـــن لـــه عائق مزاجي أو سبب ما من خارج. فلا يتنبأ عند هؤلاء إلا الشخص الفاضل الكامل. وعلى هذا فكل من صلح للنبوة وتهيأ لها فهو يتنبأ لا محالة»[1].

الرأي الثالث: وهو الرأي الذي يتحدث عن إمكانية أن لا يتنبأ الشخص المهيأ للنبوة، حيث يقول: «إن النبوة لا تحصل إلا لشخص فاضل كامل، ولكنه يعتقد متى يصلـــح للنبـــوة المتهيأ لها، قد لا يتنبأ بحسب مشيئة الله تعالى وإرادته»[2].

ولقد لاحظنا من خلال الرأي الثاني والثالث بعض التأثير لفلاسفة الإســـلام[3] علـــى مفهوم النبي في الديانة اليهودية، بحيث «أصبح النبي يدعى الإنسان الكامل الـــذي اتصلـــت روحه بنور وروح الملأ الأعلى وهي حالة روحية قصوى من النقاء»[4].

4-وظيفة النبي:

يقوم النبي في الديانة اليهودية بعدة وظائف اجتماعية وسياسية: «فهو رجـــل ديـــن متعبد ذو أخلاق عالية، خطيب مجدد وزعيم سياسي، يقوم بـــإصلاح حـــال بنـــي إســـرائيل وإصلاح دينهم عن طريق تطبيق الإجازات والعقوبات الإلهية التي نمت خاصة في القرنيـــن السابع والثامن قبل ميلاد المسيح»[5].

ويساعد النبي في القيام بمهامه تلك الكاهن الذي يعمل إلى جانب النبي تحت قدســـة الملك، ولقد مثل النبي والكاهن والملك على مدى طويل الأبعاد الثلاثة لمجتمع بني إســـرائيل، وكانوا أحيانا مختلفين ولكن مكملين لبعضهم البعض[6].

---

(1)-ابن كمونة: مصدر سابق، ص4.

(2)-المصدر نفسه، ص4.

(3)-المقصود بفلاسفة الإسلام: الفرابي، ابن سينا، اللذين قالا باكتساب النبوة كمحاولة منهما للتوفيق بين الدين والفلسفة.

(4)-Le prophétisme, Op.Cit, P45.

Le prophète est l'homme parfait d'ont l'ame et unie à la lumière ou essence divine.

(5)-I. Bouyer : Op.Cit, P258.

(6)-Vocabulaire théologie Biblique, Op.Cit, P874.

كما وجد من أنبياء بني إسرائيل من تخصص في شؤون السياسة «من خلال التنبؤات التي يمكن أن نصفها بأنها تنبؤات سياسية عن مستقبل الأحداث رغم الطابع الديني الذي تتسم به هذه التنبؤات»[1] كالنبي ناثان مثلا، الذي عمل مستشارا للملك داود، وهو الذي أشار عليه ببناء بيت الرب «وكان أن الملك قال لناثان انظر أني ساكن في بيت من أرز وتابوت الله ساكن الشقق، فقال ناثان للملك اذهب افعل كل ما في قلبك لأن الرب معك. وفي تلك الليلة كان كلام الرب إلى ناثان قائلا: اذهب وقل لعبدي داود هكذا قال الرب، أأنت تبني لي بيتا لسكناي لأني لم أسكن في بيت منذ يوم اصعدت بني إسرائيل من مصر إلى هذا اليوم، بل كنت أسير في خيمة وفي مسكن... هو يبني بيتا لاسمي وأنا أثبت كرسي مملكة إلى الأبد... وحسب كل هذه الرؤيا داود»[2].

ويذكر سفر الملوك الأول وجود مجموعات من الأنبياء لدى أحاب ملك إسرائيل في السامرة ينبأون له ويقدمون له النصح والمشورة «فجمع ملك إسرائيل الأنبياء نحو أربعمائة رجل وقال لهم أأذهب إلى رموت جلعاد للقتال أم أمتنع، فقال: اصعد السيد ليد الملك»[3].

وقبل التطرق لمعنى النبوة في الديانة اليهودية، ارتأينا أن نقف وقفة قصيرة مع مفهوم كل من النبي والوحي حاولنا تلخيصها في النقاط التالية.

1-أن الترابط الكبير الحاصل بين تاريخ اليهود وبين عقائدهم الدينية كان له أكبر الأثر على الديانة اليهودية، من ذلك مثلا أن لفظة النبي ارتبطت في ظهورها بالأوضاع السياسية لذلك العصر، والمتمثلة في الانقسام الذي حدث في فلسطين بعد موت النبي سليمان عليه السلام وانقسام هذه الأخيرة إلى مملكتين متنازعتين، مملكة (أفرايم) الشمالية وعاصمتها السامرة، ومملكة (يهوذا) الجنوبية وعاصمتها أورشاليم، التي استولى عليها ملك مصر فيما بعد[4]،

---

[1]-حسن خليفة: مرجع سابق، ص174.

[2]-صموئيل الثاني: الإصحاح، 1/7-7.

[3]-سفر الملوك الأول، الإصحاح، 6/20.

[4]-ول ديورانت: مصدر سابق، ص349.

فقد «كان هذا الجو المشحون بعوامل التفكك السياسي والحرب الاقتصاديـــة والانحـــلال الديني هو الذي ظهر فيه الأنبياء»[1].

2-مكانة النبي في المجتمع اليهودي: إن الطبيعة المادية للشعب الإسرائيلي والتي تسببت لـه في العديد من الأزمات الدينية والأخلاقية جعلت من النبي الركن الثابت في خارطة المجتمع اليهودي، بحيث يستحيل العيش بدونه والاستغناء عن خدماته وتوجيهاته.

فهذه المكانة التي تحصل عليها النبي في المجتمع الإسرائيلي هي التي فتحت الباب علـى مصرعيه لذوي الأطماع ليعلنوا للجماهير بأنهم أنبياء مرسلون من قبل الله، وهو ما عـــرف في تاريخ الديانة اليهودية (بالأنبياء الكذبة والأنبياء المزيفون)[2]. وعن هؤلاء يقول حزقيـل: «قل للذين هم أنبياء من تلقاء ذواتهم اسمعوا كلمة الرب، هكذا قال الرب: ويل للأنبياء الحمقة الذاهبين وراء روحهم ولم يروا شيئا أنبياؤك يا إسرائيل صاروا كالثعالب في الخـــرب، رأوا باطلا وعرافة كاذبة، القائلون وحي الرب، والرب لم يرسلهم»[3].

3-ما يستفاد من تلك النصوص -التي تتحدث عن الوحي في اليهودية- أن مادة العهد القديـم هي عبارة عن خليط من الوحي المباشر[4]، والوحي عن طريق الرؤية أو المنام، الأمر الذي يقدح في مصدقية تلك المادة، ولذلك نقول إن الاتصال الإلهي بالأنبياء لا يكون إلا من طريق واحد هو طريق الوحي، فهو الظاهرة الوحيدة الملازمة لظاهرة النبوة، لأن الوحي في حقيقته هو كلام الله لأنبيائه والمتضمن لأركان الإيمان ولأشكال العبادات ولقواعد الأخلاق وغيرهـا من الأحكام والتعاليم التي يسعى الأنبياء لتطبيقها في أرض الواقع حتى لا تبقى قضايا الديـن مجرد قضايا نظرية.

وبناء عليه يستحيل أن تعبر الرؤيا أو الحلم عن كلام الله وتوجيهاته وتعاليمه، فالرؤيا والحلـم إلهام من الله عز وجل يتفضل به على طائفة من عباده الصالحين سواء كانوا أنبياء أو مـــن بقية الناس، وقد تعرض الدكتور عبد الرزاق قسوم لمدلول كل من الرؤيا والحلـم ثـم بيـن

---

[1]-ويل ديورانت: مصدر سابق،ص349.

[2]-Vocabulaire de théloogie Biblique, Les éditions du C.E.R.F, 29 Boulvard, Latonr, Manboury, Paris, 1962, P870.

[3]-سفر حزقيال، الإصحاح-6/2/12.

[4]-الوحي المباشر هو الوحي الذي يأتي إما عن طريق المَلَك أو عن طريق خطاب الله المُوَجَه للنبي مباشرة.

الفرق بينهما بقوله : «فالحلم تعبير عن شرود الفكر، وغيبوبة النفس كما هي فيه باليوم وتحت تأثير عوامل أخرى تجعل الذهن سابحا في عوالم. أما الرؤيا فهي مصطلح نابع من وحي الدين يعبر عن طهارة النفس ونقاوتها، وبالتالي عن استعدادها لتلقي أسرار وتجليات روحانية إلهية في النوم وبهذا التعريف الموجز يتبين لنا أن الحلم أعم في معناه من الرؤيا، والرؤيا أصدق تعبير وأكثر تنبئا بالغيب من الحلم»[1].

- أما تعريف ابن خلدون للرؤيا: «فهي مطالعة النفس الناطقة في ذاتها الروحانية لمحة من صور الواقعات فإنها عندما تكون روحانية تكون صور الواقعات فيها موجودة بالفعل كما هوشأن الذوات الروحانية كلها تصير روحانية بأن تتجرد من المواد الجسمانية والمدارك البدنية، وقد يقع لها ذلك لمحة بسبب النوم فتقتبس بها علم ما تتشوق إليه من الأمور المستقبلية وتعود إلى مداركها، فهذا الاستعداد حاصل للذات ما دامت في البدن : ومنه خاص كالذي للأولياء، ومنه عام للبشر على العموم»[2].

وفي تعريفه للأحلام، يقول: «وإن كانت صور الواقعات (الأشياء) والأشياء، مأخوذة من الصورة التي في الحافظة، كان الخيال أودعها مند اليقظة فهي أضغاث أحلام»[3].

وفي الحديث أن النبي ﷺ قال: «الرؤيا ثلاث: رؤيا من الله، ورؤيا من الملك، ورؤيا من الشيطان»[4]. وأضغاث الأحلام تكون من الشيطان.

فإذا كانت الرؤيا هي الأساس التي تقوم عليه النبوة في اليهودية وهي الوحي الذي يوحيه الله لأنبيائه في النوم ليبلغوه للناس، فإن الرؤيا بالنسبة للنبوة في الإسلام تعد بمثابة التمهيد والاستعداد الذي يسبق مرحلة تلقي الوحي الجلي أو الوحي الرباني من الله (وحي القرآن الكريم). فقد ذكر كتاب السيرة أن النبي ﷺ مكث مدة ستة أشهر كان فيها لا يرى

---

[1]-عبد الرزاق قسوم: عبد الرحمن الثعالبي والتصوف، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ص99-100.

[2]-ابن خلدون: مصدر سابق، ص83.

[3]-المصدر نفسه، ص43.

[4]-رواه البخاري في صحيحه، كتاب التعبير، باب: القيد في المنام، ج6، ص67.

-رواه مسلم في صحيحه، كتاب الرؤية، ج7، ص52.

رؤيا إلا وتأتي مثل فلق الصبح. وجاء في الأثر أن الرؤيا جزء من أربعين جزء من النبوة[1] «وهذا الجزء يمثل زمن الرؤيا من زمن النبوة وليس نسبة حقيقة الرؤية من حقيقة النبوة»[2]. ومعنى هذا الجزء كما بين ذلك ابن خلدون «هو نسبة الاستعداد الأول الشامل للبشر إلى الإستعداد القريب الخاص بصنف الأنبياء الفطري – صلوات الله عليهم»[3].

والرؤيا عدها الإسلام من المبشرات، لقوله تعالى: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾[4]. وجاء في تفسير البشري في الحياة الدنيا بأنها الرؤية الصالحة. وفي الحديث قول النبي ﷺ لأصحابه: «لم يبق من النبوة إلا المبشرات، قالوا: وما المبشرات يا رسول الله؟ قال: الرؤيا الصالحة يراها الرجل أو ترى له»[5].

ثالثا: تعريف النبوة:

لا خلاف بين اليهودية والإسلام حول الإيمان بالنبوة وبضرورة وجودها وبحاجة البشر إليها من أجل إقامة مجتمع أخلاقي فاضل يدعوا إلى الخير ويحارب الظلم والفساد يقول إرميا: «يا بيت داوود هكذا قال الرب أقضوا في الصباح عدلا وانقضوا المغصوب من يد الظالم لئلا يخرج كنار غضبي فيُحرق وليس من يطفئ من أجل شر أعمالكم»[6].

إنما يكمن الخلاف في تحديد معنى النبوة، فإن كان القرآن الكريم قد أعطى مفهوما واضحا ومحددا للنبوة في الإسلام، من خلال عدة آيات كريمة مكنت علماء الإسلام من وضع تعريف جامع مانع للنبوة وهو: «أن النبوة هي اختصاص العبد بسماع وحي من الله تعالى بحكم شرعي تكليفي سواء أمر بتبليغه أم لا، وهكذا الرسالة بشرط أن يؤمر بالتبليغ ولا يكتسب النبوة بمباشرة مخصوصة كملازمة الخلوة والعبادة وتناول الحلال كما زعمت الفلاسفة»[7].

---

[1]-رواه مسلم في صحيحه، كتاب الرؤية، ج7، ص53.

[2]-ابن خلدون: مصدر سابق، ص83.

[3]-المصدر نفسه، ص83.

[4]-سورة يونس، الآية: 64.

[5]-رواه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة. باب: النهي عن قراءة القرآن في الركوع والسجود، ج1، ص348.

-رواه أبو داود في السنن، دط، دب، دار الفكر، كتاب الصلاة. باب: في الدعاء في الركوع والسجود، ج1، ص232.

[6] سفر أرمية، الإصحاح 7/3-2.

[7]-إبراهيم بن محمد البيجوري: مصدر سابق، ص287.

فإن علماء اليهود قد فشلوا في صياغة تعريف جامع مانع للنبوة في العهد القديم والسبب في ذلك راجع إلى عدة عوامل، منها الطبيعة المادية لليهود، وعدم الاستقرار واللاأمن الذي عايشه بني إسرائيل من جراء حملات الغزو التي تعرضوا إليها.

يعرف العلامة اليهودي (موسى بن ميمون)[1] النبوة في كتابه دلالة الحائرين، يقول: «وحقيقة النبوة وماهيتها هي فيض يفيض من الله عز وجل بوساطة العقل الفعال على القوة الناطقة أولا، ثم على القوة المتخيلة بعد ذلك، وهذا هو أعلى مرتبة الإنسان، وغاية الكمال الذي يمكن أن يوجد بنوعه، وتلك الحالة هي غاية كمال القوة المتخيلة، وهذا أمر لا يتيسر لكل إنسان بوجه، ولا هو أمر يدرك بالكمال في العلوم النظرية وتحسين الأخلاق حتى تكون كلها على أحسن ما يكون وأجمله دون أن يضاف إلى ذلك كمال القوة المتخيلة في أصل الجبلة»[2].

وقد عبر ول ديورانت عن هذا التعريف بقوله: «النبوة هي تنمية المخيلة إلى أقصى درجات النماء، وهي فيض (الذات الإلهية) عن طريق الحلم أو النشوة الإبصارية، فالذي يقصه الأنبياء لم يحدث في الواقع وإنما حدث في هذه الرؤيا أو الحلم، وعلينا أن نفسره في معظم الأحوال تفسيرا مجازيا»[3].

أما اسبينوزا فيعرف النبوة كالتالي: «فالوحي والنبوة معرفة يقينية يوحيها الله للإنسان عن طريق النبي الذي يبلغه للبشر ويعبر عنه»[4].

وبالرجوع إلى النصوص التي ذكرناها حينها تكلمنا عن الوحي وهي ما جاء في كل من سفر الخروج 4 / 11 «أما أنا هو الرب، فالآن إذهب وأنا أكون مع فمك وأعلمك ما تتكلم به».

---

(1)-موسى بن ميمون : هو أبوعمران موسى بن ميمون القرطبي فيلسوف يهودي وعالم لاهوتي بالديانة اليهودية وطبيب وصيدلي، ولد في مدينة قرطبة سنة 1135 م وتوفي 1204 م، تأثر بالفلاسفة المسلمين أمثال بن سينا الذي يدين له بنظريته في الخلود وابن رشد الذي إستقى منه فكرته عن هوية الماهية والوجود في الله – أشهر كتبه الفلسفية "دلالة الحائرين" وهو موجه إلى علماء اليوم الحائرين بين ما تقرره الفلسفة العقلية وبين ما أتت به التوراة وشروحها. (عبد الرحمان بدوي: موسوعة الفلسفة، ج2، ص 498. الموسوعة الفلسفية المختصرة، ص 465).

(2)-إسرائيل ويلفنسون: موسى بن ميمون (حياته ومصنفاته)، ط1، د.ب، مطبعة لجنة التأليف والنشر ، 1936، ص90.

(3) ول ديورانت: مصدر سابق، مج13-14، ص128.

(4) اسبينوزا: مرجع سابق، ص47.

وسفر العدد 11 / 17 «فأنزل أنا وأتكلم معك وأخذ من الروح الذي عليك وأضع عليهم».

والنظر إلى هذه التعريفات نستنتج إلى أن هناك نوعين من النبوة في الديانة اليهودية.

1- **النوع الأول** : وهي النبوة التي تعتمد على الوحي المباشر من الله إلى أنبيائه كنبوة موسى عليه السلام.

2- **النوع الثاني** : وهي النبوة التي تعتمد على التنبؤات المستقبلية التي تحصل للنبي في الرؤيا أو الحلم، وهذا النوع لا يختلف في عملية اتصاله بالله عن الكهانة في شيء.

فما هو الفرق بينها وبين النبوة ؟

يقول ابن خلدون في مقدمته: «وأما الكهانة فهي أيضا من خواص النفس الإنسانية التي لها استعداد للانسلاخ من البشرية إلى الروحانية التي فوقها كما نجد في حالة الأنبياء.... وإن هناك صنفا آخر من البشر ناقصا عن رتبة الصنف الأول (الأنبياء) نقصان الضد عن ضدّه الكامل لأن عدم الاستعانة في ذلك الإدراك ضد الاستعانة فيه، وشتان ما بينهما. وهذا الصنف مفطورا على أن تتحرك قوته العقلية حركتها الفكرية بالإرادة عندما يبعثها النزوع لذلك وهي ناقصة عنه بالجبلة فيكون لها بالجبلة عندما يعوّقها العجز عن ذلك تشبث بأمور جزئية محسوسة ومتخيلة. فيستديم ذلك الإحساس أو التخيل مستعينا به في ذلك الانسلاخ الذي يقصده ويكون كالمشيّع له، وهذه القوة التي فيهم مبدأ لذلك الإدراك هي الكهانة»[1].

ثم يضيف ابن خلدون: «ولا يقوى الكاهن على الكمال في إدراك المعقولات لأن وحيه من وحي الشيطان، ويعرض له الصدق والكذب جميعا ولا يكون وثوقا به، وربما يفزع إلى الظنون والتخمينات حرصا على الظفر بالإدراك في زعمه وتمويها على السائلين»[2].

وبناء عليه نصل إلى أن النبوة في اليهودية لا تختلف عن الكهانة وعن العرافة.

ونستدل على ذلك بما ذكره اسبينوزا في تعريفه للنبي، حيث يقول: «وقد كان النبي عند اليهود مجرد مفسر أو خطيب بالإضافة إلى مهمته في التنبؤ بالمستقبل وكذلك سمي يشوع بلعم عرافا أومبشرا»[3].

---

(1)- ابن خلدون: مصدر سابق، ص80 81.

(2)- المصدر نفسه، ص 81.

(3)- اسبينوزا: مرجع سابق، ص48.

وهناك استعمال أخر لمعنى النبوة ظهر حديثا عند اليهود أطلقوا عليه اســـم "المعنـــى الرمزي للنبوة": وهي صفة تطلق على الأشخاص والأفراد الذين تركـــوا بصماتـــهم علـــى صفحات التاريخ البشري، بما حققوه من إنجازات سباقة في المجالات الثقافية أو الاجتماعيـــة أو التاريخية. هكذا صرنا نشير لكلمة (نبوة) إلى نوع من الأشـــخاص المتمـــيزين الذيـــن بمثابرتهم أو نظرتهم أعطوا للتاريخ دفعـــا خلاقـــا أو دفعـــا معنويـــا (Des impulsion significative) ملحوظة مثال ذلك ماركس الذي يعد نبي بهذا المعنى الرمزي، وتيـــودور هرتزل في نظر الكثير من الصهاينة»[1].

فإذا كان علماء الدين اليهودي قد فشلوا في صياغة تعريف موحد لمفهوم كـــل مـــن الوحي والنبوة في الديانة اليهودية، بحيث يعمل على التقريب بين وجهات النظر المختلفـــة، فكيف تعامل الفكر اللاهوتي المسيحي مع هذه القضية؟ وهل وفق في إيجاد صياغة موحـــدة لتعريف الوحي والنبوة في الديانة المسيحية؟

المطلب الثاني: الوحي والنبوة في الديانة المسيحية:

أولا: تعريف الوحي:

يذكر معجم الإيمان المسيحي أن الوحي في الديانة المسيحية هو «عمل يكشف بـــه الله للبشر تدبيره الخلاصي ويعرفه نفسه. فقد أظهر الله نفسه أولا في تاريخ شعب إسرائيل كلـــه بأحداث علامات قام الأنبياء بشرح معناها، وبرؤى وأحلام وأقوال ألهمها الله وبلّغها الأنبياء، وبالتفكير الذي استُوحي من الحكماء، وبعد ذلك وأخيرا أظهر الله نفسه فـــي ابنـــه يســـوع المسيح، في موته وقيامه، شُرح معناهما في تعليم يسوع وأقوال الرسل الذين تكلموا بإلـــهام من روح الله، وبُلّغ هذا المعنى لجميع المسيحيين في الروح نفسه وهو الذي يُحيّ الكنيسة»[2]. وجاء تفسير الوحي في قاموس الكتاب المقدس: «بأنّه إبلاغ الحق الإلهي للبشر بواسطة بشر، وهو من عمل روح الله أو بعبارة أدق، عمل الروح القدس، فالروح القدس يعمل في أفكـــار أشخاص مختارين وفي قلوبهم، ويجعلهم أداة للوحي الإلهي»[3].

---

[1]-Le prophétisme lumière et vie, Op Cit, P42.

[2] الأب صبحي حموي اليسوعي: مرجع سابق، ص536.

[3] لجنة من الأساتذة ذوي الاختصاص ومن اللاهوتيين، قاموس الكتاب المقدس، ط10، القاهرة، دار الثقافة، ص1020.

أما جورج بوست فقد عرف الوحي في المسيحية بشيء من التفصيل حينما قال: «بأنه حلول روح الله في روح الكتاب الملهمين لإطلاعهم على الحقائق الروحية والأخبار الغيبية، من غير أن يفقد هؤلاء الكتاب بالوحي شيئا من شخصياتهم، فلكل منهم نمطه في التأليف وأسلوبه في التعبير»[1].

والذي يستفاد من هذين التعريفين أن الوحي في المسيحية هو إلهام يلقى في روح الكتاب الذين يقومون بصياغة ذلك الإلهام في شكل عبارات هي التي تتألف منها مادة العهد الجديد، وقد تخضع عملية الصياغة تلك لشخصية الكاتب ولظروف الزمان والمكان الذي يوجد فيه.

ويرى المفكر صبحي الصالح أن التعريف المسيحي للوحي يبعده عن الوحي الإلهي الموصوف بالأخذ والتلقي من الله مباشرة بواسطة رسول الوحي جبريل عليه السلام، ويقربه من مدلول الكشف الذي يحدث للأفراد بسبب نمو مداركهم[2]. كما يضعه في مرتبة دون مرتبة القرآن الذي تتكون مادته كلها من الوحي الذي يأتي به جبريل، فهو كلام الله لفظا ومعنا وصياغة، وقد تمثل دور نبي الإسلام محمد ﷺ في نقل ما كان يتلوه عليه ملك الوحي جبريل ليس إلا.

وأما الوحي بالمعنى أو عن طريق الإلهام، فقد فصله الرسول عن القرآن حرصا منه على ألا يختلط بكتاب الله عز وجل، وهو ما يعرف بالسنة، بينما الوحي في المسيحية أو (مادة العهد الجديد) تتكون من إلهام الكتبة الذي غالبا ما يأتي إليهم عن طريق الرؤى والأحلام وهم بشر يفتقدون إلى العصمة، كما أنهم معرضون للخطأ في أية لحظة.

وبهذا عرضوا كتابهم المقدس إلى الخلط والتحريف في مادته لأنه يضم كلام الله الذي أوحاه إلى المسيح إلى جانب إلهامات الكتاب، ولذلك عرف الإمام أبو زهرة الوحي في المسيحية بقوله: «إن الوحي في المسيحية يجمع بين العنصر البشري والعنصر الإلهي، أي الملهمات الإلهية تتجسد في لباس لغوي بشري، لتكون مفهومة لدى الناس الذين تبلغ إليهم»[3]، هذا من جهة.

---

(1) قاموس الكتاب المقدس، ص75. نقلا عن: صبحي الصالح: مباحث في علوم القرآن، مرجع سابق، ص25.

(2) صبحي الصالح: مباحث في علوم القرآن، مرجع سابق، ص25.

(3) محمد أبو زهرة: محاضرات في النصرانية، ص170.

ومن جهة أخرى نجد أن القران الكريم كتب أيام الرسول محمد ﷺ وجمع في عهد الخليفة أبو بكر رضي الله عنه ثم أعيد جمعه في عهد الخليفة عثمان رضي الله عنه. وحينما انتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى كان القرآن كله مسجلا ومكتوبا، في حين أن أسفار العهد الجديد لم تدون إلا بعد وفاة المسيح بزمن طويل، وأول ما تم تأليفه من الأسفار هو رسائل "بولس" التي كتبها خلال الفترة (50-60م)[1]، وتم اعتماد الأناجيل الأربعة وهي (أسفار منسوبة إلى متى، ومرقص، ولوقا، ويحنى) في مجمع نيقية في سنة 325م، أي بعد حوالي ثلاثة قرون من وفاة المسيح.

كما أن إطلاق وصف الإلهام على الوحي في المسيحية يؤدي بنا إلى اعتباره أمرا داخليا نابعا من ذات المؤلف أو (الكاتب). والإلهام هو انكشاف الحقائق للشخص المُلهم، وتكون هذه الحالة نتيجة مجهودات ورياضات روحية وتأمل وتفكير طويل شغل بال الشخص الملهم، كما يشير إلى ذلك علم النفس الحديث في تعريفه لمعنى الإلهام «ولا تجيء هذه الومضات (يقصد الإلهام) جزافا ما لم يعجزها إلى جانب ذلك كله قدر كاف من المعرفة الصحيحة، ومن النضج العقلي، ومن اللهفة على الوصول إلى الحقائق وسبر بعض ألغاز الوجود بسبب حب ملتهب للحقائق في ذاتها، ورغبة مشتعلة لخدمة الآخرين وتخفيف آلامهم ومتاعبهم»[2].

فإذا كانت هذه هي حقيقة الوحي في المسيحية، فما المانع من ظهور أناس آخرين من زماننا هذا يؤلفون لنا أناجيل أخرى، وقد ظهر قديما بولس وجماعة الكتبة ما دام الأمر يتعلق بالرؤى والإلهامات؟ وبمعنى آخر ما المانع من تكرار تلك التجربة ما دام الوحي عندهم مستمر في الأتباع والأنصار؟

ثانيا: تعريف النبي:

1- لغة: إن المعنى اللغوي للفظة النبي (Prophète) في اللغة الأجنبية لا يختلف عنه في اللغة العبرية -كما سيأتي بيانه-، وهي تطلق على:

---

[1] ول ديورانت: مرجع سابق، ص78.

[2] -رؤوف شلبي: مرجع سابق، ص 65.

-الشخص الذي يتنبأ بأن أحداثا سوف تقع في المستقبل، سواء كانت هذه الأحداث ســـارّة أو سيئة[1].

-الشخص الذي يقدّم ويعلّم أفكارا جديدة[2].

-الشخص الذي يتكلم باسم الإله[3].

2-اصطلاحا: جاء في تعريف النبي في قاموس الكتاب المقدس ما نصه: «...وأما في عرف الكنيسة فيراد بالنبيّ من صدق عليه وصف النبوة من جهة معناها الوصفي؛ أي الإنباء اليقين بحوادث آتية لا يمكن أن يهتدي إليها بأسبابها ومقدماتها بمجرد استدلال العقل»[4].

وعرف معجم الإيمان المسيحي النبي بقوله: «النبي إنسان يتكلـــم باســـم الله ليُطلّـــع علـــى إرادته»[5].

ومن النصوص الدالة دلالة واضحة على نبوة المسيح ما جاء في إنجيل يوحنا قولـــه: «وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي ويسوع المسيح الذي أرسلته»[6].

وما جاء أيضا في إنجيل متى عن المسيح: «فرأى روح الله نـــازلا كمثـــل حمامـــة وآتيـــا عليه»[7]، وتشبيه الروح القدس بالحمامة ليس من حيث الحجم والهيئة، وإنما من حيث الطبع لأن من صفات الحمام اللطافة والوداعة وعدم الإيذاء[8]، بدليل ما ورد في إنجيل متى عـــن وصية المسيح لتلاميذه «فكونوا حكماء كالحياة وبسطاء كالحمام»[9].

---

(1)-Dictionnaire Encyclopèdique 2000 / La rousse, La rousse bordas, H^{et} 1999 matière prophète, P 1275.

-.

(2)-Longman dictionnory of contemporary English, 3rd edition, Matiere (Prophet),

(3)-Longman dictionnory of contemporary English, Op.Cit, P1132

Dictionnaire encyclopédique, Op.Cit, P1275.

(4)-حاشية الجزء الثاني من الكتاب المقدس، نقلا عن: مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، ط4، دمشق، دار الفكـــر، 1987، ص103.

(5)-الأب صبحي حموي اليسوعي: معجم الإيمان المسيحي، بيروت، دار المشرق، ص503.

(6)-إنجيل يوحنا، الإصحاح 3/17.

(7)-إنجيل متى، الإصحاح 3 16.

(8)-محمد عزت الطهطاوي: النصرانية في الميزان، ط1، دمشق، دار القلم، 1995، ص145.

(9)-إنجيل متى، الإصحاح 16/10.

كما تحدثت بعض نصوص العهد الجديد عن بعض المعجزات التي أيد الله بها المسيح عليه السلام لتكون دليلا على صدق نبوته ضد الجاحدين لها من بني إسرائيل، من ذلك مثلا ما قاله مرقس عن المسيح «وليس نبي بلا كرامة إلا في وطنه وبين أقربائه وفي بيته»[1].

وما قاله يوحنى عن قصة أرغفة الخبز التي أطعمت خمسة آلاف رجل من اليهود واعتراف هؤلاء بنبوة المسيح «فلما رأى الناس المعجزة التي قام بها المسيح قالوا إن هذا حقا النبي المنتظر مجيئه إلى العالم»[2].

ويروي لنا متى القصة فيقول: «فلما صار المساء تقدم إليه تلاميذه قائلين الموضوع خلاء والوقت قد مضى أصرف الجموع لكي يمضوا إلى القرى ويبتاعوا لهم طعاما، فقال لهم ياسوع لا حاجة لأن يمضوا أعطوهم أنتم ليأكلوا، فقالوا له: ليس عندنا هاهنا إلا خمسة أرغفة وسمكتان، فقال: إئتوني بها إلى هنا، فأمر الجموع أن يتكؤوا على الخشب، ثم أخذ الأرغفة الخمسة والسمكتين ورفع نظره نحو السماء وبارك وكسر وأعطى الأرغفة للتلاميذ والتلاميذ للمجموع، فأكل الجميع وشبعوا، ثم رفعوا ما فضل من الكسر اثنتين عشرة قفة مملوءة، والآكلون نحو خمسة آلاف رجل ما عدا النساء والأولاد»[3].

وبالتمعن في كلا التعريفين (اللغوي والاصطلاحي) نستنتج مايلي:

-لا يوجد فرق بين التعريف اللغوي والتعريف الاصطلاحي، فكلاهما يركزان على عنصر التنبؤات المستقبلية والإتيان بالأخبار الجديدة.

-وهذا يقودنا إلى القول بليونة التعريف الاصطلاحي وبعده عن الدقة والوضوح، لأنه لا يحتوي على شيء من خصائص النبي، فلا يوجد فيه كلام عن الوحي ولا عن الملك المرسل ولا عن الشرع المنزل.

-تعريف النبي في المسيحية بهذه الصيغة يدخل فيه كل من استطاع التنبؤ بحوادث مستقبلية سواء أكان ذلك من غير استعانة كالنبي، أو بواسطة الاستعانة كما يحدث ذلك لأصحاب الكشف من العارفين والواصلين والكهنة والعرافين، وهذا الأمر فتح الباب لجملة

---

(1) إنجيل مرقص، الإصحاح 4/6.

(2) إنجيل يوحنا، الإصحاح 14/6.

(3) إنجيل متى، الإصحاح 14/15-16.

من الأسئلة –لذا بعض المسيحيين أنفسهم– أثارت شكوكا حول حقيقة مادة الوحي الموجـــودة في الأناجيل، و هل هي حقا وحي أوحاه الله إلى نبيه عيسى عليه السلام، ومن ذلك مثلا التســـاؤل الذي طرحه البروفيسور موريس ويلز أستاذ علم الإلهيات و الكتاب المقدس بكليـــة المســـيح بجامعة أكسفورد قائلا: «الكتاب المقدس هل هو من عند الله حقا؟ إن كتاب كثيرين ومفكرين كثيرين من داخل المسيحية نفسها أثبتوا أن هذه الأسفار غير مقدسة وغير إلهية و أنها كتابات بشر»[1].

ثالثا: تعريف النبوة:

جاء تعريف لفظة (النبوة) في قاموس الكتاب المقدس بأنها «لفظة تفيد معنى الإخبـــار عن الله و عن الأمور الدينية و لا سيما عما سيحدث فيما بعد، و النبوة عند النصارى لا تختلف عنها عند بني إسرائيل، و هذا راجع إلى تأثر المسيحية باليهودية، و التي أخذت منها كثيرا من أصول العقائد و الشرائع، فلقد كانت اليهودية مصدرا تاريخيا لكل هذا، وامتد هذا إلى الشعائر حيث جاء القانون الكنسي صورة مطابقة لقواعد الشعائر الدينية اليهودية»[2].

إن استخدام المؤلف لفظ (تأثر) يصح لو كنا بصدد الحديث عن تراث فكري إنســـاني، وحينها يكون من الطبيعي جدا بل من المنطق أن تتأثر الإنسانية بعضها ببعض في مســـيرتها الإبداعية الحضارية، ويكون الفكر اللاحق متأثر بما أنجزه الفكر السابق، ولكننا هنا بصـــدد الحديث عن الأديان أو الرسالات التي تختلف طبيعتها عن بقية المواضيع الأخرى، لأنها مـــن إنشاء الله تعالى يوجهها للأمم بين عصر و آخر ليهديهم إلى عبادة الله الواحد ويدلهم على طريق الخير و النجاة.

وبناء عليه فإن المسيحية لم تتأثر باليهودية لأن المسيح عليه السلام قال: «لا تظنوا إنـــي جئت لأنقد الناموس، ما جئت لأنقد بل لأكمل»[3]. وليواصل المشوار الذي بدأه موسى عليه السلام وهو عبادة الله الواحد، كما جاء في إنجيل يوحنى: «وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنـــت

---

[1] مصطفى شاهين: المسيحانية تاريخا وعقيدة، دط، القاهرة، دار الاعتصام، 1991، ص276.

[2] قاموس الكتاب المقدس، ص70.

[3] انجيل متى، الإصحاح 17/5.

الإله الحقيقي وحدك، ويسوع المسيح الذي أرسلته»[1]، وفي مكان آخر في إنجيل متى يقول المسيح على لسان الرب: «هو ذا فتاي الذي اخترته»[2].

وبالنظر إلى هذه النصوص نتوصل إلى أن النبوة كما ذكر المسيح هي عبارة عن اختيار واصطفاء من الله ﷻ لطائفة من عباده الصالحين يرسلهم إلى الناس ليعرفونهم بالحقيقة الإلهية ويطلعوهم بالأمور الغيبية التي يستحيل على العقل أن يتوصل إليها.

وهذا المفهوم للنبوة في المسيحية الأولى لا يختلف في حقيقته عن مفهوم النبوة في العقيدة الإسلامية، التي ترى أن النبوة هي وحي الله يوحيه إلى من اختاره من عباده الصالحين ليبلغ عنه أحكامه وتعاليمه، وتكون مهمة النبوة هي تحديد الأعمال التي بها تتم سعادة الإنسان في الدارين، دون أن يكون للنبي أو الرسول يد في هذا الاختيار، وهذا مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[3].

تلك إذن هي المسيحية التي نؤمن بها نحن المسلمين، وهي التي تحدث عنها القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[4] وقال أيضا: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾[5].

وفي سورة النساء ذكر القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾[6].

---

(1)- إنجيل يوحنا، الإصحاح 3/17.

(2)- إنجيل متى، الإصحاح 18/12.

(3)- سورة الشورى، الآية: 52.

(4)- سورة آل عمران، الآية 64.

(5)- سورة البقرة، الآية: 87.

(6)- سورة النساء، الآية: 171.

وقد دلت بعض نصوص العهد الجديد على أن المسيح عيسى – عليه السلام – هـــو عبد الله ورسوله وأنه أمر من قبل الله عز وجل بتبليغ دعوة التوحيد إلى قوم بني إســـرائيل، والمسيحيون اليوم يؤمنون بمسيح دعا أتباعه إلى تأليهه وتأليه أمه، فكيف انتقل المسيح مـــن الدعوة إلى عبادة الله الواحد إلى الدعوة إلى عبادته هو وأمه؟ وما هي العوامل التي أدت إلى إضافة عنصر جديد إلى خصائص النبوة وهو الطبيعة الإلهية للنبي؟.

وما هي الوضعية التي آل إليها الوحي الرباني في ضوء تلك المعطيات الجديدة؟

1-عوامل التغيير في المسيحية التي جاء بها المسيح عليه السلام:

إن التغيير الذي طرأ على الديانة المسيحية يعود إلى عاملين أساسيين همـــا: البدعـــة التي أحدثها بولس في المسيحية ووجود عقائد وثنية يقول ابن كمونة: «وتغيير أحكام التـــوراة كإباحة لحم الخنزير وترك الختام مروي عن الحواريين لا عن سيد المسيح، فإنه لـــم يـــزل متمسكا بأحكامها إلى أن قبضت اليهود عليه، وكان يأمر بها وقال ما جئت لأنقدها... وبقـــي أصحابه على التمسك بها مدة طويلة إلى أن أظهروا المخالفة لها، والإعلان بنسخها وأنـــها إنما كان يلزم العمل بها إلى حين ظهور السيد المسيح لا غير، وأكثر ذلك عن رأي بولـــس الرسول»[1].

أ-بدعة بولس الرسول: هو رجل يهودي أعتنق المسيحية بعد وفـــاة المســـيح عليه السلام الذي لم يراه ولم يلتق به في حياته، ذلك الرجل اسمه (شاؤول أو القديس بولـــس أو بولـــس الرسول)، كان من ألد أعداء أتباع المسيحية كما جاء في سفر الأعمال «وحدث في ذلك اليوم اضطهاد عظيم على الكنيسة التي في أرشليم فتشتت الجميع في كور اليهودية والسامرة مـــا عدا الرسل، وحمل رجال أتقياء (استفانوس)، وعملوا عليه مناحة عظيمة وأما شاول فكان يسطو على الكنيسة وهو يدخل لبيوت ويجر رجالا ونساءً ويسلمهم إلى السجن[2] وفي مكان آخر من نفس السفر(أما شاول فكان لم يزل ينفث تهددا وقتلا على تلاميذ الرب فتقـــدم إلـــى رئيس الكهنة وطلب منه رسائل إلى دمشق إلى الجماعات حتى إذا وجد أناسا من الطريـــق

---

[1]-ابن كمونة: مصدر سابق، ص54.

[2]-سفر الأعمال، الإصحاح 1/8.

رجالا أو نساء يسوقهم موثوقين إلى أورشليم»[1]. وعن سبب اعتناقه للمسيحية يقول «في ذهابه حدث أنه اقترب إلى دمشق فبغتة أبرق حوله نور من السماء، فسقط على الأرض وسمع صوتا قائلا له: شاول شاول لماذا تضطهدني، فقال: من أنت يا سيد؟، فقال: أنا يسوع الذي أنت تضطهده صعب عليك أن ترفس مناخس، فقال وهو مرتعد متحير: يا رب ماذا تريد أن أفعل، فقال له الرب: قم وأدخل المدينة، فيقال لك ماذا ينبغي أن تفعل»[2] فما هي البدعة التي أحدثها بولس في المسيحية؟.

يقول بولس الرسول عن المسيح بأن له شأن أعلى من شأن الإنسان فهو ابن الله الذي غلب عدله رحمته فحكم على ابنه الوحيد بالصلب، وموته مقتولا على الصليب من طرف اليهود للتكفير عن خطيئة أبيهم آدم الذي أكل من الشجرة فعصى بذلك الأمر الإلهي بعدم الأكل منها. وبعد صلب المسيح مكث ثلاثة أيام في القبر ثم قام وصعد إلى السماء وجلس على يمين أبيه، وهو الذي سيتولى حساب الناس يوم القيامة. ويعلن بولس عن ذلك في رسائله[3] مثال ذلك ما جاء في رسالة رومية عن المسيح «متبررين مجانا بنعمته بالفداء الذي بيسوع المسيح»[4].

وفي رسالته إلى أفسس «الذي فيه لنا الفداء»[5]. وفي رسالته أيضا إلى تيموثاوس: «ومخلصنا يسوع المسيح»[6].

وكنتيجة لهذه التغيرات التي أدخلها بولس الرسول على المسيحية نشبعت عدة خلافات بين المسيحيين الأوائل وأتباع بولس، تطورت فيما بعد إلى معارك حامية بين الطرفين، الأمر الذي استدعى عقد العديد من المجامع الكنسية لحل المشكلة، كان آخرها مجمع نيقية عام 325م، الذي جاء بقرار حسم بموجبه الخلاف القائم بين القائلين بالتوحيد وبالطبيعة الإنسية

---

[1]-سفر الأعمال، الإصحاح 8/9.

[2]-سفر الأعمال، الإصحاح 4/9.

[3]-كتب بولس أربع عشرة رسالة بعثها إلى أهم الكنائس التي أسسها في البلاد التي زارها للتبشير ولذلك سمي كل رسالة باسم الجهة الموجه إليها. انظر: مصطفى شاهين: مرجع سابق، ص195.

[4]-رسالة بولس إلى رومية (رسالة رومية)، الإصحاح 24/3.

[5]-رسالة إلى أفسس، الإصحاح 7/9.

[6]-رسالة إلى تيموثاوس، الإصحاح 12/2.

للمسيح عليه السلام، وبين القائلين بالطبيعة الإلهية والداعين إلى تأليه المسيح بأن جعل الألوهية عند المسيحية في ثلاثة أقانيم متداخلة (الأب-الابن- الروح القدس). يقول ابن كمونة: «واتفق النصارى على هذه الأمانة بعد اجتماع ثلاثمائة وثمانية عشرة نفسا (318) عليها في زمن قسطنطين الملك ومعناها هو هذا: نؤمن بالإله الواحد، الأب ماسك الكل، صانع السموات والأرض، وكل ما يرى وما لا يرى، وبالواحد الرب أيشوع المسيح، ابن الله الوحيد، بكر جميع الخلائق الذي ولد من أبيه قبل كل العوالم وليس بمصنوع، نورا من نور، إله حقيقي من إله حقيقي، من جوهر أبيه الذي به أتقنت العوالم وخُلق كل شيء»[1].

وترتبط النبوة في المسيحية بعقيدة الصلب والفداء، حيث ترى بأن الغاية من إرسال المسيح هي التكفير عن الخطيئة الموروثة عن آدم عليه السلام الذي عصى الأمر الإلهي بأكله من الشجرة التي نهاه الله عن الأكل منها، فكانت بعثة المسيح «لأجلنا معشر البشريين، ولأجل نجاتنا هبط من السماء وتجسّم من روح القدس وصار إنسانا، وحُمل به وولد من مريم البتول وتألم وصلب في أيام فنطيوس فيلاطوس ودفنا وانبعث لثلاثة أيام، كما كتب»[2].

وبناء عليه فإن النبوة في المسيحية هي نتيجة ترتبت عن الإثم الذي ارتكبه آدم وخروجه من الجنة.

ب-دخول العقائد الوثنية إلى المسيحية: بعد موت المسيح عليه السلام اضطر أتباعه إلى التنقل إلى المناطق المجاورة هربا من اضطهاد اليهود أولا وتبشيرا بديانة المسيح ثانيا، وكانت الوثنية هي الديانة الموجودة في

تلك المناطق التي لجأ إليها. أما عن الكيفية التي تمت بها عملية الإقتباس من العقائد الوثنية، فيقول عنها "عبد الغاني عبود": « ورغبة من هؤلاء المبشرين في نشر الدعوة المسيحية بين تلك الشعوب الوثنية وخوفا من أن تجد بين هذه الشعوب نفس المصير الذي وجدته بين اليهود اضطر المبشرون المسيحيون إلى تطعيم المسيحية ببعض الطقوس والعادات والشعائر التي وجدوها في تلك الشعوب الوثنية وأغلب الظن أن هؤلاء المبشرين

---

(1) ابن كمونة: مصدر سابق، ص52.

(2) المصدر نفسه، ص52.

كانوا حسن النية فقد رأوا أن هذه هي الطريقة الوحيدة لتقريب الديانـــة المسـيحية لأذهـان الوثنيين»[1] وهكذا نجد فكرة التثليث الذي يعتبر صلب العقيدة المسيحية موجودا عند قدمـــاء المصريين ولدى الهنود والأشوريين[2] فالهنود كانوا يسمون ثالوثهم باسم (تـــرى مورثـــي) وهي جملة مركبة من (ترى) وتعني ثلاثة و(مورثي) ومعناها هيئات أو أقانيم، وهذه الأقـانيم الثلاثة هي برهما وفشنووسيفا.

ويعتقد الهنود أن برهما الممثل لمبادئ التكوين والخلق هـــو الأب، وفشـــنو الممثـــل لمبادئ الحماية والحفظ هو الابن، وسيفاالمبدئ والمهلك والمعبد هو الروح القدس[3].

وثالوث الرومانيين القدماء يتشكل من أو رمزد ومتراث وأهرمل، الأول الخـــالق والثـــاني ابن الله المخلص والوسيط والثالث المهلك.

أما ثالوث المصريين القدماء فيتكون من أزوريس وإيزيس وحورس[4].

وبخصوص عقيدة الصلب والفداء نجد كذلك نفس الأفكار في عقائد المصريين وكـــذا الرومانيين واليونان وغيرهم من الأمم الوثنية السابقة على مولد المســـيح عليه السلام[5] ويكـــاد الاتفاق يحصل بين المفكرين والباحثين في تاريخ الأديان بأن مســـيحية عيســـى عليه السلام قـــد اندثرت وحلت محلها مسيحية وثنية هي مسيحية بولس والمجامع الكنيسية.

وهكذا فإن المسيحية كما يقول. ويل ديورنت «لم تقض على الوثنية بل تبنتها ذلك أن العقل اليوناني النضر عاد إلى الحياة في صورة جديدة فـــي لاهـــوت الكنيســـة وطقوســـها، وأصبحت اللغة اليونانية التي ظلت قرونا عدة صاحبة السلطان علـــى السياســـة أداة الأداب والطقوس المسيحية ، وانتقلت الطقوس اليونانية الخفية إلى طقوس القداس الخفية الرهيبـــة... فجاءت من مصر أراء الثالوث المقدس، ويوم الحساب وأبدية الثواب والعقاب وخلود الإنسان

---

(1) عبد الغني عبود: المسيح والمسيحية والإسلام، ط1، د.ب، دار الفكر العربي، 1984، ص83.

(2) المرجع نفسه، ص85.

-مصطفى شاهين: مرجع سابق، ص210.

(3) المرجع نفسه، ص210.

(4) المرجع نفسه، ص211.

(5) المرجع نفسه، ص213.

في هذا أو ذاك»[1] ويضيف في موضع آخر «وقصار القول أن المسيحية كانت آخر شيء عظيم ابتدعه العالم الوثني القديم»[2].

2-تطور مفهوم النبوة في المسيحية

إن النبوة في المسيحية كغيرها من النبوة في اليهودية فكلتاهما مرتا بأطوار ومراحل أثرت على المعنى الصحيح للنبوة في كلتا الديانتين، إلا أنه يوجد اختلاف بين الظروف والعوامل التي أحاطت بمفهوم النبوة في اليهودية وبين الظروف والعوامل التي أحاطت بمفهوم النبوة في المسيحية.

فالتطور الذي حدث في مفهوم النبوة في الديانة اليهودية كان بسبب عدة عوامل كالغزو والاحتلال الذي تعرض له اليهود والمعاناة التي عايشوها أثناء السبي البابلي الأول والثاني، أما التطور الذي حصل لمفهوم النبوة في الديانة المسيحية فمرده إلى عامل أساسي ووحيد هي تعاليم بولس الرسول الذي أسس مسيحيته الحاضرة على النقيض التام من مسيحية عيسى عليه السلام.

والذي يعنينا نحن من اجتهادات بولس هو إبراز التغير والتطور الذي طرأ على مفهوم النبوة في الديانة المسيحية، فبعدما كانت النبوة تقوم بمهمة التبليغ لأحكام الله وأوامره، -والتي كانت تعني في المسيحية قيام النبي بالدعوة إلى الفضيلة ومكارم الأخلاق، مع الإبقاء على شريعة موسى عليه السلام وهي التوراة-. تحولت النبوة فيما بعد إلى تبليغ آراء بولس الرسول الداعية إلى إبطال العمل بتشريع التوراة وقصر الإيمان على الاعتقاد بأن المسيح هو المنقذ والمخلص والمكفر عن أخطاء البشرية. يقول بولس في رسالته إلى أهل غلاطية: «بأن الناس لا ينجون لاستمساكهم بشريعة موسى بل بإيمانهم القوي الفعال بالمسيح المنقذ»[3].

ويعلق ويل ديورنت على ذلك التطور الذي أصاب المسيحية بقوله: «ولعل المسيحية قد بدت لهم أنها صورة أخرى من الأديان الخفية التي طالما حدثتهم عن المنقذين الذين

---

(1)-ويل ديورنت: مرجع سابق، مج11، ص275.

(2) المرجع نفسه، ص275.

(3) المرجع نفسه، ص258.

وفي الحديث: إنكار الطعام في الحرم إلحاد فيه أي ظلم وعدوان.

-**الإلحاد بمعنى الجدل:** ألحد أي مارى وجادل، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[1].

وأرى أن أقرب المعاني الممنوحة لهذه الكلمة لما نحن بصدده الآن هو الإلحاد بمعنى الميل والعدول عن الفطرة السليمة, إذ أن الأصل في البشرية هو التدين بمعنى الاعتقاد في قوة غيبية أو الإيمان بوجود طبيعة عليا لهذا الكون سواء أكان هذا الاعتقاد صحيحا وهو الإيمان بوجود الله الواحد خالق هذا الكون ومنشؤه من العدم، أو كان اعتقادا فاسدا كأن يجعلوا لله شريك أو شركاء. وهو إيمان عرب الجاهلية قديما الذين كانوا يؤمنون بوجود الله الخالق الرزاق وبوجود ألهة أخرى يعبدونها تقربا إلى الله، كما في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾[2].وقوله ﷻ: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾[3].

أو الذين يعبدون الأجرام السماوية وهي ديانة مصر القديمة التي تقول أن السماء هو الإلهة سيبو النائم في لطف على الأرض، وهي الإلهة نويت، وكان القمر من أقدم ما عبد من الإلهة[4]. وعنهم تحدث القرآن الكريم في قوله تعالى ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾[5].

وقوله أيضا: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى﴾[6].

2-التعريف الاصطلاحي:

وبالنظر إلى ما جاء في التعريف اللغوي نجد أن الإلحاد بالمعنى الاصطلاحي هو ميل عن الفطرة السليمة التي فطر الله الناس عليها ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ

---

(1)-سورة فصلت، الآية: 40.

(2)- سورة الزمر، الآية: 3.

(3)-سورة لقمان، الآية: 25.

(4)-وين ديورانت: مرجع سابق، مج1-2، ص150.

(5)- سورة فصلت، الآية: 37

(6)- سورة النجم، الآية: 49.

وفي الحديث: إنكار الطعام في الحرم إلحاد فيه أي ظلم وعدوان.

-**الإلحاد بمعنى الجدل:** ألحد أي مارى وجادل، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[1].

وأرى أن أقرب المعاني الممنوحة لهذه الكلمة لما نحن بصدده الآن هو الإلحاد بمعنى الميل والعدول عن الفطرة السليمة, إذ أن الأصل في البشرية هو التدين بمعنى الاعتقاد في قوة غيبية أو الإيمان بوجود طبيعة عليا لهذا الكون سواء أكان هذا الاعتقاد صحيحا وهو الإيمان بوجود الله الواحد خالق هذا الكون ومنشؤه من العدم، أو كان اعتقادا فاسدا كمن يجعلوا لله شريك أو شركاء. وهو إيمان عرب الجاهلية قديما الذين كانوا يؤمنون بوجود الله الخالق الرزاق وبوجود ألهة أخرى يعبدونها تقربا إلى الله، كما في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾[2].وقوله ﷻ: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾[3].

أو الذين يعبدون الأجرام السماوية وهي ديانة مصر القديمة التي تقول أن السماء هو الإلهة سيبو النائم في لطف على الأرض، وهي الإلهة نويت، وكان القمر من أقدم ما عبد من الإلهة[4]. وعنهم تحدث القرآن الكريم في قوله تعالى ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾[5].

وقوله أيضا: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى﴾[6].

2-التعريف الاصطلاحي:

وبالنظر إلى ما جاء في التعريف اللغوي نجد أن الإلحاد بالمعنى الاصطلاحي هو ميل عن الفطرة السليمة التي فطر الله الناس عليها ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ

---

(1)-سورة فصلت، الآية: 40.

(2)-سورة الزمر، الآية: 3.

(3)-سورة لقمان، الآية: 25.

(4)-ول ديورانت: مرجع سابق، مج1-2، ص150.

(5)-سورة فصلت، الآية: 37

(6)-سورة النجم، الآية: 49.

يبعثون بعد موتهم، ولعلهم حين قبلوها مزجوها بتلك العقائد القديمة، وأثروا في بولس الرسول فجعلوه يفسر المسيحية تفسيرا يألفه العقل الهلنستي»[1].

ومهما اختلفت نظرة الأديان السماوية الثلاث (المسيحية، اليهودية، الإسلام) في تفسيرها لعقيدة الوحي والنبوة، فإنها تتفق جميعها في كونها صادرة عن الله ﷻ لهداية البشر إلى طريق الخير والنجاة.

فإذا كان هذا هو موقف المؤمنين بوجود الله من الوحي والنبوة، فكيف يكون موقف الملحدين –الذين لا يؤمنون أصلا بوجود الله– من هذه القضية، التي لا سبيل لوجودها وتحققها في أرض الواقع إلا بوجود الله؟

المطلب الثالث: الوحي والنبوة في الفكر الإلحادي:

أولا: تعريف الإلحاد:

إن الفكر الإلحادي هو إحدى ظواهر التفكير الإنساني التي تنتاب البشرية بين الفينة والأخرى، فما هي حقيقة هذه الظاهرة؟ وما هي دوافعها؟ وما هي الأسس التي تستند إليها؟

1- التعريف اللغوي[2]:

وردت كلمة إلحاد في اللغة العربية بعدة معان متفاوتة.

-**إلحاد بمعنى الميل:** يقال ألحد أي مال وعدل، ألحد الرجل إذا مال عن طريق الحق والإيمان.

-**الإلحاد بمعنى الظلم:** ألحد الرجل أي ظلم، وأصله من قوله تعالى: ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[3].أي إلحاد بظلم والباء فيه زائدة.

---

[1]-المرجع نفسه، ص258.

[2]-ابن منظور: لسان العرب، مصدر سابق، مج5، ص348.

-ابن فارس ابن زكرياء: معجم مقاييس اللغة، مصدر سابق، ج5، ص236.

-الفيروز أبادي: القاموس المحيط، مصدر سابق، ج1، ص335.

[3]-سورة الحج، الآية: 25.

الدين، وأخذت بوجهة نظر الكنيسة وهي أن الدين هو رجل الدين... واتفقوا على أن الرائد الأول الذي سوف يرث سلطان الكنيسة هو العقل من غير تحديد لمفهومه»[1].

والذي يتضح لنا مما تقدم هو وجود نوعين من الإلحاد: الإلحاد الحقيقي والإلحـــاد الشـــكلي فماذا نقصد بالإلحاد الحقيقي؟ وما معنى الإلحاد الشكلي؟.

الإلحاد الحقيقي: هو الاتجاه الذي ينكر وجود الله وينكر الوحي وينكر اليوم الآخـــر ومن بين ممثليه في القرن الثامن عشر نجد كـــل مـــن "ديـــدرو"[2] (Didrot) "هولبـــاخ"[3] (Holbach).

الذين اقتنعوا بأن البديل الوحيد عن المعتقدات الكنسية التقليدية هو الإلحاد، وعبروا عن ذلك بقولهم: «إن الإلحاد التام هو المذهب الوحيد العقلاني حقا»[4].

-الإلحاد الشكلي: وهو الاتجاه المؤمن بوجود الله ولكنه يرفض وجود الوحي في حياة الناس بمعنى الاستغناء بالعقل عن الوحي، وعن رسالات الأنبياء، ومـــن ممثليـــه "فولتـــير (voltaire)[5] "روسو" (Rousseau)[6]. ويوضح لنا فولتير هذه النزعة الدينية الغريبة مـــن خلال هذه العبارات يقول: «لو لم يكن الله موجودا لوجب اختراعه» ويقول أيضـــا «حينمـــا يثبت لنا أن صرحا عظيما مشيدا بمنتهى الفن قد بناه مهندس مـــا، فعلينـــا أن نؤمـــن بـــهذا

---

(1)-محمد إبراهيم الفيومي: رسالة في الحوار الفكري بين الإسلام والمسيحية، دط، القاهرة، عالم الكتب، 1981، ص23

(2)-ديدرو دونيس (1713-1784م): مفكر فرنسي ذو نزعة مادية حسية عقلانية، من آثاره: "آراء فلســـفية" و"آراء في تفسير الطبيعة".

(3)-هولباخ (1743-1789م): فيلسوف مادي فرنسي اعتقد بأن الإنسان جزء من الطبيعة وخاضع لقوانينها، أهم كتبه "نظام الطبيعة"، "المسيحية المقنعة". (م.روزينتال، ب.يودين: مرجع سابق، ص564).

(4)-اندري كرسيون: تيارات الفكر الفلسفي من القرون الوسطى حتى العصر الحاضر، تر: فـــؤاد زكريـــا، ط2، بـــيروت - باريس، منشورات البحر المتوسط، منشورات عويدات، 1992، ص154.

(5)-فولتير (1694-1778م): كاتب ومفكر فرنسي شهير، ذو نزعة دينية غريبة، فهو يؤمن بإله علوي لكنه لا ينتمي إلـــى اليهودية ولا إله المسيحية. أهم كتبه: "قصص فلسفية"، "صادق" "Zadig" 1748، "العالم كما يسير" 1748، وكتـــب في التاريخ هما "تاريخ شارل الثاني عشر"، و"عصر لويس الرابع عشر" (عبد الرحمن بدوي: مرجع سابق، ج2، ص201).

(6)-روسو جان جاك (1712-1778): مفكر سويسري اشتهر بآرائه التربوية التي ترى أن الإنسان يولد صالحا والمجتمـــع هو الذي يفسده، وبآرائه الاجتماعية التي تقول بأن الحياة الاجتماعية قائمة على التعاقد والتراضي. أهـــم كتبـــه "العقـــد الاجتماعي". (محمود يعقوبي: مرجع سابق، ص293).

المهندس حتى لو كان البناء مصطبغا بدمائنا ملوثا بجراحنا وسيحطمنا بانهياره»، أما معتقده بخصوص مذهبه عن خلود النفس فيقول: «إن الاحتمال العقلي لا يسير في هذا الاتجاه (خلود النفس) ولكننا لا نعرف عن ذلك شيئا ولن نعرف، إننا نعلم أن الله موجود ونعرف ما هي العدالة، وهذا كاف لنظام الحياة، وتصويغ الديانة الطبيعية، إنها تتلخص في بضع كلمات: أعبد الله وكن إنسانا شريفا»[1].

ثالثا: موقف الفكر الالحادي من الوحي والنبوة:

قبل التحدث عن موقف الفكر الإلحادي من النبوة والوحي يجدر بنا أولا أن نتحدث عن الموقف الإلحادي من الحقيقة الإلهية, وكيف أمكن لهذا الفكر أن ينكر وجود خالق لهذا الكون؟

وما هو الأساس الذي بنى عليه الفكر الإلحادي فكرته بخصوص إنكار الحقيقة الإلهية؟

وما هو مصير النبوة والوحي في ظل هذا الفكر؟

إن الأساس الفلسفي الذي بنى عليه الفكر الإلحادي فكرته القاضية بعدم الاعتراف بالحقيقة الإلهية هو الفلسفة المادية في جانبها الميتافيزيقي التي تفسر الوجود بالمادة.

والتفسير المادي للكون مذهب فلسفي قديم نجد بعض عناصره عند فلاسفة المدرسة الأيونية[2] أمثال "طاليس" الذي فسر أصل الكون بالماء والهيولى اللامحدودة و"انكسمانس" الذي فسره بالهواء و"هيراقليطس"[3] (Herakleitos) الذي فسره بالنار إذ يقول: «الله هو النار الخالدة الأبدية، هو طاقة العلم التي لا تفنى أبدا وهو الوحدة التي تربط جميع الأضداد وهو الانسجام الكائن بين جميع التفاعلات»[4].

ولقد أخذ هذا المذهب في الظهور من جديد بعد النهضة الأوروبية، واستمر كذلك حتى القرن الثامن عشر عندما أخذ في النمو والانتشار خصوصا بعد تقدم العلم وظهور نظريات "نيوتن"

---

[1]-اندري كريسون: مرجع سابق، ص158-159.

[2]-المدرسة الأيونانية Ecole Milet: أقدم مدرسة فلسفية في اليونان، يعود تاريخها إلى ما قبل القرن السادس قبل الميلاد. (الموسوعة الفلسفية، ص461).

[3]-هيروقليطس (حوالي 540-480ق.م): فيلسوف يوناني من أعلام المدرسة الأيونية، يرى أن النار هي أصل الموجود وأن هذه الموجودات في تغير مستمر وصيرورة دائمة. (محمود يعقوبي: مرجع سابق، ص330).

[4]-ول ديورانت: مصدر سابق، مج5-6، ص267.

الطبيعية التي كشفت عن(قانون السببية) وهو القانون الذي يفسر الظواهر الطبيعية بردها إلى أسبابها الظاهرة. ونظرية "داروين"[1] في الانتخاب الطبيعي والصراع من أجل البقاء.

ومن دعاة المادية في العصر الحديث نجـــد كـــل مـــن "بيكـــون"[2] (Bacon)، "أنجلـــز"[3] (Engles)، "ماركس"[4] (Karl Marx).

لقد أنكرت المادية الملحدة الحديثة ممثلة في الماركسية وجود رب خالق للكـــون ورفضـــت الإيمان بما وراء الحس وقالت إن أصل الكون هي المادة الخاضعة للتطور ضمـــن قـــانون الديالكتيك (Dirlektik) (الجدل)[5]. والجـــدل هو كل العناصر المكونة لفلسفة "هيجـــل"[6] (Higl)، التي أخذها عنه كارل ماركس وبنى عليها مذهبه الإلحادي وهو المادية الماركســـية «فقد كان ماركس وأنجلز يريان في جدل هيجل أوسع مذهب من مذاهب التطور، وأوفرهـــ

---

[1]-تشارلز داروين (1809-1882م): عالم طبيعي وفيلسوف إنجليزي اشتهر بنظريته في أصل الكائنات الحية وتطورهـــا. أهم كتبه "أصل الأنواع"، "أصل الإنسان". (محمود يعقوبي: مرجع سابق، ص288).

[2]-فرانسيس بيكون (1561-1626م): فيلسوف إنجليزي ساهم بقسط كبير في إرساء قواعد المنهج العلمي بعد الانتقـــاد الشديد الذي وجهه للمنطق الأرسطي الذي يعتبره منهجا غير مفيد لأنه لا يكشف عن الجديد، أهـــم كتبـــه: "حكمـــة القدماء"، "في المبادئ والأصول"، "تفنيد الفلسفات". (م.روزنتال، ب.يودين: مرجع سابق، ص145).

[3]-انجلز (1820-1895م): فيلسوف اجتماعي ألماني ذو نزعة مادية، اشترك مع صديقه ماركس في وضع أصول الماديـــة الجدلية والمادية التاريخية من خلال عدة مؤلفات نذكر منها: "العائلة المقدسة والإديولوجيـــا"، "الاشـــتراكية الطوباويـــة والاشتراكية العلمية". (محمود يعقوبي: مرجع سابق، ص267. الموسوعة الفلسفية المختصرة، ص81).

[4]-كارل ماركس (1818-1883م): فيلسوف سياسي واقتصادي ألماني، وضع مذهبا جديدا في المعرفة هو المادية الجدليـــة وفي فلسفة التاريخ هو المادية التاريخية، وضعه بمشاركة زميله إنجلز وأصبح يسمى بالماركسية، من أهم كتبه: "رأس المـــال"، "الاقتصاد السياسي والفلسفة"، "نقد فائض القيمة". (محمود يعقوبي: مرجع سابق، ص321).

[5]-الديالكتيك: مشتقة من الكلمة اليونانية التي تعني الحوار أو المناقشة بين شخصين أو بين متعارضين بهدف الى الاتفـــاق على نبذ أفكارهما الجزئية وقبول وجهة نظر جديدة. (إمام عبد الفتاح: مرجع سابق، ص51).

[6]-هيجل فريدريخ جورج (1770-1831): فيلسوف ألماني مثالي، كان يعتقد أن الفكر يسير دائما على هـــذا النحـــو فهو يبدأ بقضية موجبة يعارضها في الحال نقيضها ثم تظهر فكرة أوسع تجمع بينهما في مركب واحد، إلا أن هذا المركـــب سيرد نقيضا جديدا، وهكذا تتكرر العملية نفسها من جديد. (محمود يعقوبي: مرجع سابق، ص330. عبـــد الرحمـــن بدوي: مرجع سابق، ج2، ص570. إمام عبد الفتاح إمام)، مرجع سابق، ص51).

مضمونا وأشدها عمقا»[1] ويقول لينين[2] (I.énine): «يستحيل استحالة قاطعة أن نفهم (رأس المال) لكارل ماركس ولا سيما الفصل الأول منه ما لم ندرس منطق هيجل ونفهمه بأكملـــه. ولهذا السبب فقد مضى نصف قرن من الزمن ولم يفهم ماركس واحد من الماركسيين»[3].

يرى "هيجل" أن كل شيء في الكون يتغير ويتحرك نحو الأعلى، وأن الفكرة أثناء تطورهـــا تمر عبر ثلاث مراحل هي:

المرحلة الأولى: تظهر الفكرة كقضية موجبة.

المرحلة الثانية: ظهور نقيضها (نقيض القضية الموجبة).

المرحلة الثالثة: ظهور فكرة أوسع تجمع بين القضية الموجبة ونقيضها في قضية مركبة، ثـــم يظهر نقيض جديد لهذه القضية المركبة.وهكذا تتكرر العملية نفسها من جديد.

لقد استعمل هيجل الجدل في مجال الفكر وفسر التطور على أنه انتقال من الوجـــود بالقوة إلى الوجود بالفعل أو الانتقال من الضمني إلى العلني. فلا وجود لانبثاق شيء جديـــد كل الجدة ولا وجود لانبثاق من العدم، مثال ذلك الرجل الذي كان طفلا بالقوة وأصبح رجـــلا بالفعل، فالرجل لم يأتي من العدم ولم يأتي من شيء جديد، وإنما أتى من شيء كان موجـــود من قبل (بالقوة) وهو الطفل، ثم تطور هذا الطفل وصار رجلا. والتطور باعتباره القـــانون القائم على صراع المتناقضات والأضداد داخل كل ذرة من ذرات الكون هو قانون أوجده الله في الكون، فالله في فلسفة هيجل هو المطلق وهو فكر الفكر[4].

بينما استعمل كارل ماركس الجدل الهيجلي في مجال المادة «فقد كان ماركس يـــرى مع أنجلز أن الجدل الهيجلي هو أثمن اكتساب حققته الفلسفة الكلاسكية الألمانية،... وكـــانت كل صبغة أخرى لمبدأ التطور تتراءى لهما وحيدة الجانب، فقيرة المضمون، تشـــوه وتفســـ

---

[1]-إمام عبد الفتاح إمام: المنهج الجدلي عند هيجل، ط2، القاهرة، دار المعارف، 1985، ص316.

[2]-لينين فلاديمير إلتش (1870-1924): سياسي روسي يعد من كبار مفكري الماركسية. جعل من الماركسـية شـريعة لدول الاتحاد السوفياتي وعمل على إقامة المجتمع الشيوعي وعلى دعم الفلسفة الماركسية والدفاع عنها، من كتبه: "المادية والمذهب التجريبي النقدي"، "الإمبريالية أعلى مراحل الرأسمالية". (محمود يعقوبي: مرجع سابق، ص320).

[3]-إمام عبد الفتاح إمام: مرجع سابق، ص317.

[4]-المرجع نفسه ، ص77.

السير الواقعي للتطور في الطبيعة والمجتمع...»[1]. ويقول لينين في مقال له نشر في مجلة (تحت راية الماركسية سنة 1922) ما يلي: «... سوف يجد علماء الطبيعة المحدثين، إذا ما عرفوا سبيل البحث الصحيح، وإذا ما عرفنا نحن كيف نساعدهم، سوف يجد علماء الطبيعة حين نفسر الجدل الهيجلي تفسيرا ماديا، مجموعة من الإجابات عن المشكلات الفلسفية التي أثارتها الثورة في العلم الطبيعي»[2].

ولقد أعجب ماركس كثيرا بهيجل غير أن وجود عنصر الإيمان عند هذا الأخير واعتقاده بوجود إله خالق لهذا الكون كان ينقص من مقدار ذاك الإعجاب. يقول لينين واصفا شعور ماركس اتجاه هيجل «كان ينفر بشدة حين يرد في منطق هيجل ذكر المطلق أو الله أو غيرها من الأفكار التي تدخل أساسا ضمن مذهبه المثالي»[3] ثم يضيف: «إن اللوحة التي يقدمها لنا منطق هيجل عن العالم تكون جليلة حقا ورائعة فعلا لو أننا أسقطنا منها الله أو المطلق»[4].

فسرت المادية الماركسية الكون على أنه مادة أزلية قابلة للإدراك، متغيرة باستمرار طبقا لقانون التطور القائم على صراع المتناقضات والأضداد الموجود في كل ذرة من ذرات الكون وعملية التطور تلك هي عملية ذاتية آلية متروكة للصدفة ولا وجود لإرادة مخططة ترعى هذا النظام.

وعليه فقد رفض هذا التصور المادي الذي لا يعترف إلا بما هو مشاهد ومحسوس، كل ما ليس بمحسوس وليس بمشاهد. إذ يقول إنجلز «إن العالم المادي الذي ندركه بحواسنا والذي نحن جزء منه هو الحقيقة الوحيدة وليس الإدراك والتفكير إلا نتاجا لعضو من أعضاء جسمنا وهو المخ، فليست المادة من إنتاج العقل، بل العقل نفسه ما هو إلا أسمى إنتاج للمادة»[5].

---

[1]- إمام عبد الفتاح إمام: مرجع سابق، ص316.

[2]- المرجع نفسه، ص318.

[3]- المرجع نفسه، ص329.

[4]- المرجع نفسه،ص329.

[5]- محمد عبد المنعم خفاجي: عبد العزيز شرف: الإنسانية تعود إلى الإسلام، ط1، بيروت، دار الجيل، 1992، ص70.

كما قامت المادية الماركسية بقصر الحقيقة على إدراك الأشياء المادية الموجودة في الواقع وجعلوا المعرفة الحقيقية هي مطابقة الموجود المادي، للموجود الذهني أو للصورة الذهنية فالمفاهيم الذهنية التي لها وجود مادي في الأعيان خارج الوعي (في الواقع) هي المعرفة الصحيحة، أما المفاهيم الذهنية التي ليس لها وجود مادي في الواقع فهي مفاهيم مغلوطة وليست صحيحة. وبما أن الإيمان بالله تصور ذهني يستحيل أن يكون له وجود مادي في الواقع، فإن هذا التصور تصورا باطلا وفاسدا.

يقول هيز: «إن الأشياء المادية وحدها هي المحسوسة لنا وأنا لا أستطيع أن أعلم شيئا عن وجود الله. إن وجودي الخاص هو وحده الأمر المؤكد أما ما عداه فخيال لا أصدقه»[1].

وعليه فإن فكرة وجود الله في الفكر الإلحادي الماركسي هي فكرة وهمية أخترعها الإنسان في بدايات حياته لكي يفسر بها خصائص وأسباب الظواهر المحيطة به. أما وقد تطور العلم وظهرت النظريات العلمية التي تمكنت من تفسير ومعرفة خصائص العديد من الظواهر الطبيعية، كنظرية نيوتن وكشفها عن (قانون السببية) ونظرية داروين في الطبيعة الحية واستنتاجه لقانون التناحر على البقاء، والبقاء للأصلح (الانتخاب الطبيعي). فإن فكرة وجود الله في الوقت المعاصر أوفي عصر العلم لم يعد لها ضرورة، فقد تكفل العلم ببيان وتفسير كل الإشكالات التي قد تعرض للإنسان في الحياة.

وهكذا استخدم الفكر الإلحادي العلم التجريبي كأداة ساهمت في توسيع الهوة بين الإلحاد والإيمان بوجود الله، يقول محمد البهي «إن تحصيل الإنسان للحقائق الكونية ومعرفته بها لا يكون إلا بالتجربة الحسية وحدها، ومعنى ذلك أن الحس المشاهد لا غيره هو مصدر المعرفة الحقيقية اليقينية ففي العالم الحسي تكمن حقائق الأشياء، وأما انتزاع المعرفة مما وراء الظواهر الطبيعية الحسية والبحث عن العلة في هذا المجال، فأمر يجب أن يرفض ولهذا تكون كل نظرية أوكل فكرة عن وجود له طابع الحقيقة في وراء الحس نظرية أو فكرة مستحيلة»[2].

---

[1]-محمد عبد المنعم خفاجي، مرجع سابق، ص68.

[2]-محمد البهي: الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، ص279.

إن الاعتقاد في صلاحية العقل على قيادة الإنسان في هذه الحياة والإيمان بقدرة العلم الطبيعي على حل مشكلات المجتمع والإنسانية والاستعاضة بكل من العقل والعلم عن الإيمان بالله خالق الكون دعوى تكذبها الحقائق التاريخية والحقائق العلمية.

فالتاريخ أثبت أنه لا غنى للإنسان في حياته عن الاعتقاد في قوة غيبية عليا هي المتصرفة في شؤون العالم بغض النظر عن الكيفية التي يتم بها التعبير عن هذا الإيمان. وأما العلم الطبيعي الذي استخدموه كأداة لنشر الإلحاد في مجتمعاتهم الغربية، فهو ذاته الذي يثبت وجود الله ويثبت وجود عوالم روحية فيما وراء الحس.

ما صرح به عدد كبير من علماء الذرة والفلك وعلم الأحياء (البيولوجيا) والرياضيات «فأكدوا أن لديهم أدلة وقرائن كثيرة تثبت وجود كائن أعظم ينظم هذا الوجود ويرعاه بعنايته ورحمته وعلمه الذي لا حد له»[1]، وقال أخر: «إنه لا يشك في أن الكائن الأعظم وهو ما تسميه الاديان (الله) هو الذي يسيطر على الطاقة الذرية وغيرها من الظواهر والقوانين الخارقة في هذا الوجود»[2].

أما قضية الوحي والنبوة فلا مجال للحديث عنها لدى الملحدين (الحقيقيين) المنكرين لوجود الخالق من باب انتفاء الجزء بانتفاء الكل فإذا كانت قضية (وجود الله) هي قضية مرفوضة أصلا من قبل الملحدين فإن كل ما يترتب عليها (في حالة ثبوتها من أمور غيبية) هو مرفوض. أيضا كالإقرار بمبدأ النبوة والاعتراف بالوحي والإيمان باليوم الآخر والبعث، إذ أن إنكار وجود الله ترتب عنه إنكار كل الغيبيات الدينية.

هذا عن الإلحاد الحقيقي أما الإلحاد الشكلي، وبالرغم من اعترافه بوجود الله وبأنه الخالق لهذا الكون، إلا أنه لا يعترف برسالات الأنبياء، ولا يعترف بالوحي، بدعوى أن العقل قادر بمفرده على تسيير شؤون الحياة و التحكم فيها دون الحاجة إلى إرسال أنبياء بمعنى الاستغناء عن الوحي بالعقل، و هذا المذهب قديم في تاريخ الفكر، و من صوره ما ذهبت إليه البراهمة التي تقول بأن الذي يأتي به الرسول لم يخل من أمرين، إما أن يكون معقولا، وإما

---

[1]- محمد العراقي: عقيدة المسلم، د.ط، دار الشهاب للطباعة والنشر، باتنة، 1985، ص25.

[2]- المرجع نفسه، ص25.

أن لا يكون معقولا فإن كان معقولا فقد كفانا العقل بإدراكه و لاحاجة لنا للرسول . وإن لم يكن معقولا فلا يكون مقبولا. إذ أن قبول ما ليس بمعقول خروج عن حد الإنسانية، و قد دل العقل على أن الله تعالى حكيم، و الحكيم لا يتعبد الخلق إلا بما تدل عليهم عقولهم[1].

أما البراهمة المعاصرون فقد أعادوا طرح هذه الدعوة، ولكن في ثوب جديد، وهي أن الإنسان المعاصر، وبفضل التقدم الكبير الذي أحرزه العقل في الجانب العلمي، والتكنولوجي لم يعد في حاجة إلى الإيمان بالنبوة، والعمل بتوجيهات الوحي، لأن العقل الإنساني في مرحلته الحالية قد وصل إلى أعلى صورة له، وهي الغاية التي وصل إليها من خلال مراحل التطور التي مر بها التفكير الإنساني. إذ أن النبوة في اعتقاد هؤلاء الملاحدة كانت تعبر عن إحدى تلك المراحل التي قطعتها البشرية وحينها كان التفكير الإنساني يغلب عليه صفة السذاجة والبساطة. فكان العقل محتاجا في تلك المرحلة إلى توجيه الوحي و تشريع النبوة. أما الآن، و قد بلغ العقل الإنساني الغاية المرجوة من التطور و وصل إلى مرحلة الاكتمال لم يعد في حاجة إلى الإيمان بتلك المعتقدات الغيبية، فالإنسان قادر بمفرده على الحكم على الأشياء، وعلى التمييز بين ما يضره وما ينفعه.

تلك إذن هي النزعة الغربية الإلحادية المعاصرة التي رفضت الوحي و اعترفت بالإنسان موجها ومشرعا، حيث عملت على تمجيد الإنسان والرفع من شأنه لدرجة التقديس والتأليه، فظهرت مصطلحات إلحادية حديثة تكرس لهذا الاتجاه الذي يسعى إلى نزع صفة القداسة عن الله الخالق وحصرها في الذات الإنسانية كمصطلح الإنسانية المقدسة وموت الإله.

والعلم الذي تناول مسألة (الوحي والنبوة) بالدرس والتحليل هو علم تاريخ الأديان وعلم مقارنة الأديان، يضاف إليهما فرع آخر من المعرفة هو الاستشراق، الذي عني فقط بدراسة مسألة الوحي والنبوة في الإسلام دون التطرق إلى نظيرتها في الديانتين السابقتين اليهودية والمسيحية. فما هي حقيقة هذا النوع من المعرفة؟ ولماذا تخصص في دراسة الوحي والنبوة في الإسلام دون غيره من الأديان؟

---

[1] لمزيد من التوضيح أنظر: أبو المعالي الجويني: الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد، ص257. الماوردي: أعلام النبوة، ص58. الباقلاني: تمهيد الأوائل في تلخيص الدلائل، ص126.

الفصل الثاني:

الاستشراق ومذاهبه في الدراسات الإسلامية :

المبحث الأول: الاستشراق: الدوافع والنشأة

المبحث الثاني: مذاهب المستشرقين في الدراسات الإسلامية

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

تمهيد

الاستشراق هو العلم الغربي المتخصص في دراسة الشرق من حيث ديانته وعاداته وحضارته وتقاليده. ويشكل مفهوم الإسلاميات (Islamologie) أساس الإشراق منذ نشأته إلى الوقت الحاضر، حيث تمحورت كافة أطروحاته حول الإسلام دينا، أوثقافة أومجتمعا.

وقد توجه الاستشراق (في مجال الإسلاميات) إلى الحديث -على وجه الخصوص عن نشأة الإسلام وعن طبيعة الإسلام. ومن أجل فهم صحيح لهذا الدين الجديد رأى المستشرقون أنه لا بد من الإحاطة بالظروف والعوامل التي ساعدت على ظهور الإسلام والبحث عن المصادر الدينية التي توفرت لنبيه محمد ﷺ، والتي اعتمد عليها في تأليف مادة القرآن الكريم.

ولكن حين نغادر هذا المنظور لنتبين الكيفية التي عالج بها الاستشراق (عبر كامل مذاهبه) موضوع الإسلام، فإننا لا نقع على موقف متميز نوعيا عن ذلك الموقف الثابت والراسخ حول نشأة الإسلام وطبيعته، وإن وجدت بعض الاختلافات فذلك بسبب التنوع في تصوير الآراء، والتنوع في تقرير الشروحات.

وبالنظر إلى ظروف العصر التي رافقت هذه المواقف، والنظر إلى نفسيات المستشرقين خلال هذا الموقف أو ذاك، وبالنظر إلى المناخ الفكري والظروف السياسية التي أحاطت به، ارتأينا أن نحصر مذاهب المستشرقين في الدراسات الإسلامية في ثلاثة مذاهب هي مذهب الاستشراق التقليدي، ومذهب الاستشراق الاستعلائي، ومذهب الاستشراق العلمي.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الأول : الاستشراق (الدوافع والنشأة)

المطلب الأول: تعريف الاستشراق

الاستشراق هو الوسيلة التي مكنت الغرب من قراءة ماضي شعوب الشرق عامة، وماضي الشعوب العربية والإسلامية خاصة. والعاملان المهمان في هذه العملية هما الشرق موضوع التأمل والغرب صاحب القراءة.

فما هي الدلالة التي تحملها كل من اللفظتين : الشرق والمستشرق؟

وما هي طبيعة العلاقة القائمة بينهما؟

أولا : تعريف الشرق:

اختلف النظر إلى الشرق بتعدد النوافذ التي ينظر من خلالها إلى هذا الشرق، الأمر الذي تسبب في ظهور عدة معان ومفاهيم، تطلق جميعها على لفظة الشرق.

1-المفهوم اللغوي :

إن الشرق في حد ذاته مفهوم يفسر نفسه بنفسه إلى حد ما، وهو يقع في اتجاه الشرق[1] والشرق هو مكان شروق الشمس[2] أو الجهة التي تشرق منها الشمس[3].

ويعرفه القاموس الفرنسي : الشرق هو أحد النقاط الأربعة الأصلية في الجهة التي تشرق منها الشمس، هي الشرق، الغرب، الشمال والجنوب[4].

ونشير إلى أن كلمة (شرق) قلّ ورودها في أمهات المعاجم العربية كلسان العرب لابن منظور والقاموس المحيط لمجد الدين الفيروزبادي وذلك في رأي يعود إلى سببين اثنين هما: أولا: أن لفظ الشرق بالمعنى الذي يدل على بلاد الشرق أو بلاد الإسلام في مقابل لفظ الغرب

---

[1]-باروسلاف ميزار، وحوزيف فوزار، أحال إليه حوزيف نسيم يوسف: دراسات في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، الإسكندرية، شباب الجامعة، 1988، ص128.

[2]-محمد الفاروقي التهانوي: كشف اصطلاحات الفنون، تحقيق: لطفي عبد البديع، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1972، ص139.

[3]-محمد فريد وجدي: دائرة معارف القرن العشرين، بيروت، دار الفكر، 1979، ج5، ص179.

[4] Dictionnaire de Français : Achète, France, 1996, Orient, P769.

-Le petit robert, Dictionnaire alphabetique et analogique de la lange Français, Paris, Les dictionnaires le Robert, 1992, Orient, P1323.

الذي يطلق عادة على أوروبا مضاف إليها أجزاء من أمريكا، لم يكن له وجود في التاريخ الإسلامي وإنما كانت هناك ثنائية دار السلام ودار الحرب، (الأولى ترمز إلى الإسلام والمسلمين والثانية ترمز إلى المسيحيين)، أو بلاد الإسلام وبلاد الكفر. ثانيا: أن الغرب هو الذي بدأ الاهتمام بالشرق لمركزيته الدينية، وبسبب حضارته الإنسانية العريقة وبسبب أيضا التركيبة النفسية للغرب وهي الرغبة في معرفة الآخر.

2-المفهوم الجغرافي :

إن الشرق هو اصطلاح ابتدعته أوروبا لكل أرض تقع وراء حدودها شرقا إلى اليابان[1]، ويدل لفظ الشرق على البلدان الواقعة إلى الشرق من أوروبا ويشمل آسيا عموما وآسيا الشرقية أو الشرق الأقصى خصوصا[2].

وقد تغير مفهوم الشرق تبعا للظروف التي أحاطت به. ففي القرون الوسطى كان الشرق يمثل بالنسبة لأوروبا تلك البلاد الواقعة على السواحل الشرقية والجنوبية الشرقية للبحر المتوسط، ولم يكن مألوفا ذلك التمييز العميق الجذور الذي جاء فيما بعد بين كل من الشرق الأدنى والشرق الأوسط والشرق الأقصى[3].

3-المفهوم التاريخي:

تعني كلمة شرق مجموعة الأقطار الموجودة في آسيا وفي إفريقيا والتي تشرف على البحر المتوسط، مضافا إليها بعض أجزاء أوروبا الشرقية وذلك لأن هذه البلدان قد جمعت بينها عدة روابط تاريخية كرابط الدين واللغة[4].

4-المفهوم الحضاري :

إن العلاقة بين الشرق والغرب كانت عبر تاريخها الطويل علاقة صراع متواصل، يشتد حينا ويضعف أحيانا أخرى، وكانت أولى الحلقات في سلسلة هذا الصراع المواجهة بين الفرس (ممثلا للشرق) والروم (ممثلا للغرب). وبعد مجيء الإسلام وما أحدثه من تحد

---

(1)-قاسم السمرائي: الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية، ط1، منشورات دار الرفاعي، 1983، ص107.

(2)-منير البعلبكي: موسوعة المورد، ط2، بيروت، دار العلم للملايين، 1991، مج7، ص174.

(3)-جوزيف نسيم يوسف: مرجع سابق، ص128.

(4)-محمد فتح الله الزيادي: انتشار الإسلام وموقف المستشرقين منه، ط1، بيروت، دار قتيبة، 1990، ص42.

للموروثات الدينية السائدة آنذاك، تطلب ذلك التحدي ردود أفعال شديدة تمثلت في الحروب التي وقعت بين المسلمين والروم، ثم بين المسلمين والصليبيين، وما زال الصراع قائما إلى الآن ويرى الدكتور فتح الله الزيادي أن أحسن تفسير لكلمتي الشرق والغرب حضاريا ما ذكره أحد الباحثين حين قال : «أما الغرب فهو اصطلاح حديث جرينا فيه على ما اصطلح عليه الأوروبيون في عصور الاستعمار من تقسيم العالم إلى شرق وغرب، يعنون بالغرب أنفسهم وبالشرق أهل آسيا وأفريقيا الذين كانوا موضع استعبادهم واستغلالهم، وجرينا نحن على هذا الاستعمال»[1].

5-المفهوم العرقي :

هو اعتقاد ظهر في القرن التاسع عشر للميلاد، ويدل على وجود فروق واختلافات بين الأجناس البشرية، يأتي الجنس الأري في المرتبة العليا في سلم الترتيب السلالي، بينما الجنس السامي فهو دون هذه المرتبة، بمعنى أوضح فوقية الغرب في مقابل الدونية الشرقية.

فالعرق السامي وليد الشرق الذي حاز على المركزية الدينية باعتباره مهبط الوحي والأديان، وبالتالي فهو يمتاز بالتأمل والتفكير والميل إلى الزهد والتأثر بالأوهام والخرافات، إضافة لذلك فهو فكر مقيد لا يستطيع التفكير بحرية لأنه محكوم بوحي مسبق. أما العرق الأري فهو وليد الغرب الذي حاز على المركزية العقلية بفضل ما يتمتع به من حرية في التفكير وبسبب رصيده الفلسفي العقلي.

ذلك ما يؤكده "رينان" (Renan)[2] بقوله: «ليس العرق السامي هو ما ينبغي أن نطالبه بدروس في الفلسفة، ومن غرائب النصيب ألا يُنتج هذا العرق الذي استطاع أن يطبع على بدائعه الدينية أسمى سمات القوة، أقل ما يكون من بواكير خاصة به في حقل الفلسفة ولم تكن الفلسفة لدا الساميين غير استعارة خارجية صرفة خالية من كبير خصب»[3].

---

[1]-محمد فتح الله الزيادي: مرجع سابق ص42.

[2]-أرنيست رينان (1823-18929: مستشرق ومفكر فرنسي، عرف بنزعته الاستعلائية المعادية للجنس العربي والرافضة لحقيقة أصالة الحضارة الإسلامية، وبكراهته للإسلام الذي يقول عنه بأنه أثقل قيد حملته الإنسانية، أهم كتبه: "ابن رشد والرشدية"، "وعدة مقالات منها: الإسلام والعلم"، "أسطورة محمد في العرب". (عبد الرحمن بدوي: موسوعة المستشرقين، ص311-320).

[3] أرنيست رينان: ابن رشد والرشدية، ترجمة: عادل زعيتر، عيسى البابي الحلبي، دط، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، 1957، ص15 16.

ولتفنيد هذا الزعم الباطل نذكر ما قاله "جوستاف لوبون" (Gostève Lepaun)[1] في كتابه حضارة العرب «إن الأمم التي فاقت العرب قليلة إلى الغاية وإننا لا نذكر أمة كللعرب حققت من المبتكرات العظيمة في وقت قصير مثل ما حققوه، وإن أوروبا مدينة للعرب بحضارتها، ولا يمكن إدراك أهمية شأن العرب في الغرب إلا بتصور حال أوروبا حينما أدخل العرب الحضارة إليها»[2].

والباحث في أي ناحية من النواحي المتعلقة بالشرق، يطلق عليه اسم مستشرق، فمن يكون ؟ وما هي وظيفته؟

ثانيا: تعريف المستشرق

يعرفه إدوارد سعيد فيقول: «المستشرق هو كل من يقوم بتدريس الشرق، أو الكتابة عنه، أو بحثه»[3]. ويقول قاسم السمرائي: «إن الباحث في أي فرع من فروع المعرفة التي تتعلق بقريب أو بعيد بهذا الشرق يسمى مستشرق»[4].

هذان التعريفان فيهما إطلاق وعموم، لأجل ذلك اشترط بعض الباحثين أن ينتمي المستشرق إلى العالم الغربي، من ذلك الأستاذ عبد الوهاب حمودة الذي يرى بأن: «المستشرق هو كل من تجرد من أهل الغرب لدراسة بعض اللغات الشرقية، أو لمعرفة بعض الأمم الشرقية من حيث أخلاقها وتاريخها وديانتها»[5].

أما المفكر مالك بن نبي[6] فقد أضاف شرطا آخر – زيادة على الانتماء للغرب – وهو الكتابة عن الفكر والتراث الإسلامي، إذ يقول «إننا نعني بالمستشرقين الكتاب الغربيين

---

[1]–جوستاف لوبون: مستشرق فرنسي ولد سنة 1841م، درس الطب واشتغل به ثم تركه وتوجه لدراسة الحضارة الشرقية. (نجيب العقيقي: المستشرقون، ج1، ص202).

[2]–جوستاف لبون: حضارة العرب، تر: عادل زعيتر، ط4، دب، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، دت، ص65.

[3]–إدوارد سعيد: الاستشراق: المعرفة-السلطة- الإنشاء، تر: كمال أبو ديب، ط2، مؤسسة الأبحاث العربية، 1984،ص60.

[4]–قاسم السامرائي: الاستشراق الموضوعية والافتعالية، ص108.

[5]–عبد الوهاب حمود: من زلات المستشرقين، لواء الإسلام، مج4، ع6، 1954، ص37. نقلا عن: محمد بشير معلمي، مناهج البحث في الإسلاميات لدى المستشرقين وعلماء الغرب، رسالة ماجستير، جامعة الأمير عبد القادر، 1990، ص3

[6]–مالك بن نبي (1905-1973): مفكر عربي جزائري، ولد في قسنطينة وأنهى دراسته الثانوية في سنة، تخرج مهندس كهربائيا من جامعة باريس، ثم عاد إلى الجزائر، فالقاهرة، نشر أكثر كتبه بالفرنسية وترجم معظمها إلى العربية، منها "الظاهرة القرآنية"، "مشكلة الثقافة"، "في مهب المعركة". (منير البعلبكي: مرجع سابق، ص412).

الذين يكتبون عن الفكر الإسلامي، وعن الحضارة الإسلامية»[1]، وبذلك يخرج من دائرة المستشرقين الباحثين العرب غير المسلمين، أمثال الأب لويس شيخو[2]، وفيليب حتي[3]. والباحثين غير العرب وغير المسلمين كاليابانيين، والإندونيسيين والهنديين لأنهم ينتمون إلى الشرق بحكم المولد والبيئة.

ومما تقدم نستنتج أن كلمة مستشرق تحمل دلالتين اثنتين:

-دلالة أكاديمية: وهي أن المستشرق هو كل من تخصص من أهل الغرب في دراسة لغات الشرق وحضاراته وفلسفاته وأديانه.

دلالة عامة: وهي أن المستشرق هو كل من تناول من أهل الغرب الإسلام والحضارة الإسلامية بالبحث والدراسة والتحليل.

والحقيقة التي يؤكدها التاريخ أن كلمة مستشرق ارتبطت أكثر بالتراث الإسلامي أكثر من غيره من بقية تراث الشرق، لأنهم -المستشرقين- وجهوا كل اهتماماتهم، وبذلوا قصارى جهودهم في الكتابة عن الإسلام والمسلمين، فلقد «اتجه الاستشراق إلى دراسة جميع ديانات الشرق وعاداته وتقاليده وإن كانت العناية بالإسلام والآداب العربية والحضارة الإسلامية هي أهم ما يعنى به المستشرقون حتى اليوم»[4].

ولم يكتف المستشرقون بمهمة البحث والتنقيب عن التراث الإسلامي، بل تعدوا ذلك إلى إصدار الأحكام القاسية بشأنه، فما عدا القلة القليلة التي أنصفت الفكر والتراث الإسلامي (تمثل الاستثناء من القاعدة) فإن معظم المستشرقين تقريبا قد أساءوا إلى الإسلام وخاصة في قسمه الأول المتعلق بالإسلام كدين وأسسه العقدية (القرآن الكريم، الحديث وسيرة الرسول ﷺ).

---

(1)-مالك بن نبي، إنتاج المستشرقين وأثره على الدراسات الإسلامية، مكتبة عمار، القاهرة، 1970. نقلا عن: محمد فتح الله الزياني، مرجع سابق، ص43.

(2)-لويس شيخو: ولد في مردين (بالجزيرة الفوراتية)، تعلم في مدرسة الآباء اليسوعيين في غزيرة (لبنان) وإنتظم في سلك الرهبنة اليسوعية عام 1874. أنشأ مجلة المشرق وله عدة مؤلفات منها ديوان الخنساء، النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية (خير الدين الزركلي: الأعلام، ط7، بيروت، دار العلم للملايين، 1986، مج5، ص246).

(3)-فليب حتي: ولد في لبنان سنة 1886 ودرس في الجامعة الأمريكية في بيروت، ثم هاجر إلى الولايات المتحدة وبعد إتمام دراسته، عين مستشارا لوزارة الخارجية الأمريكية لشؤون الشرق الأوسط. (توفي أبو خليل: الإسقاط في مساهم المستشرقين والمبشرين، ص67).

(4)-مصطفى السباعي: الاستشراق والمستشرقون، ط2، بيروت، مطبوعات المكتب الإسلامي، 1979، ص15.

وحتى هذه الفئة القليلة المستثناة، التي أنصفت الإسلام – ما عدا من تبث حسن إسلامه منها – فإن إنصافهم واعتدالهم كان بسبب ماديتهم وكفرهم بالأديان، وذلك ما يؤكده مصطفى السباعي «وأكثر ما نجد إنصاف الإسلام ورسوله عند العلماء والأدباء الغربيين الذين تحللوا من سلطة ديانتهم،ونضرب لذلك مثلا كتاب (حضارة العرب) لمؤلفه جوستاف لوبون، فإنه أعظم كتاب ألفه الغربيون في إنصاف الإسلام وحضارتهم، هذا لأن جوستاف لوبون فيلسوف مادي لا يؤمن بالأديان قطعا»[1].

وقد انصب إنصافهم ومدحهم لبعض الأخلاق الإسلامية كالتعاون والإخاء بين المسلمين واحترام عقيدة الآخرين والمساواة بين الناس مهما اختلفت ألسنتهم وألوانهم.

ثالث: تعريف الاستشراق

الاستشراق حركة فكرية قديمة، كان يقصد بها في العصور الوسطى دراسة اللغة العربية والإسلام، ثم تغير مفهومه خاصة بعد ظهور النزعة الاستعمارية في القرن التاسع عشر للميلاد فأصبح يطلق على كل معرفة تتعلق بالشرق من حيث ديانته وعاداته وحضارته وتقاليده.

ولم يُعْترف بكلمة (الاستشراق) كمصطلح علمي إلا في سنة 1799 من قبل كل من فرنسا، إنجلترا، وفي سنة 1838م تم إدخالها إلى معجم الأكاديمية الفرنسية[2]، وللاستشراق عدة مفاهيم مختلفة.

1-المفهوم الأكاديمي

وهو المفهوم السائد عند علماء الغرب، وجاء تعريف كلمة الاستشراق في القاموس الفرنسي بأنه: «دراسة الشرق وشعوبه وحضارتهم»[3].

أما المستشرق الإيطالي أغناطيوس جودي فيرى بأن الاستشراق: «هو تعاطي دراسة الحضرات القديمة، والتمكن من تقدير العوامل المختلفة التي أثرت في تكوين تمدن القرون الوسطى والنهضة الحديثة»[4].

---

[1]-مصطفى السباعي: مرجع سابق، ص61.

[2]-أحمد سمايلوفيتش: فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر، القاهرة، دار الفكر العربي، (1418هـ-1998م)، ص26.

-Maxime Rodinson, La fascination de l'Islam, Paris, F.Maspero, 1980, P81.

-Le petit Robert , Op.Cit, P1323 .

[4]-محمد إبراهيم الفيومي: الاستشراق رسالة استعمار، دط، مصر، دار الفكر العربي، 1413هـ-1993م، ص145.

2-المفهوم العرقي :

الاستشراق أسلوب للتفكير يرتكز على التمييز الثقافي والعقلي والتاريخي والعرقي بين الشرق والغرب[1].

3-المفهوم الاستعماري:

يعتبر إدوارد سعيد من أوائل الباحثين الذين عرفوا الاستشراق من خلال ظاهرة الاستعمار، إذ يقول: «الاستشراق يتضمن الموقف التنفيذي السلطوي للاستعمار الأوروبي في القرن التاسع عشر للميلاد وأوائل القرن العشرين، أو هو أسلوب غربي للسيطرة على الشرق»[2].

أما الباحث فيرى أن الاستشراق عموما هو وسيلة استعملها الغرب للتقرب من الشرق والتعرف عليه بهدف ضربه في أسسه ومقوماته التي يراها عقبة في سبيل نشر مبادئه وقيمه وفلسفته. فهذا وليام جيفور بلجراف يقول: «عندما يختفي القرآن ومكة من بلاد العرب يسهل علينا أن ندفع المسلم في سبيل الحضارة»[3].

ويؤكد ذلك- مولوتوف- عندما أعلن في خطبة له قائلا: «لن تثبت الشيوعية في جمهوريات الاتحاد السوفياتي، ولن تنشر في الشرق إلا إذا أبعدنا أهله عن تلك الحجارة التي يعبدونها في الحجاز (الكعبة) الحجر الاسود، (رمي الجمرات) وإلا إذا محونا القرآن من الوجود، وإلا إذا قضينا عن الإسلام»[4].

ولم يحصل في تاريخ البشرية أن حضيت أمة من الأمم، أو حضارة من الحضارات بالعناية والاهتمام مثلما حضي به المسلمون والحضارة الإسلامية، ترى ما سر هذه العناية وهذا الاهتمام ؟ وما هي دوافعه ومنطلقاته ؟ ولماذا التركيز على الفكر الإسلامي دون غيره من المذاهب الفكرية التي عرفها الشرق ؟

---

(1)-محمد إبراهيم الفيومي: الاستشراق رسالة استعمار، مرجع سابق، ص145.

(2)-إدوارد سعيد، مرجع سابق، ص65.

(3)-عبد المتعال محمد الجبري: الاستشراق وجه للاستعمار الفكري، القاهرة، مكتبة وهبة، 1995، ص187.

(4)-المرجع نفسه، ص197.

المطلب الثاني: الدوافع والنشأة

أولا: الدوافع

لقد قامت الحركة الإستشراقية نتيجة عدة دوافع ومنطلقات متشابكة ومتداخلة في بعضها، منها الرئيسي والثانوي، ومنها الظاهر والخفي، ومنها المباشر وغير المباشر بحيث يصعب على الباحث فصلها عن بعضها البعض وترتيبها.

فأي الدوافع سترتب أولا؟ هل هو الدافع الديني؟ أم التاريخي؟ أم العلمي؟ كما أن هذه الدوافع تعتبر هي نفسها الأهداف، لأجل ذلك اكتفيت بالحديث عن الدوافع دون الأهداف تجنبا للتكرار، والى ذلك أشار المؤلف حبنكة الميداني حين رأى عدم الفصل بين الدوافع والأهداف باعتبار أن الدافع يمثل المحرض النفسي لاتخاذ الوسائل التي توصل إلى الأهداف الغائية من العمل[1].

إضافة إلى ما سبق، فقد تباينت الآراء حول تعداد الدوافع التي تحكمت في الدراسات الاستشراقية فمنهم من عدها ثلاثة[2] (دافع علمي صرف، فائدة اللغة العربية ، الدفاع عن النصرانية)، ومنهم من جعلها سبعة دوافع[3] (نفسية، تاريخية، اقتصادية، أيديولوجية، دينية، استعمارية وأخيرا علمية). أما الباحث فقد تبين له بعد الدراسة والاستقصاء أن للاستشراق خمسة دوافع:

1-الدافع التاريخ:

إن التغيير الجدري الطارئ الذي أحدثه الإسلام في نفسية الإنسان العربي، والنقلة الحضارية المفاجئة التي أحدثها في شبه الجزيرة وما حولها جعلت الغرب يقف مذهولا أمام هذه الظاهرة المعجزة. من أجل ذلك صوب الغرب أنظاره باتجاه الشرق الإسلامي لدراسة وبحث أسباب هذا التقدم والتفوق الذي فاق به عباقرة اليونان وفلاسفة الرومان، وقد تمثل أول اهتمام بالإسلام في الجهود الفردية لمجموعة من الرهبان أمثال الراهب الإنجليزي هرمان والراهب الفرنسي جربرت الذين قصدوا الأندلس لينهلوا من ينابيع العلم والمعرفة هناك، ثم

---

(1)- حبنكة الميداني أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها. التنشير -الاستشراق- الاستعمار، ط7، دمشق، دار القلم، ص125.

(2)- قاسم السامرائي: مرجع سابق، ص108.

(3)- أحمد سمايلوفيتش: مرجع سابق، ص40.

اتسعت دائرة الاهتمام بالفكر الإسلامي ليشمل البعثات الرسمية لأمـــراء أوروبـــا كالبعثـــة الفرنسية برئاسة الأميرة إليزابت ابنة خال لويس السادس ملك فرنسا والبعثـــة الإنجليزيـــة وعلى رأسها الأميرة دوبان ابنة الأمير جورج صاحب مقاطعة ويلز[1].

2-الدافع الديني:

تميزت نظرة الغرب المسيحي إلى الإسلام باتخاذ موقفيـــن، الموقـف الأول الأخـذ والتلقي عن الإسلام لأنه يمثل الجانب الأقوى والأعلم، الموقف الثاني مقاومة الدين الإسلامي والتصدي له كعقيدة معارضة ومناوئة لأصول عقيدته. وكان الرهبان أول المهتمين بدراســة الشرق الإسلامي، وقد كانوا يهدفون من وراء ذلك إلى استصلاح المسيحية والتبشير بـــالدين المسيحي.

-استصلاح المسيحية: من أهم نتائج الحروب الصليبية أنها دفعت بعض الغربيين إلى إعادة النظر في شروح كتبهم الدينية وتنقيتها مما علق بها من الشوائب بفعل رجال الديـــن الذين قاموا بوضع تشريعات لأجل مصلحتهم الاجتماعية والمادية مثل صكـــوك الغفـــران وحق الاعتراف المقدس لرجل الكنيسة. والمتصفح لهذه التشريعات يجد أنها «يجد أنها كانت تعني الحفاظ على وضع رجل الدين في الطبقة الاجتماعية وفي نفس الوقت ومن غير مـــا يشعرون وهي تحافظ على الكيان الاجتماعي لرجل الدين كانت من طريق آخر تلطخ سمعة الكنيسة»[2].

ولأجل تصحيح هذه الأوضاع قام بعض رجال الدين بحركة الإصلاح الدينـــي مثـــل "مارتن لوثر"[3] (Luther Martin)، الذي دعا إلى دراسة التوراة في لغتها الأولـــى وهـــي العبرية، ولن يتم ذلك إلا بدراسة اللغة العربية، لأن دراسة هذه الأخيرة يساعد على معرفـــة الكلمات العبرية[4].

---

[1]-محمد فتح الله الزيادي: مرجع سابق، ص46.

[2]-محمد إبراهيم الفيومي: رسالة في الحوار، ص21.

[3]-مارتن لوثر (1483-1546): زعيم حركة الإصلاح الديني ومؤسس المذهب البروتســـتنتي، دعا إلى رفـــض فكـــرة الكنيسة التي ترى بأن رجال الدين وسطاء بين الإنسان والله، ويرى بأن الحقيقة الدينية لا تقوم على السلطة المقدسة، وإنما على الإنجيل نفسه. (ب. بودين، م. روزنتال: مرجع سابق، ص413).

[4]-عبد المتعال محمد الجبري: مرجع سابق، ص82.

-**التبشير بالدين المسيحي:** إن التفوق العلمي والازدهار الذي عرفه المسلمون جعل الكثير من المسيحيين يتحولون من النصرانية إلى الإسلام، الأمر الذي أثار حفيظة الرهبان فقاموا بقيادة حركة لدراسة اللغة العربية وترجمة التراث الإسلامي بقصد تشويهه والتشكيك في أصوله، لكي يمهدوا الطريق لانتشار المسيحية في الشرق الإسلامي.

يقول عبد الحميد يويو: «إن تعامل الإستشراق / الغرب مع الشرق لم يكن الدافع إليه أول الأمر هوغزوه لإحتلاله والسيطرة على ثرواته، بل كان قبل ذلك كله من أجل المسيحية التي بدأت تضم حل في القلوب والكنائس»[1].

وفي عام 1536 قام الكاردينال فريديريك دي مدسيس وهو من الأسرة المالكة بإيطاليا بإنشاء مطبعة فلورنسا طبع فيها (18000) من الإنجيل باللغة العربية وأرسلها إلى البلاد الشرقية.

3-الدافع الاستعماري

يمثل الدافع الاستعماري المنعرج الخطير في العلاقات بين الشرق والغرب، إذ يعترف هذا الأخير بأن الإسلام هو العقبة الوحيدة التي تقف في طريق أطماعه وسيطرته على الشرق الإسلامي، فكان لا بد للغرب من القيام بدراسات وأبحاث للتعرف على هذا الشرق حتى تسهل عليه مهمة احتلاله وغزوه.

وقد تخصص في هذا المجال مجموعة من المستشرقين الذين مهدوا الطريق أمام حكوماتهم للاستيلاء على الشرق، واتبعوا لأجل ذلك عدة أساليب أهمها التشكيك في تراث المسلمين ومحاولة فصل المسلمين عن ماضيهم التاريخي ووصفهم إياه بالتاريخانية التي تعني عدم ملاءمة هذا التراث لعصرهم الحاضر وإحياء القوميات التاريخية كالبربرية في الجزائر والفرعونية في مصر.

ويربط عبد المتعالي الجبري بين الاستشراق والاستعمار قائلا: «لقد مضى الاستشراق والغزو الاستعماري في طريق واحدة، المستعمر يغزو البلاد والمستشرقون يغزون الفكر والتراث»[2].

---

[1]-عبد الحميد يويو: أصالة الاستشراق واستشراق الأصالة، وحدة المغرب، ع9، (1415هـ-1994م)، ص50.

[2]-عبد المتعال محمد الجبري: مرجع سابق، ص87.

كل ذلك تم في مرحلة أولى، أما في المرحلة الثانية فهي التمكين للاستعمار بعد استلائه على دول المشرق الإسلامي من أجل الحفاظ على بقائه وإستمراريته، وقد أكد المستشرق "م. ك. أكسنفلد" صاحب التقرير الخاص بالجانب الإعلامي في المؤتمر الاستعماري الألماني على وجوب ضم المقاصد السياسية والاقتصادية إلى الأعمال الأخلاقية والدينية في سياسة الاستعمار الألماني مستشهدا بقوله (شنكال) رئيس غرفة التجارة في (همبرج) «إن نمو ثروة الاستعمار متوقف على أهمية رجال الدين الذين يذهبون إلى المستعمرات، وأهم وسيلة للحصول على هذه الأهمية إدخال الدين المسيحي في البلاد المستعمرة »[1]. وهذا هو السبب الذي دفع بعض الباحثين إلى القول: «بأن الاستشراق قد في أول أمره على أكتاف المبشرين ثم اتصل بالاستعمار»[2].

وقد عمل هذا الفريق من المستشرقين في وزارات الخارجية والحربية مستشارين يبدون الرأي والنصيحة فكافأتهم حكوماتهم بالرعاية المادية والمعنوية.

يقول المستشرق رودي بارت: «ونحن جميعا المتمتعين بهذه النظم نعترف شاكرين بأن المجتمع ممتلأ في الحكومات والمجالس النيابية يضع تحت تصرفنا الإمكانيات اللازمة لإجراء بحوث الاستشراق، وللحفاظ على نشاطنا التعليمي في هذا المضمار»[3].

4-الدافع الاقتصادي

يعتبر الجانب الاقتصادي من الدوافع التي حملت الغرب على التعامل مع الشرق لأجل الحصول على موارده الطبيعية الخام والقضاء على صناعته المحلية، كي يجعل من بلدان الشرق سوقا استهلاكية لمنتجاته.

ولتسهيل مهمة الاتصال بالشرق الإسلامي طالب جمع من العلماء في سنة 1635 من المسؤولين في جامعة كامبردج بإنشاء كرسي للدراسات العربية الإسلامية «يضع المركز نصب عينيه خدمة مصالح الملك والدولة وذلك بالعمل من أجل ازدهار تجارتنا مع الأقطار

---

[1]-عبد المتعال محمد الجبري: مرجع سابق، ص87.

[2]-محمد المنهي: مرجع سابق، ص533.

[3]. المرجع نفسه.

الشرقية وتوسيع حدود الكنيسة – إذا شاء الله – في الوقت المناسب، ونشر هدي الدين المسيحي بين أولئك الذين لا يزالون يتخبطون في ظلمات الجهالة»[1].

5-الدافع السياسي

يعتبر الدافع السياسي امتدادا للدافع الاستعماري الذي توقف بحصول آخر دولة على استقلالها، فما زال رؤساء الدول وحكوماتها تستعين بالمستشرقين في رسم سياستها نحو البلاد الإسلامية.

وهؤلاء المستشرقون يتصلون بالبلاد الإسلامية عن طريق قنصليات الدول العربية وسفاراتها فهم على علم بكل ما يجري في تلك البلدان، وعلى ضوء دراساتهم وتقاريرهم تحاك المؤمرات، وتغير الحكومات، وتدبر الانقلابات. ويلاحظ إبراهيم النملة أن هؤلاء المستشارين لا يحملون مسمى الاستشراق بالضرورة، فهم خبراء بالمنطقة، وباحثون وعلماء متخصصون[2].

6-الدافع العلمي

هناك نفر من المستشرقين كتبوا عن الإسلام بدافع الفضولية وحب الإطلاع على حضارة وثقافة هذه الأمة، فكانت كتابتهم أكثر جدية وأقرب إلى الموضوعية لأنهم لم يتعمدوا التشويه والإساءة. ويصف الدكتور مصطفى السباعي حال هذه الفئة: «إن أبحاثهم المجردة عن الهوى لا تلقي رواجا، لا عند رجال الدين ولا عند رجال السياسة، ولا عند عامة الباحثين، ومن ثمة فهي لا تدر عليهم ربحا ولا مالا، ولهذا ندر وجود هذه الفئة في أوساط المستشرقين»[3].

هذه هي مجموعة الدوافع التي عجلت بظهور الاستشراق، وهي في الوقت نفسه تعبر عن القيمة والمكانة الكبرى التي يحتلها هذا التراث، الذي تسبب في نشوء فرع كامل من فروع المعرفة.

فمتى كانت هذه النشأة ؟ وأين وجدت ؟ وإلى من يرجع الفضل في تكوينها؟

---

[1]-عرفان عبد الحميد: المستشرقون والإسلام، ص9.

[2]-محمد فتح الله الزيادي، مرجع سابق، ص57-58.

[3]-مصطفى السباعي: مرجع سابق، ص19.

ثانيا: النشأة

إن الباحث في الاستشراق يجد صعوبة كبيرة في تحديد تاريخ معين يمكن اعتباره كبداية للاستشراق.

1- فهناك من الباحثين من أرجع بداية الاستشراق إلى زمن بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم.

2- والبعض يرى أن بداية الاستشراق يعود إلى فترة الفتوحات الإسلامية وبالتحديد إلى غزوة مؤتة السنة الثامنة للهجرة، أين تقابل المسلمون مع الرومان، ومن يومها يقول الأستاذ محمد حسين هيكل «وقف المسلمون والنصارى موقف خصومة سياسية»[1].

3- ورأي آخر يرى أن نشأة الاستشراق يعود إلى مرحلة الحروب الصليبية حين بدأ الاحتكاك بين الإسلام والنصرانية، وقد كان القادة العسكريين مصحوبين ببعض العلماء الذين درسوا اللغة العربية.

4- وقسم آخر ربط نشأة الاستشراق بسقوط الدولة العثمانية وتوجه الغرب إلى الشرق الإسلامي لأجل أطماعه الاقتصادية والاستعمارية وذلك في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن العشرين.

5- وفريق من الباحثين أرجع نشأة الاستشراق إلى فترة الإصلاح الديني في القرن السادس عشر للميلاد، ففي هذه الفترة اتجه بعض الغربيين إلى دراسة اللغة العربية والعبرية من أجل تصحيح المسيحية وتنقيتها من التفسيرات الخاطئة.

6-وأعتبر البعض أن سنة (1311-1312) هي بداية الاستشراق وهي السنة التي قضى فيها البابا "كليمنصن الخامس" في مجمع فينا بإنشاء كراسي للعربية والعبرية والسريانية في جامعات روما وباريس.

7- وقسم آخر جعل منتصف القرن التاسع عشر هو بداية الاستشراق بالمعنى العلمي ففي هذه المرحلة جمعت المخطوطات وقام المستشرقون بإصدار المجلات (كالمجلة الأسيوية 1820) التي تصدرها جمعية المستشرقين التي أنشأها الفرنسيون سنة 1787[2].

---

[1]-محمد حسين هيكل: حياة محمد، ط9، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، 1965، ص17.

[2]-مصطفى السباعي: مرجع سابق، ص28.

8- ورأي أخر يرى أن نشأة الاستشراق يعود إلى القرن الثامن للميلاد بالأندلس، التي كانت تمثل مركز إشعاع علمي ومعرفي، استقطب إليه الطلاب من كل الأقطار الأوروبية كفرنسا، إيطاليا، إنجلترا وألمانيا، يودون التعرف على ثقافة وإبداع هذا القادم الجديد.

مناقشة هذه الآراء:

بالنسبة للرأي الأول والثاني: فإن تلك الفترة تمثل ردود الأفعال التي واجهها الدين الإسلامي، سواء أثناء ظهوره مباشرة من طرف سكان مكة، أو بعد انتشاره من طرف الروم والصليبيين فهذه الردود هي ما يمكن اعتبارها البذرة الأولى أو الجذور الأولى للاستشراق.

والرأي الثالث والرابع: فإن الحروب الصليبية (1197–1295) وأطماع الغرب الاقتصادية والاستعمارية في الشرق الإسلامي في القرن الثامن عشر وأوائل القرن العشرين، لا يمثلان بدايات الاستشراق، بل هما دافعين (الدافع الديني – الدافع الاقتصادي) من الدوافع التي ساهمت في نشأة الاستشراق.

ويرى الدكتور نجيب العقيقي «بأن الحملات الصليبية ليست إلا نتيجة وقوف الغرب على ثقافة الشرق وفلسفته التي تناهض المسيحية»[1].

أما الرأي الخامس: الذي يرجع بداية الاستشراق إلى فترة الإصلاح الديني، فمن وقائع التاريخ تبين أن الاستشراق كان موجودا قبل هذه الفترة، لأن حركة الاحتجاج التي قام بها لوثر ضد نظام الكنيسة الفاسد، كانت في القرن السادس للميلاد (16م) في حين أن مؤتمر فيينا الكنيسي الذي دعا إلى إنشاء كراسي للعربية والعبرية والسريانية، وقد انعقد في سنة (1311–1312) أي في بداية القرن الرابع عشر الميلادي.

والرأي السادس : الذي أعتبر سنة (1311–1312) تاريخ انعقاد مؤتمر فيينا الكنيسي هي تاريخ نشأة الاستشراق، فإن هذا الأخير قد وجد قبل هذا التاريخ، والدليل على ذلك أنه في سنة (1126–1151) أنشأ رئيس أساقفة طليطلة مكتب المترجمين الذين نقلوا أمهات الكتب العربية في الرياضيات والفلك والطب والكيمياء والفلسفة وغيرها من المعارف إلى اللاتينية وفي سنة (1250) قرر مجمع طليطلة الإنفاق على ثمانية من الرهبان كانوا قد انقطعوا لدراسة العربية وصنف أحدهم معلم عربي إسباني (1230)[2].

---

(1) نجيب العقيقي: مرجع سابق، ج1، ص35.

(2) مرجع نفسه، ص90.

الرأي السابع : الذي أخر نشأة الاستشراق إلى منتصف القرن التاسع عشر.

أقول إن ما يهمنا في هذا المطلب هو معرفة نشأة الاستشراق بمعنى متى بدأ اتصال الغرب المسيحي بالشرق الإسلامي، ولا يعنينا نوع الأسلوب الذي أتبعه في هذه المرحلة أو تلك أو الاتجاه الذي سار عليه، سواء أكان الاتجاه اللاهوتي أو الاتجاه العدواني (الاستعماري) أو الاتجاه العلمي (الوقت الحاضر).

لذا فإن الطالب يميل إلى الرأي القائل بأن الاستشراق قد نشأ في القرن الثامن الميلادي بعد دخول المسلمين إلى الأندلس بفترة وجيزة، حيث انبهر الغرب بمنجزات المسلمين وبحضارتهم العملاقة.

إن وصف البعض للاستشراق على أنه نوع أو (فرع) من المعرفة أو العلم، يقتضي أن يكون الهدف من أبحاثه هو الكشف عن الحقائق وتوضيح ما أشكل منها على الفكر الإنساني. وإذا اعتبرنا أن النبوة في العقيدة الإسلامية من المواضيع التي ترتبط مباشرة بحياة الإنسان ومصيره في هذا العالم، أمكننا عدها من المواضيع الحية أو المتجددة التي تثير بين الحين الآخر نوعا من الجدل والنقاش بسبب التساؤلات التي يستدعيها الواقع الاجتماعي والثقافي. وتكون مهمة الاستشراق كعلم هو التحليل والفهم والتفسير من خلال الإجابة على تلك التساؤلات.

فما هي الخطوات التي اتبعها البحث الاستشراقي في عملية تحليله وتفسيره لظاهرة الوحي والنبوة؟ وكيف كانت الخطوات الأولى لهذهالعملية؟ وما هي الظروف والعوامل التي رافقت تلك البداية وأثرت في طريقة معالجتها لهذه الظاهرة؟

وإذا كانت تلك الطريقة أو المنهج قد عرف نقدا لاذعا من طرف مذهب الاستشراق العلمي، فما هي الطرق المنهجية الحديثة التي قدمها هذا المذهب كبديل عن المنهج التقليدي؟ وما هي المنطلقات التي ساهمت في إيجاد تلك المناهج؟ وهل وفقت هذه المناهج في الوصول إلى نتائج علمية صحيحة بأن كشفت عن حقائق أو أزاحت غموضا؟

المبحث الثاني: مذاهب المستشرقين في الدراسات الإسلامية.

المطلب الأول: مذهب الإستشراق التقليدي

أولا: تعريفه:

يعتبر المذهب التقليدي من أسوأ المذاهب الفكرية التي عرفها تاريخ البشرية بسبب الهدف الذي وجد من أجله، والمتمثل في العمل من أجل إذابة الآخر ومحوه من على وجه الأرض، الأمر الذي أثر سلبا على المنهج الذي سلكه وعلى النتائج التي توصل إليها أو أراد الوصول إليها.

ثانيا: عوامل ظهوره:

هناك عاملان حاسمان ساهما في ظهور مذهب الإستشراق التقليدي هما: الإعجاب بحضارة الإسلام والخوف من الإسلام.

1-الإعجاب بحضارة الإسلام:

أقام المسلمون الفاتحون في الأندلس نهضة علمية شاملة، جذبت أنظار الغرب إليها. فراحوا يبحثون عن السر في هذا التقدم والازدهار حتى قادتهم عملية البحث هذه إلى التعرف على الفكر الإسلامي ثم ترجمة مؤلفاته التي مهدت الطريق لنهضتهم الأوروبية.

وقد تكفل بهذه المهمة الصعبة والشاقة رجال الدين الأوروبيين أمثال الراهب الفرنسيان "جربردي أوراليان" الذي انتخب بابا لكنيسة روما باسم (سلفستر الثاني) والراهب "بطرس المحترم"[1] (Le vénérable Pierre) الذي ترجم القرآن الكريم وتبعه بالرد على مبادئه، والراهب الإنجليزي "روجر بيكون"[2] (Roger Bacon) الذي دعا إلى تعلم اللغة

---

[1]-بطرس المحترم (1092-1156م): راهب ولاهوتي فرنسي، سافر إلى إسبانيا في نهاية 1141هـ، وهناك اهتم بأحوال المسيحيين الذين كانوا يعيشون تحت حكم المسلمين في إسبانيا. أراد خدمة المسيحية من خلال قيامه بأول ترجمة للقرآن الكريم من العربية إلى اللاتينية، وبعد عودته من إسبانيا ألف كتابين في الرد على الإسلام الأول يتناول عن صحة الكتاب المقدس وعدم تعرضه لأي تحريف كما يذكر القرآن، والثاني تناول فيه الحديث عن النبوة في المسيحية والإسلام. (عبد الرحمن بدوي: موسوعة المستشرقين، مرجع سابق، ص110. نجيب العقيقي: مرجع سابق، ج1، ص112).

[2]-روجيه باكون (حوالي 1214-1294م): قصيس ومفكر إنجليزي، يعتبر رائدا للعلم التجريبي الحديث، أطلع على كتب ابن سينا وابن الهيثم، وعاب على أهل ملته إهمالهم لفوائد التجربة التي تسمّي المعرفة، من كتبه: "الكتاب الأدب" و"الكتاب الأصغر". (محمود يعقوبي، مرجع سابق، ص275. نجيب العقيقي: مرجع سابق، ج1، ص120. م. روزنتال ب.يودين: مرجع سابق، ص99).

العربية وتعلم الفلسفة والراهب الإيطالي "توما الأكويني"[1] (Thomas D'aquin, Saint) الذي نقل الصورة الدينية لقصة الإسراء والمعراج إلى الأدب اللاتيني.

2-الخوف من الإسلام:

ولدت مشاعر الإعجاب بالحضارة الإسلامية ومنجزاتها الخوف والرعب في نفوس رجال الكنيسة من القساوسة والرهبان، الذين كانوا يمثلون الطليعة في قائمة المستشرقين في العصور الوسطى. إذ يقول "مكسيم رودنسون"[2] (Maxime Rodinsom) كان المسلمون خطرا على الغرب قبل أن يصبحوا مشكلة، كما كانوا في نفس الوقت عامل اهتزاز شديد في بنيان الوحدة الروحية للغرب ونموذجا حضاريا يمتاز بتفوقه وبحركته الإبداعية المتسارعة وقدرته الهائلة على الانفتاح والاستيعاب إذ أنه وفي مواجهة تقدم هذا الأنموذج عبر الغرب عن شعور عام والاندهاش أمام الإسلام، وبدا لهم وكأنه خطر على المسيحية[3].

وقد حصر "أليكسي جورفسكي"[4] (Alexy Goravisky) السبب الذي دعا رجال الدين إلى الخوف من الإسلام في كونه «... وضع نفسه من ناحية أخرى في خندق مضاد متعارض تماما مع التقاليد الدينية المذكورة وذلك من خلال تعميم مطلق غير محدود لهذا التوحيد.»[5].

---

(1)-توما الإكويني (1225-1274): يعدّ من كبار اللاهوتيين الكثوليك، قام بمحاولة التوفيق بين الفلسفة المشائية والعقيدة المسيحية، من آثاره: "المجموعة اللاهوتية"، "المجموعة الفلسفية". (محمود يعقوبي: مرجع سابق، ص73).

(2)-ماكسيم رودنسون: مستشرق وعالم اجتماع فرنسي، ولقد في باريس 1915م، حائز على الدكتوراه في الآداب وعلى شهادة المدرسة الوطنية للغات الشرقية الحية، عرف بمواقفه العادلة الرافضة للاستعمار كموقفه العادل من القضية الفلسطينية ورفضه للعدوان الإسرائيلي، من آثاره: "محمد"، "الإسلام والرأسمالية"، "الإسلام والاشتراكية". (يحيى العقيقي: المستشرقون، ج1، ص359. (أبو عمران الشيخ: حوليات الجزائر، جامعة الجزائر، ع2، 1987-1988، ص73).

(3)-

(4)-أليكسي جورافسكي: مستشرق روسي، اهتم بدراسة العلاقات الثقافية والحضارية بين الأديان والشعوب، ولا سيما بين الثقافتين الشرقية والغربية. من مؤلفاته دراسة حول نشوء إيديولوجية القومية العربية ودور الأقليات المسيحية في المشرق العربي. (أليكس جورافسكي: الإسلام والمسيحية، ص237).

(5)-أليكسي جورافيكسي: الإسلام والمسيحية، ترجمة: خلف محمد الجراد، دط، الكويت، عالم المعرفة، نوفمبر 1996، ص39.

ثالثا: مميزات مذهب الاستشراق التقليدي

كثيرة هي المميزات التي وسمت هذا المذهب، وإننا لنجيزها فيما يلي:

- إن مستشرقي هذا المذهب غلبت عليهم الصفة الدينية، حيث كان غالبيتهم من اليهود والنصارى من فئة الرهبان والقساوسة، وقد لازمت هذه الصفة الفكر الإستشراقي الذي لم يستطع التخلص منها حتى الآن.

- جل كتابتهم تمحورت حول شخصية وسيرة (النبي محمد) ﷺ، باعتباره الناقل المميز للوحي الرباني، وعن طريق الوحي تم التعرف على العناصر البنيوية المكونة للدين الإسلامي، وهي العقائد والأحكام والشرائع.

وقد أدرك المستشرقون ومن ورائهم الكنيسة أن النيل من الإسلام لن يتم إلا بالنيل من محمد ﷺ، رسوله وحامل رسالته. حيث وصفوه بأبشع الأوصاف التي لا تليق أن يوصف بها إنسان عادي فما بالك إن كان هذا الإنسان نبي مرسل، من ذلك قولهم أن النبي محمد ﷺ، نبيا مزيفا تدرب على استعمال الأكاذيب والأضاليل أورجلا ساحرا معاد للمسيح، ومناهضا لأسس عقيدة التثليث أو كاردينالا كاثوليكيا تمرد على البابا، اعتقادا منهم أن المسيحية هي الرسالة الخاتمة ولا نبوة بعد المسيح. وجاء في موسوعة(لاروس) الفرنسية خلال العرض لأراء كتب المسيحية إلى النصف الأول من القرن التاسع عشر ما يلي: «وبقي محمد مع ذلك ساحرا ممعنا في فساد الخلق لصا نياقا كردينالا لم ينجح في الوصول إلى كرسي البابوية فأخترع دينا جديدا لينتقم من زملائه»[1].

ويقول إيميل درمنغام (Emille Dermenghem)[2] في كتابه "حياة محمد": «لما نشبت الحرب بين الإسلام والمسيحية اتسعت هوة الخلاف وسوء الفهم بطبيعة الحال، وازدادت حدة ويجب أن يعترف الإنسان بأن الغربيين كانوا السابقين إلى أشد الخلاف، فمن

---

(1) محمد حسين هيكل : حياة محمد، ص549-550.

(2) إميل درمنغام: مستشرق فرنسي، يعدّ من المستشرقين المنصفين، من آثاره: "حياة محمد" الذي يعتبر أحسن ما صنفه مستشرق على النبي سنة 1929، "محمد والسنة الإسلامية" سنة 1955. نجيب العقيقي: المستشرقون، ج1، ص348.

البزنطيين من أو قروا الإسلام احتقارا من غير أن يكلفوا أنفسهم مؤونة دراسته، ولم يحارب الكتاب النظامون مسلمي الأندلس إلا بأسخف المثالب، فقد زعموا أن محمدا لص نياق وزعموه متهالكا على اللهو وزعموه ساحرا وزعموه رئيس عصابة من قطاع الطرق. بل زعموه قسا رومانيا مغيضا محنقا إذ لم ينتخب لكرسي البابوية، وحسبه بعضهم إلها زائفا يقرب له عباده الضحايا البشرية»[1].

- سيطرة التفكير المسيحي : تمكنت الكنيسة الكاثولكية من التأثير على الفكر الأوروبي في العصور الوسطى بفضل المكانة الاجتماعية التي حضيت بها آنذاك، إذ كانت تصنف مع الطبقة الأولى (مع طبقة الفرسان)[2] في السلم الاجتماعي للمجتمع الأوروبي، هذا المجتمع الذي كان يعاني الفقر والتخلف والجهل وكان جوهر التفكير المسيحي في تلك الفترة هو أولا العمل على حماية المسيحيين وثانيا العمل على تنصير المسلمين.

أولا: العمل على حماية المسيحيين من التأثر والتعلق بالإسلام وقد نقل لنا المستشرق "أليكسي جورافسكي" نصا يصور لنا مدى القلق الذي سببه انفتاح الأوروبيين على الحضارة الإسلامية بالنسبة لرجال الكنيسة يقول: «اشتكى ألفارا أسقف قرطبة من كون المسيحيين الشباب يأخذون من الآداب العربية أكثر مما يأخذونه من اللاتينية، ويقرءون الأشعار والحكايات العربية ويدرسون مؤلفات الفلسفة واللاهوتيين العرب، بينما يتجاهلون تماما التعليمات والشروحات اللاتينية على الكتاب المقدس»[3].

وقد نظرت الكنيسة إلى الإسلام على أنه كفر وإلحاد بسبب الاعتقاد السائد في المسيحية وهو كونها الرسالة الخاتمة، وأن المسيح هو أخر الأنبياء فلا نبوة بعد المسيح. فهي «تعتقد أن الهدف من إرسال الأنبياء وعقائدهم منذ بدء الخليقة ليس سوى تمهيد تدريجي لأجل بلوغ ذروة التاريخ الكوني المتمثل بـ "التجسيد الإلهي" في شخص المسيح»[4].

---

(1) -إميل درمنغام: حياة محمد، تر: عادل زعيتر، ط2، د.ب، دار إحياء الكتب العربية، 1949، ص75.

(2) عبد الفتاح عاشور: حضارة ونظم أوربا في العصور الوسطى، د.ط، بيروت، دار النهضة العربية، 1976، ص 401.

(3) -أليكسي جورافسكي: مرجع سابق، ص45.

(4) المرجع نفسه، ص69.

ثانيا: العمل على تنصير المسلمين، وهنا يلتقي الاستشراق مع التبشير ليعملا سويا وجنبا إلى جنب من أجل غاية واحدة هي تنصير المسلمين فقد أدرك الغرب المسيحي أن ما فقده من ممتلكات مسيحية في بلاد الشرق ككنيسة القيامة في فلسطين وكنيسة الإسكندرية وكنيسة أنطاكية من جراء الحروب ضد المسلمين والتي كانت آخرها الحروب الصليبية. يمكن استعادته عن طريق آخر دون حروب وبغير مواجهات عسكرية.

وقد أعلن "روجر بيكون" «أن التنصير هو الطريقة الوحيدة التي يمكن بها توسيع العالم المسيحي "على حساب العالم الإسلامي" ولبلوغ هذا الغرض يضع ثلاثة شروط هي :

1-معرفة اللغات الإسلامية؛

2-دراسة أنواع الكفر وتمييز بعضها عن بعض (يعني دراسة الأديان)؛

3-دراسة الحجج المضادة حتى يمكن دحضها»[1].

رابعا: المنهج المتبع

وبخصوص المنهج وصّف المذهب الاستشراقي التقليدي المنهج التاريخي في دراسة الظاهرة، حيث قاموا بجمع المعلومات والبيانات حول الموضوع المدروس وهو الإسلام أو تاريخ الإسلام. ولكنهم أثناء عملية التحليل والتفسير لم يستعملوا كل أدوات المنهج التاريخي، وهي الملاحظة والمقابلة والاستبيان. وإنما اكتفوا بأداة الملاحظة ليفسحوا المجال بعد ذلك لتحليلاتهم الخطيرة وتفسيراتهم المغرضة مستخدمين أدوات لا علاقة لها بالبحث العلمي الموضوعي من قريب أو بعيد إستعملوها خصيصا في دراسة الإسلام، وهي الشروح الآثم والتأويل الظالم والكذب الفاضح.

لقد ابتكر مذهب الاستشراق التقليدي منهجا خاصا به لأجل تحقيق طموحاته اللامشروعة وأهدافه التبشيرية ولا يعنيه البحث عن حقائق الإسلام أو تبيانها أو حتى محاولة معرفتها.

وعن ذلك يقول الدكتور "حسن الهراوي": «أما القسم الأول من الإسلام (القرآن والحديث وحياة الرسول) فهو بيت القصيد ولا يتصدى له كل المستشرقين والذين يتصدون له

---

[1]-محمد عبد الله الشرقاوي: الاستشراق دراسات تحليلية تقويمية، دط، القاهرة، كلية دار العلوم، 1992، ص41.

ترى كلامهم مملوءا بالتشكيك والاستنتاج الخاطئ والغمز واللمز، أن يكيلوا التهم جزافا ويرمون الدين الإسلامي بما شاءت عقائدهم الخاصة وفائدتهم المادية»[1].

خامسا: آثار مذهب الاستشراق التقليدي

لقد أنتج المذهب الاستشراق التقليدي في دراسة الإسلام ثنائية ضدية خالدة استطاع تثبيتها في المخيلة الغربية، بحيث لم يسلم منها حتى المستشرقين المجددين بالرغم من نزعتهم العلمية. يقول "جوستاف لوبون" «لقد تراكمت الأوهام الموروثة المتسلطة علينا والنقمة على الإسلام بسبب الحروب الصليبية، واستيلاء المسلمين على الآستانة، وقوة تأثير مدنيتهم السامية الساحقة حتى أصبحت تلك النقمة جزءا من نظامنا وكانت تلك الأوهام متأصلة فينا...»[2].

هذه الثنائية هي العالم الإسلامي والعالم الغربي المسيحي وقد عانى من هذه الثنائية كلا الطرفين فبالنسبة للعالم الإسلامي فقد أصدر الفكر الإستشراقي بشأنه أحكاما جائرة وظالمة صورت الإنسان العربي المسلم بأبشع الصور، فهو متوحش، سفاك للدماء، متخلف. ولا زال الغرب ينظر إلينا من خلال هذه الصورة إلى الآن.

أما بالنسبة للإنسان الغربي فإن الصورة التي قدمها له الاستشراق عن الإسلام ونبيه وعن المسلمين قد تمكنت من حرمانه من معرفة الحق والاهتداء إلى الطريق المستقيم.

وربما لو كان قد تعرف على الإسلام من خلال مصادره الحقيقية (القرآن الكريم والسنة الشريفة بالإضافة إلى مؤلفات علماء الإسلام) لنظر الغرب إلى الإسلام بنظرة أخرى مغايرة تماما. ولكان للعالم الذي نحيا فيه الآن شكلا آخر بدلا من هذا العالم الذي إنحدر فيه الإنسان من الإنسانية إلى ما دون الحيوانية قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾[3].

---

[1]-محمد إبراهيم الفيومي: الاستشراق رسالة استعمار،دط، القاهرة، دار الفكر العربي، (1413هـ-1993م)، ص148.

[2]-جوستاف لوبون: مرجع سابق، ص50.

[3]-سورة الأعراف، الآية: 179.

المطلب الثاني: مذهب الاستشراق الاستعلائي

أولا: تعريفه

هو مذهب ميزته الرؤية الاستعلائية لشعوب الشرق عامة والعرب والمسلمين خاصة بعد تبنيه للنظرية العرقية والتي كانت سببا في إنتاج المذهب الاستعماري.

ثانيا: عوامل ظهوره

1-الحروب الصليبية :

بغض النظر عن الهزيمة النكراء التي لحقت بالغرب المسيحي، من جراء الحروب الصليبية، فقد استفاد من هذه الحروب بطريق أخر كما عبر عن ذلك صبحي الصالح بقوله: «ومن العجيب أن قد كان لتلك الحروب الصليبية -على قبحها وشؤمها- نتائج إيجابية طيبة في توجيه الفكر المسيحي نحو تعلم الدعوى التبشيرية السلمية عن طريق الحجة والإقناع»[1] فمكوثه في بلاد الشرق مدة قرن من الزمن تقريبا (98 سنة) مكنته من الاطلاع على واقع بلاد الشرق آنذاك، فرأى النعيم والخير والرقي والازدهار الذي يعيش فيه المسلمون، ثم نظر إلى واقع بلاد الغرب فرأى ما يعيش فيه الأوروبيون من شقاء وتخلف وجهل وظلام. ومن ثمة أقتنع الغرب عندئذ بضرورة التوجه إلى الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي للاغتراف من منابعه في سبيل الوصول إلى المجد الذي بلغه المسلمون.

ويؤكد الباحثان شوقي عطاء الله الجمل، وعبد الله عبد الرزاق إبراهيم أن الحروب الصليبية أدت إلى الاحتكاك الحضاري الذي أدى بدوره إلى أن أستيقظ الأوروبيون من سباتهم، وتفتحت عيونهم على الحضارة العربية العملاقة وبدأت في أوروبا نهضة يطلق عليها البعض تعبير النهضة الوسيطة[2].

وفي سنة (1311) انعقد مجمع فينا الكنيسي برئاسة البابا "كليمانص الخامس" دعى فيه إلى إنشاء كراسي لتعليم اللغة العربية في كل من باريس وروما وبرلين حتى يتمكن الأوروبيون من الإطلاع على مؤلفات الفكر الإسلامي في مختلف العلوم والفنون لهضمها ثم

---

(1)-صبحي الصالح: الإسلام ومستقبل الحضارة، ط2، بيروت، دار الشورى، دمشق، دار قتيبة، 1990، ص240.

(2)-شوقي عطاء الله الجمل، عبد الله عبد الرزاق إبراهيم: تاريخ أوروبا الحديثة والمعاصرة، د ط، القاهرة، دار الثقافة، 1995، ص8.

ترجمتها، وقد كان هذا العمل الذي قام به المستشرقون من البواعث التي ساعدت على ظهور النهضة الأوروبية في القرن الخامس عشر الميلادي.

2-النهضة الأوروبية

إن اكتشاف أوروبا للفكر الإسلامي في القرون الوسطى مهد لها الطريق إلى بناء نهضتها منذ القرن 15 م. «فقد كان ما نقله المستشرقون عن العرب المحور الذي تحركت حوله الأفكار التي نشأت عنها حركة النهضة في أوروبا منذ أواخر القرن الخامس عشر»[1]. ويؤكد المؤرخ الأمريكي "داكوبرت روفس" «أن ما يسمى بالنهضة في أوروبا لم تكن في الواقع أكثر من اقتباس الثروة الحضارية لقرطبة وغرناطة وطليطلة ونقلها إلى أوروبا»[2]. ومن مظاهر النهضة الأوروبية نشأة المعاهد والجامعات، ففي نهاية العصور الوسطى بلغ عدد الجامعات الأوروبية نحو ثمانين جامعة على الأقل[3].

ثالثا: مميزاته

تميز مذهب الاستشراق الاستعلائي بجملة من المميزات كان لها الأثر الفعال في ما يعانيه العالم الإسلامي في العصر الحاضر.

1-التخلص من التبعية للكنيسة

تخلص الفكر الإستشراقي من التبعية للكنيسة بفضل الثورة الأوربية التي نجحت في تحطيم أغلال الكنيسة التي كبلت العقل الأوروبي وتسببت في شقائه وتعاسته لعدة قرون. غير أن هذا التحرر لم يدم طويلا، ليجد الفكر الإستشراقي نفسه معبرا عن نظرة جديدة هي نظرة الاستعلاء والتمييز بين الشعوب والأجناس، ولا شيء يمنعه من تبني تلك النظرة والعمل على الترويج لها، طالما أن الاستشراق في حد ذاته يمثل جزء من الحضارة الغربية.

2-التأثر بالنزعة الغربية

سبق وأن ذكرنا بأن نظام الكنيسة الفاسد هو الذي دفع بالعقل الأوروبي إلى أن يثور على الكنيسة ويكفر بتعاليمها، الأمر الذي تسبب في إحداث القطيعة بين الكنيسة والعقل أو

---

[1]-عبد المتعال محمد الجبري: مرجع سابق، ص41.

[2]-قاسم السامرائي: مرجع سابق، ص32.

[3]-سعيد عبد الفتاح عاشور، مرجع سابق، ص34.

بين الدين والعقل. يقول محمد الفيومي «فما استطاعت الثورة حينئذ أن تفرق بين الدين ورجال الدين، وأخذت بوجهة نظر الكنيسة وهي أن الدين هو رجل الدين، هذه الرؤية حلول رجل الدين من خلال تربية رجعية أن يعلمها للشعب أي أن الدين هو رجل الدين، وان طبقة رجل الدين هي الطبقة المعصومة، فقامت الثورة واستبعدت رجل الكنيسة مع الدين»[1].

وقد استعاضت أوروبا عن دين الكنيسة بدين جديد هو العقل الذي أصبح هو المهيمن على الشؤون الحضارية.

كما عرفت الساحة الفكرية توجهات إلحادية وعلمانية منذ عصر الأنوار والثورة الفرنسية، كان لها بعض الأثر على الفكر الإستشراقي حيث نلاحظ بعض التراجع للاتجاه اللاهوتي الذي سيطر على مذهب الاستشراق التقليدي و«في هذه المرحلة (من عصر النهضة وحتى نهاية القرن 18) أثرت في مفهوم الاستشراق عدة عوامل أهمها النزعة الإنسانية التي سادت في عصر النهضة وحركة التنوير (النزعة العقلية) فأدت هاتان النزعتان إلى دراسات للشرق الإسلامي أكثر موضوعية»[2]. وهذا لا ينفي وجود مستشرقين لا زالوا يرددون أفكار وأحكام القرون الوسطى المتعلقة بالإسلام والمسلمين.

3-التبعية للنزعة الاستعمارية

ظهرت النزعة الاستعمارية كنتيجة لتلك النظرة العرقية التي تقضي بوجود نوعين من الأجناس، جنس آري يمتاز بالذكاء والفطنة والقدرة على الاستنباط والاستنتاج، وجنس سامي ويضم الشعوب الشرقية، يمتاز بالتأمل وبالتفكير الجزئي، وعدم القدرة على الاستنباط والاستنتاج. «وهذه النظرة للشرق وأهله واضحة وهي صورة معبرة تماما لما حرص الاستعمار الغربي على الترويج له وهو فوقية الغرب في مقابل الدونية الشرقية في ضوء نظرية (العرق) التي ابتدعتها وروجت لها بالرغم من مخالفتها لمنطق العقل والعلم»[3].

وقد استغل المستشرقون الأوضاع التي آلت إليها البلاد الإسلامية بعد أن ودعت عهود الازدهار الحضاري لتكريس أحكام "رينان" حول عجز العرب والمسلمين، وبالتالي افتقارهم

---

(1)-محمد إبراهيم الفيومي: رسالة في الحوار الفكري، مرجع سابق، ص21.

(2)-عبد الرحمن الصمدي: الاستشراق حركة فكرية هدامة، الزميل، بيروت، ع46، أكتوبر، 1995، ص20.

(3)-محمد إبراهيم الفيومي: الاستشراق رسالة استعمار، مرجع سابق، ص233.

للغير وهذا من شأنه أن يزعزع ثقة المسلم بنفسه، ويشككه في دينه كمنهج ونظام صالح للحياة العصرية الجديدة.

كما قام المستشرقون ضمن هذا المذهب بالعمل من أجل إضفاء الطابع التبريري للغزو الاستعماري أمثال "مونج" ورجاله، و"مارسيل" و"مولكوفسكي" والبارون دقوت. فهذا نابليون وبالاعتماد على دراسات المستشرقين يخاطب المسلمين في مصر ويقول لهم بأن مجيئه لغز ومصر هو استجابة لأمر إلهي وأنه قضاء وقدر.

حيث يقول في بيان العفو الذي أصدره عقب ثورة القاهرة الأولى سنة 1798: «أيها العلماء والإشراف، أعلموا أمتكم ومعاشر رعيتكم بأن الذي يعاديني ويخاصمني إنما خصامه في ضلال عقله وفساد فكره، ولا ينجو من بين يدي الله لمعارضته لمقادير الله سبحانه وتعالى. والعاقل يعرف أن ما فعلناه بتقدير الله تعالى وإرادته وقضائه. وأن الله قدر في الأزل أني أجيء من الغرب إلى أرض مصر لهلاك الذين ظلموا فيها وإجراء الأمر الذي أمرت به ولا يشك العاقل أن هذا كله بتقدير الله وإرادته وقضائه»[1].

4-بروز الصلة الوثيقة بين الاستشراق والتبشير

حيث أنشأ الكاردينال "فريديريك دي مرسيس" وهو من الأسرة المالكة بإيطاليا مطبعة في فلورنسا سنة 1536 طبع فيها 18000 نسخة من الإنجيل بالعربية، وأرسلها إلى بلاد الشرق[2] ويرى الدكتور قاسم السمرائي «بأن الاستشراق الفعلي بدأ تبشيريا محضا واستمر بحمل هذه السمات عند الكثير من المستشرقين، ومن قبلهم من المبشرين حتى اليوم»[3].

5-تقليص الدور السياسي والاجتماعي للدين الإسلامي

ركز المستشرقون ضمن مذهب الاستشراق الاستعلائي في دراستهم للإسلام على بعض القضايا التي تخدم مصالحه السياسية والاقتصادية مع الإبقاء على الركن الثابت وهو

---

[1]- محمد عبد الله الشرقاوي: الاستشراق –دراسات تحليلية تقويمية-، مرجع سابق، ص70.

[2]-عبد المتعال محمد الجبري: مرجع سابق، ص81.

[3]-قاسم السامرائي: مرجع سابق، ص17.

النبي ﷺ وحياته. مثل قضية الجهاد، الذي درسوه على أنه فكرة مرحلية ارتبطت بزمن الرسول ﷺ وبزمن صحابته رضوان الله عليهم.

وقضية ابعاد الإسلام عن حياة المسلمين بتقليص دوره الاجتماعي والسياسي وحصره في الزوايا والمساجد محاكاة للمسيحية في بلدانهم الغربية[1].

ولكن ما فعلوه بالمسيحية كان نتيجة سيئة لمقدمات سيئة. فقد فعل رجال الدين والكنيسة بالمسيحية ما يستوجب النفور منها والابتعاد عنها. حيث أعطت لنفسها صلاحية التشريع واتخاذ القرارات التي لم ينص عليها الكتاب المقدس وما فعلت ذلك إلا حفاظا على مكانتها الاجتماعية وعلى نفوذها السياسي كقانون بيع صكوك الغفران، وقانون حق الاعتراف المقدس لرجل الكنيسة.

لقد حاول الفكر الإستشراقي الاستعلائي وبدافع أفكار وأحكام الاستشراق التقليدي أن ينقل الرؤية الغربية للدين إذ يريد تطبيق نفس الحكم الذي طبقه على المسيحية، يريد أن يطبقه على دين الإسلام مع أن طبيعة الإسلام تأبى ذلك. وفي هذا الصدد يقول المستشرق "غابرييلي" «إن الاستشراق أخذ الجوانب المتفرعة عن عصر التنوير والرومنتيكية في أوروبا ثم عن عصر الوضعية المادية التاريخية وأن الاستشراق حين خرج من أرضه ونزل الأرض الأجنبية يعني الشرق حمل معه رؤيته الخاصة للحضارة والتاريخ والسياسة والدين والمجتمع والشعر وما إلى ذلك»[2].

رابعا: المنهج المتبع

أما المنهج الذي طغى على هذا المذهب، فهو المنهج التشكيكي لأنه يريد تشكيك المسلمين في دينهم وتراثهم وعاداتهم، حتى يتسنى له فرض رؤيته الخاصة للدين والمجتمع والسياسة.

---

(1) محمد البهي: مرجع سابق، ص63-64.

- محمد إبراهيم الفيومي: رسالة في الحوار بين الإسلام والمسيحية، مرجع سابق، ص50.

(2) [illegible] الاستشراق بين آفاق الثقافة والتراث، دين الإسلام، العدد المتحد، 28 ديسمبر 2000، ص 119.

ولا يكتفي معظم المستشرقون بما يقوم به المؤرخ من وصف وفهم للظاهرة التي هم بصدد دراستها، وإنما يتعدون ذلك إلى الطعن في أسس المجتمعات التي يدرسونها عن طريق إصدار بعض الأحكام عليها[1].

خامسا: آثار مذهب الاستشراق الاستعلائي

ويمكن حصرها فيما يلي:

- تمكن مذهب الاستشراق الاستعلائي من إنشاء قاعدة فكرية لـــه فـــي البـــلاد العربيـــة والإسلامية تتمثل في بعض العقول العربية التي شكلها وصاغها وفق قيمـــه ومنظومتـــه الغربية، وقد تم له ذلك بفضل الخطابات التي أنتجها حول الإسلام والمسلمين والتي كانت تسير في اتجاه أن تمسك المسلمين بالإسلام هو بسبب انحطاطهم وتخلفهم عـــن اللحـــاق بركب الحضارة الغربية وأن المدنية التي تعيشها أوروبا الآن لم تحصل عليها إلا بعدمـــا تخلصت من الدين وأبعدته عن مجالات الحياة كليا[2].

وقد ساهمت تلك العقول العربية في تأكيد بعض الأفكار الغربية حول الإسلام وفـــي تحريف بعض حقائقه. كما فعل ذلك عميد الأدب العربي طه حسين الذي أنكر نبوة إبراهيـــم وإسماعيل عليهما السلام كما أنكر رحلة إبراهيم إلى جزيرة العرب وبناء الكعبة مع إسماعيل وقد فعل طه حسين ذلك ليثبت الصلة بين الإسلام واليهودية. يقول: «للتوراة أن تحدثنا عـــن إبراهيم وإسماعيل وللقرآن أن يحدثنا عنهما أيضا ولكن ورود هذين الاسمين فـــي التـــوراة والقرآن لا يكفي لإثبات وجودهما التاريخي فضلا عن إثبات هذه القضية التي تحدثنا بـــهجرة إسماعيل بن إبراهيم إلى مكة ونشأة العرب المستعربة ونحن مضطرين أن نرى فـــي هـــذه القصة نوعا من الحيلة في إثبات الصلة بين اليهود والعرب من جهة وبين الإسلام واليـــهود والقرآن والتوراة من جهة أخرى»[3]. وعلي عبد الرازق في كتاب (الإسلام وأصول الحكـم)

---

[1]-بنسالم حميش: الاستشراق في أفق انسداده، ط1، الرياض، منشورات المجلس القومي للثقافة، 1991، ص50.

[2]-أمثال: إسماعيل مظهر، حسين فوزي، علي عبد الرازق، أحمد لطفي السيد، طه حسين، خالد محمد خـــالد. (انظـــر: أحمد محمد حاد عبد الرازق: فلسفة المشروع الحضاري بين الإحياء الإسلامي والتحديـــث الغـــربي، الولايـــات المتحـــدة الأمريكية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، (1416-1995)، ج2، ص146.

[3]-أنور الجندي: طه حسين وفكره في ضوء الإسلام، ط1، بيروت، دار الرائد العربي، 1984، ص65.

حين أدعى أن شريعة الجهاد خصيصة من خصائص الزعامة النبوية موقوتة بوقتها وظروفها ولدى فقد انتهى أمر الجهاد بوفاة صاحب الزعامة[1].

- تسبب مذهب الاستشراق الاستعلائي في ظهور توجه جديد لدى بعض المستشرقين في العصر الحديث وهو ما عرف بالنقد الذاتي للاستشراق، وهي محاولات أراد من خلالها أصحابها التخلص من الاستشراق التقليدي بكل توجهاته وميولاته والتوجه لدراسة الشرق لا بوصفهم دعاة لأفكار الغرب أو حملة لمفاهيمه وقيمه يريدون حمل الشرق على اعتناقها والعمل بها، وإنما يضعون في الحساب أن هذا الشرق قد شهد فيما مضى ميلاد حضارة هي من أرقى الحضارات التي عرفتها البشرية ويقرون بذلك[2]. كما فعل جوستاف لوبون في دراسته لحضارة الإسلام، إذ يقول: «إن أوروبا مدينة للعرب بحضارتها ولا يمكن إدراك أهمية شأن العرب في الغرب إلا بتصور حال أوروبا حينما أدخل العرب الحضارة إليها»[3].

وقد تنبه هؤلاء المستشرقون إلى أن التباين والاختلاف في الحضارات حقيقة واقعة لا محيد عنها. «فالحضارات يختلف بعضها عن بعض بفعل التاريخ واللغة والتقافة والتقاليد والأكثر أهمية عامل الدين. فأصحاب الحضارات المختلفة يعتنقون معتقدات مختلفة عن العلاقة بين الله والإنسان وبين الفرد والجماعة وبين المواطنين والدولة وبين الآباء والأبناء و بين الزوج والزوجة... إلخ»[4].

ولقد لخص لنا بنسالم حميّش أهم الانتقادات التي وجهت إلى الفكر الإستشراقي التقليدي فيما يلي:

- «أن شيوخ الاستشراق في الغرب اعتزموا أن يكونوا (Essentialistes) وأخذوا على عاتقهم شرح كل جوانب التقافة والمجتمعات الإسلامية من زاوية تنظر إلى الإسلام على انه ذو طبيعة أحادية جامدة وأن جموده قد أثر على المجتمعات التي يسيطر عليها.

---

[1]-سعد الدين السيد صالح: الأساليب الحديثة في مواجهة الإسلام، مكتبة وهاب، 1990، ص100

[2]-مراد هوفمان: الإسلام كبديل، ط1، د.ب، مؤسسة بافاريا للنشر، 1993، ص213.

[3]-جوستاف لوبون: مرجع سابق، ص675.

[4]-كمال لاشين: آفاق الثقافة والتراث، مرجع سابق، ص120.

- أن مشيخة الاستشراق في الغرب قد حركتها في دراستها عن الإسلام الدوافع السياسية في مرحلة السيطرة الأوروبية على العالم وقد أخذ الاستشراق على عاتقه مهمة تبرير السيطرة الغربية في المجتمعات الإسلامية وذلك عن طريق خلق مجتمعات راكدة جامدة»[1].

المطلب الثالث: مذهب الإستشراق العلمي :

أولا: تعريفه

سمي بمذهب الإستشراق العلمي بسبب توجهه النقدي الذاتي وبسبب التطور التي عرفته مناهج البحث العلمي كعلم التاريخ مثلا فلم يعد ذلك العلم يعتمد على مجرد السرد لحوادث الماضي وإنما أصبح يعتمد على مناهج علمية حديثة، فظهرت المدارس في النقد التاريخي العام على أسس علمية وأصبحت الوثيقة التاريخية تمر بمراحل عدة من تثبيت صحتها[2].

ثانيا: عوامل ظهوره

1-استقلال معظم البلدان العربية:

إن موجة التحرر والاستقلال التي اجتاحت معظم البلدان العربية والإسلامية أنهت مهام العديد من المستشرقين الذين كانوا يعملون جواسيس ومستشارين بوزارة الخارجية لدى حكوماتهم الاستعمارية.

2-تصدع المحورية الأوروبية

إن استقلال تلك البلدان العربية والإسلامية والتي وصفت من قبل المستشرقين والمستعمرين على حد سواء بالجمود والتخلف والضعف أدى إلى تصدع المحورية الأوروبية بحيث بدا واضحا أن كل شعب له الحق في الاستقلال، وفي تقرير مصيره وأنه ليس في حاجة إلى وصاية من أحد.

---

[1] هشام جعيط: مرجع سابق، ص80.

[2] -عبد الرزاق إبراهيم، شوقي عطاء الله الجمل: مرجع سابق، ص15.

هذا الوضع العالمي الجديد أحرج الاستشراق التقليدي الذي تفنن في تمثيل أيديولوجية الغازي المستعمر بشتى الأساليب، بل تسبب في حدوث (أزمة نسق) الاستشراق التقليدي الذي يمثل السلطة المعرفية في نسيج المحورية الأوروبية وفي سيرها[1].

3-تطور العلوم الإنسانية

إن الاستشراق بمذهبيه التقليدي والاستعلائي قد أثبت فشله وعجزه عن الإحاطة والتفسير للظواهر الإسلامية بسبب منطلقاته ودوافعه التي قام من أجلها والتي أثرت سلبا على مناهجه وأدواته، وعلى مقدماته وإفتراضاته وعلى النتائج التي توصل إليها . حتى بدى الاستشراق وكأنه علم بدأ في الماضي وانتهى في الحاضر وبالتحديد في الستينات من القرن العشرين[2] غير أن المشتغلين في حقل الإستشراقي لم يستسلموا لهذا الواقع المؤلم بالنسبة إليهم فراحوا يبحثون عن حلول وبدائل لتلك الأزمة.

وواكب ذلك التطور الذي حصل في ميدان العلوم الإنسانية، فالتجأ إليها المستشرقون للخروج من هذا المأزق، ولن يتم ذلك إلا بالخروج من الإيديولوجيات والأنماط الموروثة في الرؤى الغربية للشرق[2].

وبناء عليه تعددت رؤية المستشرقين للإسلام. فمنهم من نظر إليه بعين عالم الاجتماع الماركسي كالمستشرق "ماكسيم رودينسون" في كتابه (محمد) (الإسلام والرأسمالية) ومنهم من نظر إليه بعين عالم الإنتربولوجيا (علم الإنسان) بمعنى البحث عن المكانة التي أعطاها الإسلام إلى الإنسان والآثار المترتبة عن هذه المكانة كالمستشرق "فون غرونباوم" ومنهم من نظر إليه بعين عالم الإثنولوجيا وهو العالم المتخصص في الأعراق البشرية[3].

والسؤال الواجب طرحه الآن هو :

---

(1) هشام جعيط: مرجع سابق، ص73.

(2) -عبد الحميد بوبو: أصالة الاستشراق واستشراق الأصالة، مرجع سابق، ص73.

-برايان تيرنر: الاستشراق ومشكلة المجتمع المدني في الإسلام، ترجمة: أبو بكر باقادر، الاجتهاد، بيروت، ع47-48، س12، (1421هـ -2000م)، ص76.

(3) -مراد هوفمان: مرجع سابق، ص212.

-هشام جعيط: مرجع سابق، ص65.

- هل سيتخلى الاستشراق العلمي (المعاصر) عن نزعته الاستعلائية للشرق ؟
- وهل سيغير حقا من طريقته وأسلوبه في التعامل مع قضايا الإسلام؟

ذلك ما سنعرفه في الفصول القادمة – إن شاء الله.

ثالثا: مميزاته

لقد تضمن مذهب الاستشراق العلمي لجملة من الخصائص ميزته عن غيره من المذاهب الأخرى تتمثل في الآتي:

1-تعدد الرؤى الاستشراقية

تميز مذهب الاستشراق العلمي بتعدد الطرح الإستشراقي لمواضيع الإسلام بسبب الاختلاف الأيديولوجي للمستشرقين، والذي أسفر عن ظهور ثلاث رؤى استشراقيةشكلت في مجموعها الخطاب الإستشراقي الحديث. وهذه الرؤى هي : الرؤية الاستشراقية التقليدية والرؤية الاستشراقية الاشتراكية والرؤية الاستشراقية الأمريكية.

أ-**الرؤية الاستشراقية التقليدية** : وهي الرؤية التي صاحبت كل المذاهب الإستشراقية تختفي حينا وتظهر أحيانا أخرى. وبالرغم من النزعة التجديدية التي دعا إليه الكثير من المستشرقين في العصر الحديث لا زالت المقاربة الاستشراقية على أساس التوظيف الديني والأيديولوجي هي الروح العامة والمسيطرة في أبحاث العديد من المستشرقين، وهي أبحاث معلومة النتائج لأنها تصول وتجول لتصل في النهاية لتلك الأحكام المرسخة عن الإسلام وعن المسلمين. ويعتبر المستشرقون الفرنسيون والبريطانيون هم أكثر المستشرقين تعبيرا عن تلك الرؤية التقليدية.

- **المستشرقون الفرنسيون:** لعب المستشرقون الفرنسيون دورا هاما في الإعداد والتمهيد للاستعمار الفرنسي وذلك بفضل الدراسات الشاملة التي قاموا بإنجازها عن بلاد الشرق وسكانها والتي تخصصت في بلدان شمال إفريقيا (الجزائر- المغرب- تونس- موريطانيا).

أما في الحاضر ومع انتهاء مرحلة الاستعمار العسكري ومجيء مرحلة الاستعمار الثقافي والاقتصادي، لا زال هؤلاء يقومون بنفس الدور وهو إنتاج خطابات امتازت بدوافعها

السياسية والدينية. وكان تركيزهم هذه المرة على إحدى عوامل التوحيد في الأمة الإسلامية وهو عامل اللغة العربية.

إن اللغة بالنسبة لأي أمة من الأمم هي تراثها وإحدى مقوماتها الأساسية. فاللغة هي العلاقة التي تربط ماضي الأمة بحاضرها، وهي الحصن الذي يمنعها من الاندماج والذوبان في ثقافة الآخرين، والحصن الذي يحفظ لها شخصيتها واستقلالها.

لذلك ركز الاستشراق الفرنسي على اللغة العربية التي تمكنهم من تحقيق أغراض عدة.

* **الغرض الديني:** إن اللغة العربية هي لغة القرآن الكريم فبها يتلى وبها يفسر وتعرف معانيه ومقاصده ولقد أدرك المستشرقون من خلال معاينتهم ومعايشتهم للعرب والمسلمين بأنهم لن يتمكنوا من إبعاد المسلمين عن دينهم إلا إذا ابتعدوا عن اللغة العربية التي تربطهم بالقرآن الكريم. «فهم يريدون أن يطبقوا على القرآن ما انطبق على الإنجيل والتوراة حين هجرت لغاتهم اللاتينية القديمة وأصبح لا يعرف هذه اللغة إلا القسس والبابوات، كذلك كانت الدعوى إلى هجر اللغة العربية تهدف إلى قطع العرب صلتهم بالقرآن الكريم إلا أن يبقى ليقرأ في المساجد كما تقرأ اللاتينية القديمة في الكنائس الكاثوليكية، وهكذا يحولون القرآن إلى متحف التاريخ»[1].

***الغرض السياسي :**

أما الغرض السياسي فيتمثل في إحداث التفرقة بين الإخوة الأشقاء، وعندها يسهل على المستعمرين الجدد التوغل إلى تلك البلدان لتمرير كل خطاباتهم السياسية والتي تنص في مجموعها على إبقاء الهيمنة الثقافية والاقتصادية على البلدان العربية والإسلامية.

ونظرا للأهمية الكبرى للغة العربية، قام المستشرقون الفرنسيون بإصدار العديد من المؤلفات تدعو في مجملها إلى ترك اللغة العربية بحجة صعوبتها وعدم ملاءمتها للحياة العصرية المتطورة واستبدالها باللغة العامية نظرا لسهولتها ومرونتها. فقام وليام مارسي في سنة 1925 بنشر كتاب حول اللغة العامية التي يتكلم بها سكان المغرب العربي بعنوان

---

[1]-مصطفى خالدي، عمر فروخ: التبشير والاستعمار في البلاد العربية، ط6، صيدا، بيروت، منشورات المكتبة العصرية، 1986، ص229.

(نصوص تكرونة العربية) [1]، وفي سنة 1963 أصدر "دافيد كوهين" كتابا يتناول اللهجة العربية العامية المختلطة بالبربرية في موريطانيا عنوانه (اللهجة العامية الحسينية) كما قام بدراسة حول الكلام العربي ليهود تونس.

أما بخصوص اللغة العامية في المشرق العربي، فقد قام المستشرق (مونتاني Montagne) بدراسات حول النصوص البدوية لمنطقة شمر والجزيرة ونجد. كما نشر "بارتلمي" (Barthélamy) عام 1935 (القاموس العربي الفرنسي للهجات السورية) [2].

ولقد ذكرت مساهمة الاستشراق الفرنسي في الدراسات اللغوية لأنها هي الوحيدة التي تعبر تعبيرا واضحا ومباشرا عن الروح الاستعمارية العدائية التي بقيت مترسخة في نفوس العديد من الباحثين الغربيين.

دون أن ننسى إسهاماتهم في مجالات أخرى كالدراسة التي قام بها (ماسينيون" في التصوف والتي تناولت الحلاج شهيد التصوف في الإسلام و"هنري كوربان" ومؤلفه تاريخ الفلسفة الإسلامية، و(ماكسيم رودنسون) ودراسته الاجتماعية والتي كللت بإصدار عدة مؤلفات نذكر منها : محمد – الإسلام والرأسمالية – الإسلام والاشتراكية و"جاك بيرك" زعيم التجديد في الاستشراق المعاصر ومن مؤلفاته : العرب بين الأمس والغد.

-**المستشرقون البريطانيون:** تميز المستشرقون البريطانيون بنزعتهم الاستعمارية بسبب الدور التاريخي الذي قامت به بريطانيا إبان مرحلة الاستعمار الأوروبي. وكان استعمارها لعدة بلدان في الشرق الأوسط (كمصر وسوريا والعراق إضافة إلى الهند) هو الدافع القوي للاهتمام بالدراسات الإسلامية.

كما تميزوا بنزعتهم الدينية إذ يعتبر المستشرقون البريطانيون من أكثر المستشرقين بغضا وكرها للإسلام. أمثال المستشرق "مرجليوت" (margoliouth)) الذي ألف كتابا عن منشأ الشعر الجاهلي وقد كان أثره واضحا على الأديب المصري طه حسين الذي شك في صحة الشعر الجاهلي، و"هاملتون جيب" وكتابه الاتجاهات الحديثة في الإسلام ودراسة حول الحضارة الإسلامية، و"نيكيلسون" وكتابه متصوف والإسلام.

---

[1]-ساسي الحاج، الظاهرية الاستشراقية وأثرها في الدراسات الإسلامية، الجامعة المفتوحة، طرابلس، ج2، ص131.

[2]-المرجع نفسه، ص 132.

ب-الرؤية الاستشراقية الاشتراكية (الماركسية): ظهر الاستشراق الاشتراكي كرد فعل للاستشراق الذي رافق ظهور الرأسمالية الغربية والذي أطلق عليه البعض اسم الاستشراق الرأسمالي وتحديدا مع توقف الهيمنة الغربية وحصول معظم بلاد الشرق على استقلالها[1].

وعلى خلاف الاستشراق الرأسمالي الذي عرف بعدائه لشعوب الشرق بسبب وقوعه في قبضة الأيديولوجية الاستعمارية التي جندت العديد من رجاله خدمة لمصالحها السياسية والاقتصادية. إذ عملت على إرسال بعثات من المستشرقين إلى البلاد التي تنوي احتلالها ليزودوها بكل المعلومات التفصيلية عن بلاد الشرق وعن سكانه من حيث تركيبتهم الاجتماعية والثقافية حتى يسهل عليها احتلال هذه البلاد.

فإن الاستشراق الاشتراكي قد عرف بتعاطفه مع شعوب الشرق وبمحاولته الجدية في الدفاع عن قضاياه السياسية والوقوف معه ضد الهيمنة المطلقة للإمبريالية. ولقد لخص المستشرق "ميكوبات" المهمة الإنسانية الملقاة على كاهل الاستشراق الاشتراكي في المؤتمر الدولي الخامس والعشرين للاستشراق قائلا: «إن من واجب المستشرقين أن يعمدوا بصورة خلاقة إلى صياغة المشكلات الأساسية لصراع شعوب الشرق من أجل تحررها القومي والاجتماعي والتعويض عن تأخرها الاقتصادي، ويصح أن نقول إن الاستشراق لن يسعه أن يعول على كسب اعتبار واسع وفرص في النجاح إلا عندما يصبح في خدمة مصالح الشعوب الشرقية»[2].

كلا إن الاستشراق عموما ومهما كانت توجهاته الأيديولوجية لم ينس يوما وعبر مسيرته الإنتاجية تلك الدوافع والمنطلقات التي يعبر عنها دوما في خطابه وانتاجاته حتى وإن رفع شعار خدمة الآخر والعمل على تقدم وتحضر الآخر «لأن الاستشراق الاشتراكي الذي كانت له بالبلدان المستعمرة علاقة شبه بيضاء كان على طريقته يمارس أنواعا من التبشير بحقيقته كإيديولوجية ومنهج ومشروع»[3]. وذلك راجع إلى عاملين اثنين هما:

---

[1]-الطيب تيزيني: على طريق الوضوح المنهجي، ط1، بيروت، دار الفارابي، 1989، ص161.

[2]-أنور عبد الملك: الاستشراق في أزمة، ص85. نقلا عن: تركي علي الربيعو، الخلفية التاريخية للدعوى الوهابية في منظور الاستشراق الروسي، الاجتهاد، مرجع سابق، ص235.

[3]-بسام حميش: مرجع سابق، ص28.

- إن معرفة الاستشراق الاشتراكي أو الاستشراق الروسي للإسلام كانت متأثرة بالتصورات الأوروبية عن طبيعة العرب والإسلام بسبب تأخر الاهتمام الروسي بالدراسات الإسلامية، فكان من الطبيعي أن يعتمد في نشأته على ما أنجزه الاستشراق الأوروبي في كل المجالات المتعلقة بالإسلام كدين وحضارة. كما عبر عن ذلك أحد الباحثين حينما قال: «إن معرفة الاستشراق الروسي للإسلام مرت عن طريق المصفاة الأوروبية الغربية، ولذلك جاء معظمها مشوها بعيد عن الموضوعية العلمية»[1].
- الارتباط الوثيق بين الاستشراق والسياسة : إن التغيرات السياسية التي طرأت على الساحة الدولية بعد الحرب العالمية الثانية أدت إلى بروز الاتحاد السوفياتي كقوة سياسية عظمى لعبت دورا هاما في قضية الصراع العالمي. وبلوغه لتلك المكانة العالمية جعله يسعى لجذب العديد من الدول الشرقية إلى معسكره الاشتراكي في إطار ما عرف بالحرب الباردة بين المعسكرين الرأسمالي والاشتراكي.

فهذا الدور الذي قام به الاتحاد السوفياتي وصف أحيانا بأنه دور إمبريالي ألقى على كاهل الاستشراق السوفياتي آنذاك مهمة جديدة ومنهجا جديدا في الرؤية[2].

ويتحدث "إدوارد سعيد" عن تأثير السياسة في الاستشراق قائلا: «إذا كان التحديد للاستشراق يبدو سياسيا أكثر منه أي شيء أخر فذلك ببساطة لأنني أؤمن بأن الاستشراق كان هو نفسه نتاجا لقوى ونشاطات سياسية معينة»[3].

فلا يوجد في تقديرنا استشراق رأسمالي له توجهات عدائية للعرب والمسلمين واستشراق اشتراكي، أو كما يسميه (الطيب تزيني) إنساني يسعى إلى تطبيق فكرة التقدم العربي على أرض الواقع. فكلا الاصطلاحين وجهين لعملة واحدة هو الاستشراق، ويقومان بمهمة واحدة، هي محاولة فهم التراث العربي الإسلامي وتفسيره مع التركيز على دراسة الدين الإسلامي انطلاقا من مفاهيم وقيم غربية تضع الدين في مصاف الظواهر الاجتماعية.

---

[1]-تركي علي الربيعو: الخلفية التاريخية للدعوى الوهابية في منظور الاستشراق الروسي، الاجتهاد، مرجع سابق، ص233.

[2]- المرجع نفسه، ص234.

[3]-ادوارد سعيد: مرجع سابق، ص 214.

وكانت أهم النتائج التي حققها الاستشراق الاشتراكي (الماركسي) على صعيد الفكر العربي هي تمكنه من الوصول إلى بعض العقول العربية التي تبنت فيما بعد أسلوبه ومنهجه في دراسة التراث العربي الإسلامي وهو المنهج الماركسي الذي يحاول تفسير وتحليل التراث الحضاري الإسلامي «تفسيرا ماركسيا عن طريق إسقاط المقولات الفكرية الماركسية على دلالات التجربة الحضارية الإسلامية»[1]، كمحاولة الطيب تزني في كتابه "مشروع رؤية جديدة للفكر العربي في العصر الوسيط"، ومحاولة حسين مروة في كتابه "النزعات المادية في الفلسفة الإسلامية".

جـ-رؤية الإستشراق الأمريكية: إن ما حدث من تطورات على الساحة العالمية حيث انتهت الحرب العالمية الثانية وانتهت معها مرحلة الهيمنة الأوروبية بانتقال مركز القوى في العالم من أوروبا إلى أمريكا، الأمر الذي أثر على طبيعة الخطاب الإستشراقي في هذه المرحلة.

فما هي الملامح التي ميزت الخطاب الإستشراقي في هذه المرحلة ؟

وما هو الحيز الذي شغلته قضية نبوة محمد صلى الله عليه وسلم في مساحة الاستشراق الأمريكي؟

-مميزاته: امتاز الاستشراق الأمريكي عن غيره من الاستشراق التقليدي والاشتراكي بما يلي:

***الاهتمام بدراسة الواقع الإسلامي :** لقد عملت و.م.أ على توظيف الدراسات الاستشراقية توظيفا يخدم مصالحها السياسية بالدرجة الأولى. وعملت على إرساء أسس الهيمنة الغربية الجديدة ممثلة في أمريكا، والدليل على ذلك قول المستشرق الأمريكي المعاصر (مرتمر قرافز- Mortimer Groves) الذي يبين لنا بوضوح الأغراض السياسية للاستشراق العلمي المعاصر في مرحلته الأمريكية يقول: «إن العملية المتميزة لتجميع اللغات في الشرق الأدنى المهمة الصادرة منذ 1900 وحتى 1950 والنظر فيها وفحصها إجراء كفيل

---

[1] سليمان الخطيب: دور المناهج الغربية في سيادة فكرة التغريب والاستيلاب الحضاري والثقافي على العقل المسلم، المؤتمر العالمي للفكر الإسلامي، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، الجزائر، 9-12 سبتمبر 1989، ص 24.

يعترف Groves يتعلق بالأمن القومي الأمريكي، وهو من أجل فهم أمريكي أفضل للقـــوى التي تناوئ أوتنافي الفكرة الأمريكية، وأهم هذه القوى المناوئة لأمريكا في المنطقة قوتـان : الشيوعية والإسلام. وبعد انهيار الشيوعية تفرغ الاستشراق لدراسة الإسلام ليس من أجل فهم أفضل له بل من أجل إحكام قبضته على الدول العربية والإســـلامية تحـــت غطـــاء تقديـــم المساعدة والمعونة لهذه البلدان لأجل تقدمها وازدهارها.

وبما أن دراسة الاستشراق للإسلام كانت موجهة لخدمة أهداف السياســـة الأمريكيـــة فإنه لم يهتم كثيرا بدراسة التراث وتحقيقه وترجمته وهو العمل الذي أعتاد القيام به معظـــم المستشرقين، بل أنصب اهتمامه الكلي على دراسة حاضر العالم الإسلامي وواقع المسلمين.

ذلك الواقع الذي بدأ منذ نهاية الستينات وبداية السبعينات يعود شيئا فشيئا إلى الإرتـــواء من جديد من النبع الصافي القرآن الكريم وسنة نبيه محمد ﷺ على الرغـــم مـــن عمليـــات التحويل العلماني التي استهدفت معظم البلدان العربية والإسلامية استهدفت الدين الإســـلامي كنظام حياة وكمنهج سلوك لم يعد ملائما للحياة العصرية حيث عمدت إلـــى تغيـــير بعـــض المفاهيم الإسلامية واستبدالها بمفاهيم أخرى مغايرة لها تماما، مثال ذلك، تغيير كلمة الجـــهاد التي تحمل معنى المدافعة من أجل إعلاء كلمة الله واســـتبدالها بكلمـــة النضـــال والكفـــاح، وتغيير كلمة المراقبة التي تعني استحضار رقابة الله تعالى للعبد والخشية منـــه، واســـتبدالها بكلمة الضمير، كما استبدلوا معنى الخضوع للشرع ووضعوا بدله احترام القانون مع الفـــرق الشاسع بين أن يخضع الإنسان لشرع من وحي الله وبين أن يخضع لقانون يفـــرض عليـــه احترامه وهو لا يجد نحوه من الولاء ما يجده نحو الشرع.

وفي مجال الحياة الجنسية «ألقوا بمفهوم الكبت وضخموه، وهو عندهم مذمة توجـــه إلى من لم يرتم في أحضان الإثم فإن ذلك كل المناقضة لمفهوم العفة الذي حرص الإســـلام على تركيزه في السلوك»[1].

وذلك التحول باتجاه الإسلام من جديد أقلق الغرب وعلى رأسه أمريكا «لأنه لا ينسجم مـــع قيمها ومعتقداتها بل اعتبرت عملية الإحياء الإسلامي حركة خطرة وغير عقلانية ومعادية

---

[1]- عبد الحميد يونو: المنعطف، مرجع سابق، ص65.

للثقافة»[1].

والمفارقة العجيبة أن الغرب قديما ممثلا في السلطة الدينية (الكنيسة) حينما أبدى مخاوفه من الإسلام، وعمل بكل ما أوتي من جهد وقوة على تشويه محاسن الإسلام وتحريف حقائقه كان المسلمون في ذلك الوقت هم الأقوى وهم الأفضل، وكان الغرب المسيحي يعيش فترة العصور الوسطى بكل ما تحمله هذه العبارة من معاني الفقر والجهل والظلم والتخلف.

وكان العامل الأكبر والمبرر الوحيد لقيام الخطاب الاستشراقي التقليدي هو الخوف على المسيحيين من الدخول في الإسلام خصوصا وقد أعجبوا بمدنيته وحضارته الإنسانية.

أما الآن وقد انعكست الصورة وانقلبت الأوضاع فإن الأقوى والأعلى هو الغرب وأمريكا بينما الممثلين للإسلام هم الأضعف والأفقر والأسوأ حال ومع ذلك ما زال عامل الخوف من الإسلام قائما. ومازالت الدراسات الاستشراقية تسير باتجاه خدمة ذلك العامل.

فما هو السر في استمرار عنصر الخوف من الإسلام على الرغم من الانقلاب الوضعي لكلا الطرفين ؟

إن السر في استمرار عنصر الخوف من الإسلام يدل دلالة قطعية على أن الغرب قد عرف الإسلام حق المعرفة وفي ذلك يقول الشيخ محمد متولي الشعراوي «إن أعداء الإسلام صليبيين أو صهيونيين أو مستشرقين، لو وجدوا أن الإسلام منهج تافه ما عدوه، لكن كلما ترى حرارتهم في عداء الإسلام فأعلم أنهم فهموا في ذلك الإسلام القوة التي لو تنبه المسلمون إلى ما فيها من كنوز فسيحيطون بهم، وقد كان فعلا ولم يكن ذلك كلاما نظريا وإنما صار واقعا وصارت الأمة الإسلامية، الأمة الأولى في العالم فترة طويلة من الزمن، إذن فكلما كان عندهم سعار في حرب الإسلام وفي إقامة المعارك معه فإنهم يفهمون ما هو الإسلام»[2].

كما عرف الغرب أيضا بأن الإسلام هو الحق والعدل والمساواة والسلام والإخاء وهذه المفاهيم بالطبع تمثل النقيض بالنسبة لمفاهيمه وقيمه التي تكرس لنزعة الاستعلاء والتفوق، تلك النزعة التي لم يسلم منها حتى الأديان، فهذا هيجل يضع الأديان في سلم متدرج تأتي المسيحية على قمته بينما تحتل الديانة الأفريقية والأسيوية المرتبة السفلى من السلم[3].

---

(1)-جون إسبو زيتو: الإسلام المعاصر إصلاح ديني أم ثورة؟، الاجتهاد، مرجع سابق، ص15.

(2)-محمد متولي الشعراوي: المعارك الإيديولوجيا في تاريخ الإسلام، ط2، قضايا الفكر الإسلامي المعاصر، منظمة المؤتمر العالمية للشباب الإسلامي، 1978، ص401.

(3)-عبد الله إبراهيم: المركزية الغربية إشكالية التكون والتبلور، الاجتهاد، مرجع سابق، ص303.

وللاستدلال على خوف أمريكا من عودة الجماهير العربية والإسلامية إلى رحاب الإسلام تقول المستشرقة "مارجريت ماركوس"[1] (Margaret marcus): «إن الأقسام الخاصة في الجامعات والمراكز العلمية المنتشرة في أوروبا وأمريكا والمتخصصة في دراسة الإسلام وفهمه، إنما تقوم بذلك من أجل تحقيق غاية واحدة هي: التمكن من العدو لتدمير هذه وتلك المعاهد الإسلامية ومراكز البحث الإسلامية مشغولة اليوم بتكوين أتباع للغرب في قطر إسلامي تلو الآخر، وهدفهم من وراء ذلك إجهاض القضية الإسلامية من داخلها وإحباط أي محاولة لبعث حقيقي إسلامي»[2].

*الاستعانة بمناهج العلوم الإنسانية كمناهج علم الاجتماع وعلم الأنتربولوجيا وعلم النفس من أجل الدراسة الميدانية لكل جوانب المجتمعات العربية والإسلامية بغية السيطرة والهيمنة عليها كما يتضح من كلام عالم الاجتماع الأمريكي "أرنولد جويني" الذي يتحدث عن الخطوات التي تقوم بها الولايات المتحدة الأمريكية عند إقامة علاقات اقتصادية أو سياسية مع دول العالم وعلى رأسها البلدان الإسلامية، فيقول: «فعلينا أن نعرف أكثر مما نعرفه عن هذه البلدان وعن شعوبها، ما هي ثقافتهم، ما هي اتجاهاتهم السائدة نحو الولايات المتحدة الأمريكية، ما هي معتقداتهم وانحيازاتهم التي يمكن التعرف عليها والإفادة منها لجذبهم إلى فلك نفوذها، ما هي المعتقدات والانحيازات التي يجب أن نغذيها أو نتقبلها قبل أن نتمكن من تحقيق ذلك»[3].

***الاهتمام بدراسة العلماء:** يحتل العالم في المجتمع العربي والإسلامي مكانة عالية ومركزا مرموقا بسبب الوظائف المتعددة التي يقوم بتأديتها والتي تتمحور جميعا حول خدمة الدين وخدمة الأمة الإسلامية. وأولى هذه الوظائف هي:

-الوظيفة المعرفية: وهي نوع المعرفة التي تخصص فيها العالم أو التي نبغ فيها سواء كانت تلك المعرفة علما شرعيا أو علما تجريبيا أو علما نظريا. كالإمام العالم ابن تيمية الذي تخصص في العلوم الشرعية، والعالم ابن خلدون الذي اشتهر بعلم الاجتماع، والعالم ابن سينا الذي أشتهر بالطب والفلسفة.

---

[1] -مارغريت ماركوس: مستشرقة أمريكية اعتنقت الإسلام وأصبحت تدعى مريم جميلة. (عفاف صبرة: المستشرقون ومشكلات الحضارة، ص45).

[2] عبد الله الشرقاوي: الاستشراق -دراسات تحليلية تقويمية، مرجع سابق، ص42.

[3] محمد أمزيان: العلوم الإنسانية في المنظومة العربية المعاصرة، مرجع سابق، ص 91.

-الوظيفة الدينية: حيث يتولى العالم (في المجتمع العربي والإسلامي) القيام بدور الإمام والخطيب والمفتي، إذ يقوم بتربية الناس التربية الدينية الصحيحة مذكرا إياهم بعظمة الدين الإسلامي وبسمو أخلاقه، كما يذكرهم بالواجبات التي ينبغي على الفرد المسلم القيام بها، وهي واجبه نحو خالقه ودينه أولا ثم واجبه نحو أسرته وأخيرا واجبه نحو أفراد المجتمع الذي يعيش فيه.

-الوظيفة الاجتماعية: إن العالم في التقاليد الإسلامية لا يعيش بمعزل عن الناس، بل يحيا بينهم حتى يكون قريبا منهم،عارفا لأحوالهم وظروفهم ومدركا لمشاكلهم وهمومهم. وكثيرا ما استخدم العلماء لمكانتهم ومركزهم في التخفيف من معاناة الجماهير عن طريق الاتصال بذوي النفوذ من رجال السلطة والحكم. وقد يحدث العكس كذلك فقد يستخدم العالم مركزه ومكانته من أجل العمل على تثبيت ركائز النظام الحاكم عن طريق الاتصال بالجماهير بدافع المحافظة على الأمن واستقرار الحياة الاجتماعية «فهم يتجنبون إشاعة الفوضى في حياة الناس بسبب ما يمكن أن تتركه من مفاسد كبيرة لكل هذا شددوا على إعطاء الشرعية للسلطة القائمة ما دامت لم تعلن خروجها على الشريعة أو تأمر بمنكر صريح، حتى وإن كانت في بعض الأحيان ظالمة أو متجبرة[1].

-الوظيفة السياسية: مارس العلماء دورهم السياسي على وجه الخصوص إبان فترة الغزو والاستعمار، حيث قام هؤلاء بتعبئة الجماهير ودعوتهم إلى الثورة على المحتل الغاشم. بعد أن كشفوا لهم حقيقة ذلك المستعمر وكشفوا لهم حقيقة دعوته التمدنية الاستعمارية في بلدانهم والأهداف التي يسعى لتحقيقها هذا من جهة، ومن جهة أخرى (وفي إطار العمل السياسي دائما) قاموا بمجهودات إصلاحية كبيرة من أجل الحفاظ على ثوابت الأمة الإسلامية وعلى هويتها وعلى وحدتها وتماسكها ويأتي على رأس هؤلاء العلماء المصلحين الشيخ محمد عبده في مصر، والشيخ محمد ابن عبد الوهاب في شبه الجزيرة العربية، وخير الدين التونسي في تونس، وعبد الحميد بن باديس في الجزائر.

ولأجل تلك المهام والأعمال التي قام بها العلماء والتي ساهمت بشكل كبير في تشكيل الرأي العام السياسي والفكري والثقافي، اهتم العديد من المستشرقين بدراسة العلماء ومكانتهم

---

(1) [illegible] 15، 30

في مجتمعاتهم بأن خصصوا لهم العديد من الأبحاث والدراسات، كالدراسة التي قامت بها المستشرقة (جوليا كلنسي سميث) في سنة 1944 عن مواجهة العلماء الجزائريين والتونسيين في القرن التاسع عشر للاستعمار[1] والدراسة التي قام بها المستشرق "جاك بيرك" في سنة 1968 عن الصوفي المغربي الحسن اليوسي[2].

***الاهتمام بتحقيق التراث العربي الإسلامي:** ما ميز الاستشراق العلمي تلك الجهود الجبارة التي بذلها المستشرقون في سبيل تحقيق التراث وإخراجه ونشره في أحسن صورة مكنت الإنسان العربي من الإطلاع على جوانب كثيرة من ماضيه التاريخي والأدبي والثقافي والعلمي.

ويأتي على رأس هؤلاء المستشرقين، المستشرقون الألمان الذين وصفت أبحاثهم بالحياد والموضوعية وبعدم توظيف تلك الأبحاث لأغراض سياسية واستعمارية أودينية، والسبب في ذلك كما يرى المؤرخون للاستشراق يعود إلى عدم مشاركة ألمانيا في استعمار أوروبا للعالم العربي والإسلامي وبعدم اهتمامها كذلك بنشر المسيحية[3]. وانصب اهتمامهم على دراسة التراث العربي القديم والآداب والآثار القديمة ومن أبرز المستشرقين الألمان الذين اعتنوا بدراسة التراث والأدب العربي ألفريد فون كريمروف.أ جيست ميلر، رودي بارت، فريدريش إيكرت، يوليوس فيلهاوزن، زيغريد هونكا وأنا ماري شميل.

أما المستشرقون الروس الذين عرفوا أيضا بخلو أبحاثهم من الأغراض السياسية والاستعمارية والدينية فذلك يرجع إلى أن روسيا قد اكتفت باحتلال أسيا الوسطى ولم تكن تسعى إلى إيجاد مستعمرات لها في الشرق[4]. فإن اهتمامهم بتراث المسلمين كان موجها لدراسة اللغة العربية وآدابها مثال ذلك الدراسة التي قدمها كريمسكي والتي تحمل عنوان : تاريخ العرب والآداب العربية الدينية والدنيوية – موسكو 1912- والأدب العربي في مقالات ونماذج – موسكو 1911- وما كتبه داموف عن العراق (ولاية البصرة) في ماضيها وحاضرها بسطر اسبورغ 1912، وما كتبته المستشرقة كودلين في السبعينات عن مشكلة صحة الأصل للشعر الجاهلي.

---

(1)- الاستشراق والاستشراق، ص43.

(2)- المرجع نفسه، ص45.

(3)- ساسي الحاج: الظاهرة الاستشراقية في الدراسات الإسلامية، ص148.

(4)- المرجع نفسه، ص 183.

غير أنه لكل حكم استثناء كما يقال، خصوصا وأن الاستشراق (كما مر معنا) قد أفصح مرارا عن صلته الوثيقة بأيديولوجية العصر الذي يوجد فيه، ففي العصور الوسطى حينما كان الدين المسيحي هو المسيطر في أوروبا وهو الموجه لحياة الناس والمنظم لأعمالهم، وحينما كانت الكلمة الأولى لسلطة الدين ممثلا في الكنيسة رأينا كيف قام الاستشراق بتمثيل تلك الأيديولوجية (الدينية) بحيث تفنن في ابتكار الأساليب التي تطعن في الإسلام وفي نبيه محمد ﷺ كاختراع الأساطير ونشر الخرافات من أجل تعبئة الجماهير ليهبوا دفاعا عن دين المسيح ضد الكفر والكافرين (الإسلام والمسلمين).

وفي فترة الاستعمار الأوروبي لبلدان الشرق رأينا كيف قام الاستشراق بتمثيل أيديولوجية الغزو والاحتلال. وبذلك اتضحت العلاقة السببية التاريخية والوثيقة بين الاستشراق والسياسة، إذ أن الاستشراق كما عبر عن ذلك إدوارد سعيد هو رؤية سياسية للواقع.

وعليه فإن الاستشراق الروسي أيضا وبالرغم من نزعته الإنسانية لم يسلم هو الآخر من التوجهات السياسية، عندما قام بالتبشير بديانته الجديدة وهي العلمانية والتعاليم الماركسية. إذ تقول المستشرقة الروسية تيخونوفا: «إن أبحاث العلماء السوفيات من المستشرقين المشتغلين بقضايا البلدان العربية والإمبراطورية العثمانية، ولا سيما ما تعلق منها بمشكلات تطور الإيديولوجيا القومية وخصوصيات علمنة الفكر الاجتماعي، والعلاقة بين النزعتين السلفية والعصرية في مذاهب المفكرين المعاصرين، تشكل أرضية يعتمد عليها في انطلاقة الاستشراق الروسي»[1].

رابعا: المنهج المتبع

إلى جانب استخدام المنهج التشكيكي استخدم المستشرقون المعاصرون منهجا أخر في تفسير تراث الإسلام هو المنهج الماركسي الذي يتعامل مع ظاهرة النبوة على أنها إحدى الظواهر الاجتماعية التي أفرزها المجتمع المكي بفعل تأثير عدة عوامل اجتماعية واقتصادية.

إنّ وصف البعض للاستشراق على أنه أحد فروع العلم الغربي، يقتضي أن يكون الهدف من أبحاثه هو الكشف عن الحقائق وتوضيح ما أشكل منها على الفكر الإنساني.

وإذا اعتبرنا أن النبوة في العقيدة الإسلامية من المواضيع التي ترتبط مباشرة بحياة الإنسان ومصيره في هذا العالم، أمكننا عدّها من المواضيع الحية أو المتجددة التي تثير بين

---

[1]-ساسي الحاج: الظاهرة الاستشراقية في الدراسات الإسلامية، ص 236.

الحين والآخر نوعا من الجدل والنقاش، بسبب التساؤلات الذي يستدعيها الواقع الاجتماعي والثقافي، وتكون مهمة الاستشراق كعلم هو التحليل والفهم والتفسير من خلال الإجابة على تلك التساؤلات.

وإذا كانت الطريقة أو المنهج الذي اتبعها مذهب الاستشراق التقليدي في معالجته لموضوع الوحي والنبوة قد عرفت نقدا لاذعا من طرف مذهب الاستشراق العلمي، فما هي الطرق المنهجية الحديثة التي قدمها هذا المذهب كبديل عن المنهج التقليدي؟ وما هي المنطلقات التي ساهمت في إيجاد تلك المناهج، وهو وفقت هذه المناهج في الوصول إلى نتائج علمية صحيحة، بأن كشفت عن حقائق أو أزاحت غموضا؟

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفصل الثالث:

أنواع المناهج الاستشراقية

المبحث الأول: المنطلقات الأساسية لمناهج البحث الاستشراقي المعاصر

المبحث الثاني: تصنيف المناهج الاستشراقية

المبحث الثالث: أدوات المناهج الاستشراقية

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

تمهيد

لقد اقتنع مذهب الاستشراق العلمي بضرورة التخلي عن أطروحات الاستشراق التقليدي التي ساهمت بشكل كبير في صياغة الثنائية الضدية الخالدة، هي ثنائية العالم الإسلامي والعالم الغربي المسيحي، بما أصدره من أحكام جائرة في حق نبي الإسلام ورسالته الشريفة.

ورأى بأن الخروج من هذا المأزق لن يتم إلا بالتخلي عن الطريقة والأسلوب التي تناول بها مذهب الاستشراق التقليدي موضوع الوحي والنبوة، واستخدام طرق ومناهج أخرى تتصف بالعلمية والحياد والجدية في التطرق لمواضيع الإسلام.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الأول: المنطلقات الأساسية لمناهج البحث الاستشراقي المعاصر

المطلب الأول: المنطلقات التاريخية[1]

ويمكن أن نتعرض لها من خلال الحديث عن صلة الاستشراق بظاهرة الاستعمار، وبالأصل العقدي للاستشراق.

أولا: علاقة الاستشراق بظاهرة الاستعمار:

إنّ علاقة الاستشراق بظاهرة الاستعمار، إنما تعود بجذورها التاريخية إلى الصراع بين الشرق والغرب، أو بين الإسلام والمسيحية، وقد لعبت هذه العلاقة دورا كبيرا وخطيرا في التأسيس لعديد من الأحكام التي أطلقها المستشرقون على الإسلام دينا وشعوبا وحضارة، كالحكم بعجز العقلية العربية (السامية) عن الاستنتاج والابتكار وميلها إلى التجريد والتأمل والتأثر بالأوهام. والحكم على الإسلام بأنه دين الاستسلام والخضوع لعقيدته الجامدة، بما احتوته من أحكام وتعاليم تعتبر بمثابة القيود التي تمنع العقل الإنساني من التفكير بحرية كاملة.

وعلى ضوء هذه الأحكام افترض المستشرقون ثم اقتنعوا بأن أصول القرآن الكريم مقتبس من اليهودية والمسيحية، وأن أصول الفلسفة الإسلامية مقتبس من كتب الإغريق المترجمة، وأن أصول النحو العربي مقتبس من أصول النحو اليوناني، «فهم يعتقدون أن الفكر الإسلامي ليس إلا مجرد محاكاة وتقليد لأريسطو، أو ضرب من التكرار لآراء وأفكار يونانية»[2]. وعليه، فمن الطبيعي –وهذا حالهم– أن يجد المستشرقون لكل فرع من فروع الفكر الإسلامي أصلا أو أصولا تقابله في الثقافات المحلية والأجنبية.

ولقد وجه المستشرقون هذه المطاعن إلى الفكر الإسلامي بعد النهضة التي عرفتها أوربا في القرن الخامس عشر الميلادي (15م)، ففي هذه الفترة تمكنت أوروبا من التخلص

---

(1) لمزيد من التوضيح، انظر: الفصل الأول من البحث، ص79

(2) فتحي عبد الفتاح الدجني: أبو الأسود الدؤلي ونشأة النحو العربي، القاهرة، الظهران، السعودية، ج9، مج47، سنة 1999م، ص 563-566.

من جهالة القرون الوسطى ومن سيطرة الكنيسة، ولجأت إلى العقل الذي قادها إلى التقدم والازدهار الأمر الذي رشحها لقيادة العالم، في الوقت الذي كان فيه العالم الإسلامي يئن بسبب فوضى السياسة، وعدوى الانقسامات التي مزقت جسد الأمة الإسلامية الواحد إلى دويلات صغيرة.

وفي هذه الأثناء وقد رأى الغرب أن كل الظروف في صالحه، تذكر أحقاده القديمة، فراح يُنفّسُ عنها في كتابات المستشرقين عن طريق اختراع فكرة التبعية أو الأصول الأجنبية أو المصادر الأجنبية، و«لقد كان الجو الفكري العام أو النزعة السائدة في الغرب في القرن التاسع عشرة (19م) بالنسبة للإسلام والمسلمين نزعة المشاحنة والمنازعة والدفع والعداء والهجوم، أو كان استمرار لموقفهم في العصور الوسطى الذي استطاعوا فيه -وبعبقرية فريدة واقتدار يحسدون عليه- أن يقلبُوا الحقائق المتعلقة بالإسلام أمام المواطن الغربي»[1].

ولازالت علاقة الاستشراق بظاهرة الاستعمار مستمرة إلى حد الآن وإن كانت بصورة خفية عما كانت عليه في السابق، «فالارتباط بين المستشرقين وبين الدوائر الاستعمارية والكنيسة لا يزال قائما حتى الآن، نتيجة للدعم المستمر من الحكومات الغربية، والذي استطاع معه المستشرقون تغيير أساليبهم ووسائلهم، وتطويرها بتطوير الظروف والأحوال»[2].

ثانيا: الأصل العقدي للاستشراق

لقد كان الدافع الأول لظهور حركة الاستشراق هو الدفاع عن المسيحية بالدرجة الأولى، وحمايتها من الخطر الداهم والمتمثل في الإسلام كعقيدة معارضة لأصول الديانة المسيحية. ولأجل ذلك توجه الغرب ممثلا في تلك الفترة بالرهبان لدراسة التراث الإسلامي بقصد تشويهه والتشكيك في أصوله.

على أنه وجد من الباحثين المسلمين الذين تعرضوا لدراسة الاستشراق من يغفل أو يتجاهل العامل الديني بالتركيز على العامل الاقتصادي، وعدّه العامل الرئيس الذي دفع

---

[1]- محمد عبد الله الشرقاوي: الاتجاهات الحديثة في دراسة التصوف الإسلامي (مصادره وآثاره)، د.ط، القاهرة، كلية دار العلوم، 1993، ص24.

[2]- محمد فتح الله الزيادي: المرجع السابق، ص51.

الغرب إلى الدراسات الإسلامية حتى يُسهّل للأوروبيين المستعمرين دخول البلاد الشرقية واحتلالها، من أجل الاستفادة من خيراتها وثرواتها الطبيعية.

إنّ الذين يتبنون هذه الفكرة يستندون إلى الرؤية الغربية التي تنظر إلى وقائع التاريخ من منظار مادي لا يعترف للدين بأي دور أو تأثير على شتى مجالات الحياة السياسية والثقافية أو الاجتماعية.

وللرد على هؤلاء نقول أن الاستشراق ينطلق من الغرب ويستند إلى أسس ومقوّمات الحضارة الغربية التي تُعتبر المسيحية إحدى مقوماتها الأساسية. وعلى الرغم من سيطرة الأفكار الإلحادية التي اكتست طابع العقلانية والعلمانية على جوانب الحياة الثقافية والاجتماعية والاقتصادية، إلا أن عنصر الإيمان بالعقيدة المسيحية لا يزال ساريا في نفسية الباحث الغربي عامة والباحث المستشرق على وجه الخصوص.

والدليل على ذلك استمرار الصراع بين الإسلام والمسيحية إلى العصر الحاضر، وإن تغيرت أساليب الصراع وأشكاله، فالمضمون والجوهر ما زال باق على حاله، وهو التشكيك في صحة رسالة الإسلام بالتشكيك في كتابه المُنزل وهو القرآن الكريم، وفي هذا يقول عرفان عبد الحميد: «إنّ من سخرية التاريخ أن يظل هذا الحقد القديم ضد الإسلام قائما بطريقة لا شعورية في زمن خسر فيه الدين القسم الأكبر من تأثيره في مخيلة الأوروبي»[1].

لقد لعب الاستشراق قديما دورا كبيرا في إذكاء نار الصراع بين الإسلام والمسيحية بإنتاجه لخطابات مغرضة، حاولت نشر وترسيخ فكرة أن نبي الإسلام كاذب ودجال، لأنه قام بتأليف القرآن ثم ادعى أنه وحي منزل لأجل الوصول إلى أغراضه الدنيوية وعلى رأسها اعتلاء كرسي البابوية[2]، وغيرها من الأوصاف التي تعكس ما كان يختلج في نفوس أولئك الباحثين من روح عدائية للإسلام والقرآن.

وقد يقول قائل بأن هذا النوع من الخطاب الاستشراقي كان يعبر عن الموقف الغربي من الإسلام إبان فترة القرون الوسطى وأثناء مرحلة الاستعمار الأوروبي لبلاد الإسلام فحسب.

---

(1)- عرفان عبد الحميد: المستشرقون والإسلام، ط2، دمشق، المكتب الإسلامي، دت، ص4.

(2)- [illegible]

أما في العصر الحديث، ومع تغير المناخ الفكري بسبب تطور مناهج البحث في العلوم الإنسانية، وظهور بعض الأفكار التي انتقدت بشدة فكرة تفوق الجنس الآري على بقية الأجناس الأخرى، وتغير المناخ السياسي بسبب حصول معظم الأقطار الإسلامية على استقلالها، فلم يعد هناك داع لوجود مثل هذه الأفكار في الدراسات الاستشراقية المعاصرة التي اكتست الطابع العلمي، بفضل جهود العديد من المستشرقين المجددين، الذين دعوا إلى التخلي عن الآراء والأفكار التي تفسر ظهور الإسلام وفق الأطروحات التقليدية للقرون الوسطى.

وكنتيجة لهذا الاتجاه العلمي للاستشراق في العصر الحديث، ظهرت العديد من الأبحاث والمؤلفات التي تدعي أنها أنصفت الإسلام كدين وفكر وحضارة.

والدارس للخطاب الاستشراقي المعاصر يلاحظ بشكل جلي تناقض ذلك الادعاء. فهؤلاء المستشرقون وإن انصفوا حقا الحضارة الإسلامية بالتخلي عن الآراء السابقة التي كانت تتهم الحضارة الإسلامية بالأخذ والاقتباس من الحضارات الأخرى ومن الأمم التي فتحتها «إلى البحث عن مصادر الحضارة العربية والإسلامية في ذاتها، وإلى الكشف عما أنجزته هذه الحضارة، فأضفته إلى الحضارة الإنسانية من أصيل ومبتكر في النظم الاجتماعية والاقتصادية والتشريعية، وفي الزراعة والصناعة والتجارة والنقل، وفي العلوم والآداب والفلسفة وعلم الكلام والتصوف والحياة الثقافية عامة»[1].

نقول فهم وإن انصفوا حقا الحضارة الإسلامية، وألفوا في سبيل ذلك العديد من المؤلفات أمثال جوستاف لوبون بكتابه "حضارة العرب"، وكارل بروكلمان بكتابه "تاريخ الشعوب الإسلامية"، فإنهم لم لا يتعاملون بنفس المقياس مع قضايا العقيدة الإسلامية، ولم يتخلوا عن الآراء التي قيلت في العصور الوسطى، والتي كانت تطعن في ألوهية القرآن وفي صدق نبي الإسلام محمد ﷺ، الأمر الذي يفسر لنا الأصل العقدي للاستشراق.

بمعنى أن الهدف الديني الذي قام من أجله الاستشراق ما زال هو المسيطر والموجه لأعمال المستشرقين في دراسة قضايا العقيدة الإسلامية، بدليل أن تلك الآراء التي تتحدث عن

---

(1) [illegible] 10 أفريل 1970 م، ص 533.

الأصول الأجنبية للقرآن آراء قديمة، كانت تعبر عن النظرة الغربية العدائية للإسلام في العصور الوسطى ما زالت مستمرة لحد الآن، بل أصبحت بحكم المسلمات الراسخة الثابتة التي لا تقبل التبديل أو التغيير على الرغم من ظهور فكرة التطور، وسيطرتها على كل مجالات الحياة الفكرية والمادية، والسبب في ذلك كما يرى عبد الله الشرقاوي إذ يعود إلى «أن الاستشراق قام أساسا على أن الإسلام من وضع محمد، فالإسلام دين بشري، وعلى أن الرسول لفق فيه بين اليهودية والمسيحية، وأنه حرّف في نقله تعاليم هاتين الديانتين، إما لأنه لم يستطع فهمها -كما يذكرون- وإما لأن محمد نفسه لم يرتفع إلى مستوى عيسى حتى يتصوره على حقيقته، ولذلك أنكر محمد على عيسى أنه ابن الإله وبالتالي أنكر التثليث وتشبث بالتوحيد وببشرية الرسول»[1].

وللاستدلال على ما ذكرنا نأخذ كمثال اثنين من المستشرقين الذين يتغنون باستعمال المنهج العلمي وبالتحلي بالموضوعية.

المثال الأول: لويس مسينيون (Louis Massignon):

يعتبر المستشرق الفرنسي لويس مسينيون من أبرز وجوه الاستشراق الحديث الذين اسهموا بقدر كبير في تجديد الاستشراق الحديث وتخليصه من الرؤى والتصورات الغربية التقليدية عن الإسلام والمسلمين[2].

شغلت قضية التصوف في فكر ماسنيون حيزا هاما أكثر من غيره من المستشرقين المعاصرين، فجاءت أطروحته للدكتوراه عن التصوف الموسومة بـ"الحلاج شهيد التصوف الإسلامي".

ولقد تمكن ماسينيون بفضل منهجه التجديدي «من التقليل من شأن مفهومي التواتر والتأثير اللذين يسيّدهما المقارنيون ويؤديان عند بعضهم وظيفة النسق والاختزال في حق كل ظاهرة يعتقد أنها نتيجة أو فرع لأصل مهيمن ومؤثر»[3]، وبذلك توصل إلى إبطال النظريات

---

(1)- عبد الله الشرقاوي: الاستشراق دراسة تحليلية نقدية، مرجع سابق، ص48.

(2)- بسام م حميش: مرجع سابق، ص75.

(3)- المرجع نفسه، ص77.

الغربية التي حاولت تفسير نشأة التصوف الإسلامي برده إلى المصدر المسيحي تارة، وإلى المصدر الهندي تارة أخرى، وإلى المصدر الفارسي أحيانا، وإلى المصدر اليهودي أحيانا أخرى، بالاعتماد على وجود الشبه بين التصوف الإسلامي والتصوف المسيحي، أو بين التصوف الإسلامي والتصوف الهندي، أو بين التصوف الإسلامي والتصوف الفارسي.

وبفضل منهجه هذا المعارض للتوجه المهووس[1] بالبحث عن الأشباه والنظائر، استطاع مسينيون أن يثبت أن التصوف الإسلامي ذاتي المصدر مستمد من القرآن الكريم ومن سنة النبي محمد ﷺ، ومن حياة أصحابه ﷺ ذوو الميول الزاهدة.

غير أن مسينيون وقف بمنهجه هذا عند نقطة التصوف ولم يشأ تطبيقه على النظريات الغربية التي حاولت تفسير نشأة الإسلام مرة برده إلى أصول المسيحية، ومرة برده إلى أصول يهودية، فلماذا يا ترى؟

الجواب بسيط جدا، لأن عقيدته تمنعه من القيام بذلك، فعلى الرغم من موضوعيته وجديته لديه دائرة حمراء مكتوب عليها ممنوع الاقتراب، فليبحث المستشرق المعاصر (ذو الاتجاه العلمي) ما يشاء من مواضيع الإسلام الاجتماعية والسياسية والثقافية والروحية، إلا موضوعا واحدا لا يحتمل البحث والمناقشة، وتسقط أمامه كل دعاوي الموضوعية والعلمية وغيرها من العبارات الشائعة التي يزينون بها مقدمة أبحاثهم، لأنه يرتبط مباشرة بالأسس والمبادئ العقائدية للديانة المسيحية أو اليهودية -في حالة كون الباحث يهودي الديانة- هذا الموضوع هو الإقرار بوجود مصادر أجنبية للقرآن ونفي ألوهية الوحي الإسلامي، وإلى هذا أشار الباحث "عبد الرزاق هرماس" قائلا: «وغاية ماسينيون من هذا التمحل: تجنب الإقرار بنبوة محمد وربانية القرآن في نفس الوقت التي يريد أن يظهر فيه بمظهر المتعاطف مع الإسلام، والباحث الموضوعي في قضاياه والمستشرق النزيه، ولا أعرف دارس معاصر استوعب فكر مسينيون أفضل من إدوارد سعيد الذي قال في تقويم تراث هذا المستشرق:

---

[1] مأخوذة من كلمة هوس، أي هوس البحث عن الأشباه والنظائر، والتي تعني الحرص المفرط على مراعاة قضية التشابه بين الإسلام والديانات الأخرى في أي أمر من الأمور.

«لقد قذف محمد ﷺ خارجا، ومنح الحلاج مكانة بارزة لأنه اعتبر نفسه شخصية كشخصية المسيح»[1].

المثال الثاني: ماكسيم رودنسون (Maxime Rodinson).

وعلى نفس المنوال سار المستشرق الفرنسي ماكسيم رودنسون الذي ضمن مقدمة كتابه "محمد" خطابا يتكلم فيه عن التزامه بالحياد والموضوعية، ولشدة حرصه على تأكيد الالتزام بهذا العهد الذي قطعه على نفسه، نجده يعلن عن معتقده الديني وهو كونه ملحدا لا يؤمن بأي دين من الأديان، وعليه فإن دراسته للسيرة النبوية وللوحي المحمدي ستكون دراسة علمية بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى.

ولقد توصل "رودنسون" حينما التزام فعلا بالمنهج العلمي إلى أن نشأة الحضارة الإسلامية كانت نشأة أصيلة وليست تابعة لأي حضارة أخرى، ففي كتابه "تراث الإسلام" يتعرض «لنشأة الحضارة الإسلامية في المحيط العربي الإسلامي، مع الإشارة إلى تأثرها بالثقافات المحلية السابقة والثقافات الأجنبية»[2]. وذلك ما عبر عنه "جورج قنواتي" الذي بيّن من خلال عبارته المشهورة «في البدء كان القرآن، (بأن بذور التصوف وعلم الكلام والفلسفة والحكمة وكثير من العلوم الأخرى إنما وجدت في القرآن أولا، فرعاها العرب والمسلمون، ونموها بما أضافوه إليها من تراثهم وابتكاراتهم الخاصة، أو مما اقتبسوه من الثقافات الأخرى)» [3].

إلا أن رودنسون لم يف بوعده ولم يطبق المعيار النقدي نفسه الذي طبقه على النظريات المتداولة لتفسير نشأة الحضارة الإسلامية، حينما تعلق الأمر بالنظريات المتداولة لتفسير نشأة الإسلام أو ما يعرف بقضية المصادر الأجنبية للقرآن، بل نظر إلى هذه القضية بمنظار القرون الوسطى مع بعض التغيير في الأسلوب والتعبير. أما الجوهر فقد أخذ حكم المسلمات التي لا تقبل النقاش، وهو نفي الطبيعة الإلهية للقرآن الكريم، ولذلك نجده يردد في

---

(1)- عبد الرزاق هرماس: مطاعن المستشرقين في ترجمة القرآن، الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة الكويت، ص14 ع38، أوت، 1999، ص84.

(2)- محمد توفيق حسين: مرجع سابق، عالم الفكر، ص534.

(3)- المرجع نفسه، ص 534.

مقال نشره عام 1957تحت عنوان "حياة النبي و المشكلة الاجتماعية لأصول الإســـلام"، «إن الديانات غير العربية كان لها تأثيرها الذي أضفته على الروح الدينية لمحمـــد، مـــن خـــلال أفكارها وخبراتها، وإن هناك العديد من الدراسات التي تمت في هذا الصدد توضح تأثير كـل من اليهود والمسيحية على النبي...»[1].

ولقد واصل رودنسون دفاعه على قضية المصادر الأجنبية للقرآن في كتابـــه الـــذي أنجزه عام 1961 حينما قال: «كان الرسول يعرف أهم الأفكار الجديدة التي كـــان يحملـــها اليهود والنصارى، وكان يتعاطف مع الاتجاهات التوحيدية ولكنه أراد أن يبقى عربيا، لذلـك لم يكن يفكر في أن الانفصال عن إخوانه العرب»[2].

هكذا يتضح لكل ذي عقل أن الاستشراق لم ينس يوما من الأيام أصله العقدي الـــذي قام من أجله ورافقه في كل مرحلة من مراحله بالرغم من المحاولات الجدية التي بذلها العديد من المستشرقين.

المطلب الثاني: المنطلقات الفكرية

بدأت أزمة الفكر الغربي مع الدين أثناء النهضة الحديثة، فقد كان الدور الذي تقوم به الكنيسة مخالفا تماما لما ينبغي أن تقوم به من الدعوة للخير والصلاح والعفـــو، والتســـامح، حيث سعت بكل إمكانياتها إلى الحفاظ على نفوذها وعلى مكانتها الاجتماعية، إذ كانت تمثـــل الطبقة الأولى في السلم الاجتماعي للمجتمع الأوروبي، مع (طبقة الفرسان) [3].

ولأجل الحفاظ على مكانتها تلك قامت بإصدار العديد من القوانين والتشريعات التـــي تخدم الكنيسة ورجل الدين ولا تخدم المسيحية بل تسيء إليها، كما حاولت الكنيسة الســـيطرة على الفكر والوقوف إلى جانب الجهل ضد العلم، الذي بات خطرا يهدد وجودها كسلطة دينية (زمنية) عندما يكشف للجماهير الأوروبية عن فساد أفكارها ومعتقداتها.

ولذلك ارتأت أنه لا سبيل إلى الحفاظ على سلطتها تلك إلا بالقمع والتعذيب والتنكيـــل، فقامت بإنشاء محاكم التفتيش بطلب من الراهب تور كامندا، حيث أصدرت هذه الأخيرة فيمـــا بين سنتي (1484-1499م) الأحكام التالية:

---

(1)-ماكسين رودنسون، نقلا عن: عبد الرزاق هيرماس: مرجع سابق، التشريعة والدراسات الإسلامية، ص97.

(2)-Maxime Robinson : Op Cit, p.93

(3)-[illegible] 101

- حكمت على عشرة آلاف ومائتين وعشرين شخصا (10220) بأن يحرقوا وهم أحياء فاحرقوا.
- وعلى واحد وستين ألف وثمان مائة وستين شخصا (61860) بالشنق بعد التشهير بهم.
- وعلى سبعة وتسعون ألف وثلاثة وعشرون شخص (97023) بعقوبات مختلفة[1].

كان هذا موقف الكنيسة والمسيحية من العلم والعقل والحرية.

إن هذه التجربة المريرة التي عاشها الإنسان الغربي مع الدين تسببت له في إحداث القطيعة بين الدين والفكر، الذي راح يبحث عن الحل لمشاكله وهمومه خارج إطار الدين، ولم يجد أمامه إلا طريق العقل فارتمى في أحضانه يستنجد به في حل قضاياه الفلسفية والاجتماعية، فأدى ذلك إلى ظهور الفلسفات والمذاهب الفكرية التي تؤمن إيمانا مطلقا بالعقل وبقدرته على إسعاد البشرية، وتخليصها من المآسي والمتاعب التي تسببت فيها الكنيسة، وكانت أولى هذه المذاهب الفكرية العلمانية.

أولا: العلمانية

هي البديل الذي طرحه الفكر الأوروبي للخروج من أزمته التي تسببت فيها تعاليم المسيحية في العصور الوسطى.

1-العلمانية لغة: لفظ العلمانية هي [ترجمة خاطئة لكلمة (Secularisim) في الإنجليزية أو (Sécularité) بالفرنسية، وهي كلمة لا صلة لها بالعلم ومشتقاته على الإطلاق. فالعلم في الإنجليزية والفرنسية (Science)، والمذهب العلمي يطلق عليه Scientism نسبة إلى العلم، وفي العلم (Scientifique)][2].

وإن «زيادة الألف والنون غير قياسية في اللغة العربية، وإنما جاءت سماعا كقولهم (روحاني وجسماني ونوراني)»[3]، والذين قاموا بهذه الترجمة الجائرة هم نصارى الشام أمثال جروان السابق، الذين تبنوا فكرة أن لفظ "العلمانية" تنسب إلى العِلم لأجل التمويه ولكي

---

(1)-صبحي عبد الحفيظ قاضي: قضايا معاصرة في الحضارة الإسلامية، ط1، بيروت، دار الرائد العربي، 1984، ص30.

(2)-جروان السابق، الكتر (قاموس فرنسي عربي)، ط1، بيروت، دار السابق، 1984، ص1030.

(3)-إبراهيم أنيس وآخرون: معجم اللغة العربية، المعجم الوسيط، مطبعة مصر، 1961، ج2، مادة: علم، ص624.

يبينوا للمجتمع العربي بأن العلمانية هي الطريق الوحيد للنهضة والتقدم، مستشهدين في ذلك بتجربة المجتمع الغربي الذي وصل إلى تلك الدرجة من الرقي والتقدم بعد أن أبعد الدين عن كافة الأنشطة السياسية والاجتماعية والثقافية، وتوجه بكل قوته إلى العلم القائم على التجربة والاختبار، خصوصا وقد أثبت الواقع عجز الدين والكنيسة عن قيادة الحياة الإنسانية وتوجيهها نحو الوجهة الصحيحة، ويذهب "سلامة موسى" إلى أن: «الدين ظاهرة فردية تعبر عن العلاقة بين الإنسان والكون، وليس ظاهرة اجتماعية، وبالتالي فإن دخول الدين في علاقة مع أنظمة المجتمع السياسية، يؤدي حتما إلى اضطهاد رجال الدين للمفكرين والعلماء باسم الدين، وهو بريء من ذلك الاضطهاد الذي يقوم به الكهنة»[1].

2-العلمانية اصطلاحا: بالاعتماد على التعريف اللغوي يتضح لنا أن لفظ العلمانية هو إقصاء الدين عن الحياة، وابتعاده عن مركز التوجيه في حياة الإنسان، وهذا ما أقرته دائرة المعارف البريطانية (مادة: Secularism)، حيث جاء مدونا في إحدى صفحاتها أن العلمانية هي: «حركة اجتماعية تهدف إلى صرف الناس وتوجيههم من الاهتمام بالآخرة إلى الاهتمام بهذه الدنيا وحدها، وذلك أنه كان لدى الناس في العصور الوسطى رغبة شديدة في العزوف عن الدنيا والتأمل في الله واليوم الآخر، وفي مقاومة هذه الرغبة طفقت الـ"Secularisme" تعرض نفسها من خلال تنمية النزعة الإنسانية...، وظل الاجتهاد إلى تحقيق (Secularisme) يتطور باستمرار خلال التاريخ الحديث كله، باعتباره حركة مضادة للدين ومضادة للمسيحية»[2].

ويقول معجم علم الاجتماع المعاصر لمؤلفه "طوماس فورو هلت" (Thomas Ford Heult) الذي أورد ثلاث مواد لها صلة بمصطلح العلمانية: « (علماني Seculaire)، (علمانية Secularisation)، و(مجتمع علماني Secular société)، بأن (كلمة علماني) لها

---

[1]-سلامة موسى: نقلا عن: أحمد محمد حماد عبد الحق، فلسفة المشروع الحضاري (بين الإحياء الإسلامي والتحديث العربي)، ط1، سلسلة الرسائل الجامعية، 16، (قضايا الفكر الإسلامي)، ط2، المعهد العلمي للفكر الإسلامي، 1416هـ 1995م، ج2، ص600.

[2]-سفر الحوالي: وباء العلمانية وهل له مرور في العالم الإسلامي، ط1، الليلدة، دار ابن تيمية، 1409هـ، ص16.

عدة معاني من بينها (الدنيوي، غير الروحي، وغير الديني)، ومن هنا يقف العلماني على طرف النقيض من المقدس».

كما تعني «تراجع وانحصار الإيمان بالعقائد الدينية التقليدية في مرحلة معينة»[1].

إن تعريف العلمانية بهذه الكيفية لا يعبّر عن المعنى الحقيقي لهذا اللفظ، وإنما يتعرض بالحديث لجزء منه، فقط كما عبر عنه معظم الكتاب العرب[2] أمثال "فرح أنطوان" الذي عرف العلمانية من خلال الدعوى إلى أمرين متلازمين «الأول فصل ما هو جوهري على ما هو عرضي في جميع الأديان، فالجوهري هو مجموعة المبادئ والعرضي هو مجموعة الشرائع العامة والخاصة، والثاني فصل السلطة الروحية عن السلطة الزمنية»[3]. و"فؤاد زكريا" الذي يضيف: «بأن العلمانية هي الدعوى لفصل بين الدين والسياسة»[4].

ومن الواضح أن هذه التعاريف التي تركز على الناحية السياسية وتتجاهل أو تغض الطرف على النواحي الأخرى للمجتمع (الناحية الاقتصادية والثقافية والمعرفية)، تنظر إلى العلمانية على أنها حركة أو موقف ظهر إلى الوجود نتيجة ظروف خاصة بالمجتمع الغربي، منها ما يتعلق بالنصرانية كدين، ومنها ما يتعلق بالكنيسة كمؤسسة دينية تخطت حدود الدائرة المرسومة لها.

وعليه فالعلمانية بهذا المعنى لا ترفض الدين، ولا تتناقض معه، لكنها ترفض أن تكون هناك سلطة دينية أو أن يكون للوحي دخل في شؤون الدولة أو الحكومة.

ولكن وجد من المفكرين من رفض هذه التعاريف التي يصفها البعض بالسلبية أو التي تدعي الحيادية[5]، أمثال: "كامبيل ولاري شاينر" (Larry Shiner) ليقرروا بأن العلمانية أكبر

---

(1)- عبد الوهاب المسيري عزيز العظمة: العلمانية تحت المجهر، ط1، دمشق- بيروت، دار الفكر، دار الفكر المعاصر، 2000، ص60.

(2)- عزيز العظمة: العلمانية من منظور مختلف، ط1، بيروت، مركز الدراسات الوحدة العربية، 1992، ص19.

(3)- أحمد محمد جاد عبد الحق: مرجع سابق، ص580.

(4)- عبد الوهاب المسيري، عزيز العظمة: مرجع سابق، ص65.

(5)- المرجع نفسه، ص61.

(6)- [illegible] ص707.

من كونها تعبيرا عن موقف أو إجراء جزئيا لا علاقة له بالأمور النهائية (التصور العام للكون والحياة)، ولذلك نجد في نفس المعجم (معجم علم الاجتماع المعاصر) تعريفا اخر جاء لاحقا يعرف العلمانية «باعتبارها منظومة متكاملة تحتوي على ميتافيزيقا واضحة ورؤية شاملة للكون»[1]، ويضيف كامبيل «أن للعلمانية تعريفات عدة يتحدد مجال كل تعريف منها على أساس موقف أصحابه من الدين، فالعلمانية تعني:

- الامتثال لحقائق العالم والتطابق معها مع عدم وضع اعتبار للدين.
- رفض كل ما يمكن أن يكون مقدس في العالم.
- خلو المجتمع من أي شكل من أشكال الدين.
- الفصل التام بين سلطة الكنيسة والدولة»[2].

ويعتبر "عبد الوهاب المسيري" بأن هذه التحديدات للفظ العلمانية تبين لنا بوضوح بأن الفلسفة التي تستند إليها العلمانية هي الفلسفة المادية[3].

3-أوجه العلمانية: يتضح مما تقدم أن العلمانية في ظهورها اتخذت وجهين اثنين:

-الوجه الأول: ويعبر عن مفهوم العلمانية في بداية ظهورها في القرن السابع والثامن عشر (17-18م) حينما اتخذت شعار "فصل الدين عن الدولة". والعلمانية بهذا الوجه لا تنكر الدين وإنما ترفض أن يكون للدين أو الوحي سلطة زمنية (دنيوية)، وترى بأن الدين ظاهرة فردية وأمر شخصي لا علاقة له بأنشطة الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية، تنحصر مهمته «في: ركن العبادات والطقوس التي يتطلبها كل نظام ديني، وليس لديها (أي العلمانية) أية تفرقة في هذا بين اليهودية والمسيحية والإسلام، بعد أن يفرغ تماما عن مضمونه السياسي ويصرف النظر عن بعض أحكامه التي لا تتحقق إلا من خلال الدولة»[4].

---

(1)-عبد الوهاب المسيري، عزيز العظمة: المرجع السابق، ص61.

(2)-المرجع نفسه، ص62-63.

-أحمد محمد حاد عبد الحق: مرجع سابق، ص707.

(3)-عبد الوهاب المسيري، عزيز العظمة: المرجع السابق، ص63.

(4)-[illegible] ص57.

-الوجه الثاني: وهو الأخطر إذ تدعو العلمانية من خلاله إلى التخلي عن الدين وتركه جانبا لأنه في نظرها يمثل العائق الوحيد في سبيل تقدم الإنسان ورقيه.

ولقد تأثر مفهوم العلمانية في هذه الفترة (القرن التاسع عشر) بـ جملة من الأفكار موجهة جميعها ضد الدين وضد أن يكون للإيمان المسيحي دورا في الحياة الأوروبية كمذهب المؤلهة أو (الدين الطبيعي) الذي يدعو للإيمان بالعقل وبقدرته على إسعاد البشرية عوضا عن الإيمان بالدين، وبسلطة الوحي، فالعقل بمفرده قادر على إدراك معاني الخير والشر دون الحاجة إلى وجود وحي سماوي.

فالدين فردي عقلي إنساني «إنساني لا بمعنى أنه مشغول بالقيم العليا الإنسانية أو (بالإنسان)، كما ينبغي أن يكون في صورته الكريمة اللائقة بإنسانيته، ولكن بمعنى أن يكون الإنسان -وليس الله- هو الذي ينبغي أن يكون مصدر المعرفة، وأن الفكر الإنساني -لا الوحي الرباني- هو المرجع الذي يرجع إليه الإنسان في النظر إلى أمور حياته ومتطلباته»[1]. والعلمانية بهذا الوجه لا تنكر وجود الله وليس معارضة للدين، بشرط أن لا يكون له أي دور في المجتمع.

أما إذا حاول الدين أو (الوحي) أو يتجاوز هذا الإطار المحدد له (الإطار الفردي)، فإن العلمانية في هذه الحالة تعتبر معارضة للدين ورافضة له تماما[2].

وجملة القول أن العلمانية وطبقا لتبنيها لمذهب الدين الطبيعي تعبر عن أحد أنواع الإلحاد وهو الإلحاد الشكلي[3]، الذي يقوم على الاعتراف بوجود إله خالق للكون، مع إلغاء وحي الرسالات وعدم الاعتراف بنبوة الأنبياء، لذلك اعتبر الباحث الغربي "بتر جاي"[4] (Petr Gay) «العلمانية والإلحاد صنفان، الإلحاد النشيط في مقابل الإلحاد الفكري والتأملي»[5].

---

(1)-محمد قطب: مذاهب فكرية معاصرة، ط7، القاهرة، دار الشروق، 1993، ص261.

(2)-أحمد محمد جاد عبد الحق: مرجع سابق، ص709.

(3)-انظر: الفصل الأول من البحث، ص62

(4) .بيتر جاي: مؤرخ حركة الاستنارة التي يطلق عليها البعض (الوثنية الجديدة)، من مؤلفاته: "يهودي بلا إله"، "فرويد والإلحاد وتأسيس التحليل النفسي". عبد الوهاب المسيري، عزيز العظمة، مرجع سابق، ص .

(5)-عبد الوهاب المسيري، عزيز العظمة: المرجع السابق، ص60.

وبهذا التصور الغربي العلماني الرافض للمعرفة الغيبية، توجه المستشرقون لدراسة موضوع لا سبيل إلى معرفته إلا من طريق الوحي، وهو موضوع النبوة، فما كان منهم إلا الإنكار والرفض لوجود أية قوة أو دعم إلهي لدعوة النبي ﷺ، بل اعتبروا أن دعوته تلك هي من إبداع عقله الكامل وفكره الراجح.

ثانيا: المذهب الوضعي

هو صورة من صور الفكر الإلحادي الغربي يسعى إلى إلغاء المعرفة الدينية وإقصاء عامل الدين من البناء الاجتماعي والحضاري للأمة؛ باعتباره إيديولوجية سلبية أوجدها الإنسان الضعيف الجاهل ليعبر بها عن تخوفاته وآماله وأمنياته.

فذاع الاعتقاد حينئذ: بأن الدين هو العائق الذي يمنع الإنسان من التحرر والازدهار، وأن الإنسان بتجرده من المعتقدات الدينية سيسترجع قيمته السامية التي سلبت منه بمجرد إيمانه بوجود رب مسيطر عليه ومستحوذ على الفضائل كلها[1].

أولا: المذهب الوضعي

1-تعريف المذهب الوضعي:

والوضعية في جملتها تذهب إلى جعل المطلق محل النسبي، أو استبدال الثوابت التي تستند إلى الدين (الوحي) بنظام من المتغيرات التي تستند إلى العقل، وترى «أن البحث عن العلل الأولى أو الحقيقة النهائية للوقائع أمر غير معقول وخالي من أي معنى... وعلى الإنسان أن يقصر نفسه على ما هو نسبي دون أن يطمح ببصره إلى معرفة الحقيقة الواقعية الدقيقة للكشف عنها»[2].

أما في مجال المعرفة فالوضعية ترفض كل تفكير ميتافيزيقي (غيبي) لا يخضع للتجربة والملاحظة، وتعتقد «بأنه مادامت المعرفة الحقيقية كلها مؤسسة على الخبرة الحسية، ولا يمكن أن نتقدم إلا بواسطة الملاحظة والتجربة، فإن المحاولات التأملية أو (الميتافيزيقية)

---

(1)-أحمد عروة: العلم والدين مناهج والمفاهيم، ط1، دمشق، دار الفكر، 1987، ص9.

(2)-عبد الرحمن بدوي: مرجع سابق، ج2، ص313.

محمود مقبول: مرجع سابق، ص 254.

لاكتساب المعرفة عن طريق العقل -غير المحدود بالخبرة- لا بد أن يتخلى عنها لصالح مناهج العلوم الخاصة»[1].

وفي تصور الوضعية، أن رفض المعرفة الغيبية هو استجابة لقانون التطور الذي قال عنه "أوغست كونت" «إن هناك قانون يدفع الإنسانية إلى التقدم، وما بنو الإنسان إلا أدوات لتحقيق هذا التقدم فمتى وعينا هذا القانون، بدلا من أن نكون مسبوقين به عن غير إرادة استطعنا أن نجعله منه قاعدة لناموس أخلاقي جديد»[2].

ومعنى هذا الكلام أن قانون التطور سيؤدي حتما إلى تحطيم الأسلوب الغيبي، إذ أن قيام النهضة وحدوث التقدم والازدهار مرهون بغياب اللاهوت وانتهاء دور الدين في الحياة.

ومن هذه الملاحظة القصيرة الأبعاد. كما عبر عنها "أحمد عروة" «بنيت جدالية واهية الأركان تدعي بأن العلم والإيمان شيئان متناقضان، وأن الاكتشافات العلمية الحديثة لم تترك للمعتقدات الدينية ملجأ تأوي إليه إلا في مغارات الجهل وأساطير الأولين»[3].

كما انتشر القول في هذه الأثناء انتشر القول بأن العقائد والأديان مصدرها إنساني اخترعها الإنسان البدائي بسبب خوفه من قوى الطبيعة المحيطة به، وبسبب جهله بالقوانين العلمية التي تحكم تلك الظواهر الطبيعية، وقرر العديد من علماء الاجتماع أمثال "دوركايم" وأوغست كونت وفيورباخ وهيوم بأن الظاهر الدينية هي تعبير عن الآمال والرغبات الإنسانية[4]. «إذ أن أول الأفكار في الدين نجمت من الاهتمام والقلق بالنسبة لحوادث الطبيعة، ومن الآمال والمخاوف التي تشحذ العقل الإنساني»[5].

ولأجل الاستدلال على هذه النظرية قسم "أ.كونت" العقل الإنساني من الناحية التاريخية إلى ثلاث مراحل، حيث يقول: «البشر منذ وجودهم وهم يحاولون فهم الطبيعة

---

(1) -عصام الدين محمد علي: ديانات ومذاهب أهل العالم، دط، الإسكندرية، دار المعارف، دت، ص385.

(2) -عبد الرحمن بدوي: المرجع السابق، ج2، ص314.

(3) -أحمد عروة: مرجع سابق، ص6.

(4) -عبد المنعم الحفني، موسوعة الفلسفة والفلاسفة، دط، دون، دم، 1999، ج1، ص610.

(5) -[illegible] الإنسان والأديان، ج1، المرجع [illegible] 1985، ص92.

والإنسانية، بيد أنهم لم يفكروا دائما بواسطة نفس الطرائق، ولم يصلوا إلى ما هم عليه حاليا إلا بمرورهم بثلاثة أحوال أو عصور متتالية: العصر اللاهوتي، العصر الماورائي، العصر الوضعي»[1].

2-مراحل الفكر الإنساني في نظر المذهب الوضعي

2-1-العصر اللاهوتي: ويعتبره أ.كونت بداية التفكير الإنساني، وفيه كان العقل الإنساني عاجزا عن تعليل الظواهر الطبيعية التي كان يشاهدها في حياته (كالمطر والرعد والزلازل ونمو الأشجار...الخ) تعليلا طبيعيا (علميا)؛ فكان يعزو ما يراه ويشاهده من قوى خفية إلى أسباب مجهولة، واقتنع في قرارة نفسه بأن هناك قوى إلهية لا يراها هي المسؤولة عن حدوث تلك الظواهر[2]. «فلا إن نزلت الصاعقة على الأرض، لأن "زوس" إله الآلهة رمى بها بذراعه، ولئن هبت الرياح فلأن إيول إله الريح فتح قرب الماء»[3].

ولقد ربط أ.كونت على غرار علماء عصره (ق 19م) بين الدين والتطور الاجتماعي والعقلي للبشرية، ولذلك جاءت تسميته للطور الأول باللاهوتي أو الخرافي نظرا لتعلقه بالإنسان البدائي ذو العقلية البسيطة الساذجة.

2-2-العصر الميتافيزيقي (المجرد): وهو في نظر "كونت" لا يختلف كثيرا عن العصر اللاهوتي، فلا زال العقل الإنساني على حالته الصبيانية، والذي تغير هنا أن هذا العقل بدلا من أن يفسر الظواهر الطبيعية بردها إلى أسباب خارقة عن الطبيعة؛ أصبح يفسرها بوجود قوى مجردة هي المسؤولة عن حدوث تلك الظواهر[4] «فلئن أحس الحيوان فلأن له نفس حسيّة، ولئن نما النبات فلأن له نفسا نباتية، ولئن تمازجت الأجسام فلأنها ذات تعانق وتقارب...الخ. وبكلمة موجزة أنسوا في أنفسهم القدرة على تجاوز الظاهرات واكتناه المطلق»[5].

---

(1)-اندري كريسون: مرجع سابق، ص319.

(2)-عبد الرحمن بدوي، مرجع سابق، ج2، ص312.

(3)-اندري كريسون، مرجع سابق، ص320.

(4)-عبد الرحمن بدوي، المرجع السابق، ج2، ص312 313.

(5)-اندري كريسون، المرجع السابق، ص320.

2-3-العصر الوضعي (العلمي): وهو في نظر أ. كونت يعبر عن مرحلة النضج الإنساني التي توقفت عند حدودها عملية تطور الفكر الإنساني بعد مرورها بمرحلتي الطفولة والمراهقة[1].

وفي رأي كونت أن الفكر الإنساني ببلوغه لهذه الدرجة من النضج والتقدم فهو لم يعد في حاجة إلى وجود تلك العقائد والآراء الدينية التي ارتبطت بعقلية الإنسان البدائي، ووجدت بسبب جهله وخوفه من تلك الظواهر الطبيعية المحيطة به، حتى استنبط البعض من هذا القانون أن «تطور الإنسانية يبتعد بها دائما عن اللاهوت لكي يفضي بها إلى حالة نهائية لا يجد فيها الدين مكانا»[2].

ولقد تعرضت نظرية "أ.كونت" قانون الأحوال الثلاث في تفسير تطور العقيدة الدينية للعديد من الانتقادات من الباحثين الغربيين أنفسهم، فهذا ليفي بريل يبين أنه «ليس موضوع قانون الحالات الثلاث هو أن يعبر عن التطور الديني للإنسانية وهو لا يتعلق إلا بتقدم الذكاء الإنساني...، فهو القانون العام لتطور التفكير، فنحن نرى أن الفصل بين التطور الديني والتطور الفكر الإنساني وإن كنا لا نساير "كونت" في كافة استنباطاته أو تصوراته الخاصة بحقيقة الدين»[3].

أما أندري كريسون فيتساءل عن حتمية ذلك الترتيب الذي يتعارض مع المنطق والتاريخ، مبينا لنا «أن البشر اهتموا بجميع العلوم في كل العصور، ولكنهم لم ينجحوا إلا بمقتضى الترتيب الذي كان متوقعا، فالعلم لا يتشكل إلا بعد اكتسابه مفهوما واضحا عن مجاله، وعن الطريقة الملائمة له. وعن بعض النتائج الثابتة، فإذا سلمنا بذلك رأينا بوضوح أن الرياضات وحدها قد توطدت منذ القدم، وأن علم الحساب قديم جدا، والهندسة رسمت خطوطها الأساسية قبل التاريخ المسيحي، والجبر علم عربي، وكان لا بد من أبحاث ديكارت ونيبنيتز ونيوتن لتحقيق ازدهار الرياضات العليا»[4].

---

(1)-اندري كريسون، المرجع السابق، ص322.

(2)-محمد كمال جعفر، مرجع سابق، ص90.

(3)- المرجع نفسه، ص90.

(4)- اندري كريسون، مرجع سابق، ص328، 329.

هذا من جهة. ومن جهة أخرى فإن تطور المجتمع لا يدل بالضرورة على تطور العقيدة الدينية «وصحيح أن هناك أمثلة لتوازي التقدم الحضاري مع التقدم الديني في مظهره الاجتماعي، وصحيح كذلك أن هناك أمثلة للتعارض بين هذين الخطين، فنجد حضارة مادية وفكرية ممتازة مع عقيدة دينية ساذجة تعبد الأصنام والآلهة التي تتمتع بصفات بشرية»[1].

إن إنكار الوضعية لحقيقة الألوهية ولوحي الأنبياء بناء على نظرية أ.كونت قانون الأحوال الثلاثة، التي تزعم بأن الدين تصور أو اختراع أكثر من كونه وجودا خارجيا ميتافيزيقيا، فهذا الموقف يتطابق تماما مع الفلسفة المادية التي تنكر الوحي وتنكر الرسالات. ولا تعترف بغير طريق الحواس كمصدر للمعرفة.

وإن افتتان أ.كونت بالعلم وبقدرته على حل مشاكل المجتمع هي التي دفعته إلى تبني تلك النظرية، فلقد رفض الاعتقاد بالدين (الميتافيزيقي) ليجد نفسه أسير دين جديد هو الدين العلمي أو ديانة العلم، إذ أن العلم بالنسبة لـ"كونت" لم يكن مجرد طريقة للبحث، أو منهج للكشف عن الحقائق، بل أقرب ما يكون إلى عقيدة دينية لا يتردد الوضعيون في الإفصاح عنها، من ذلك مثلا ما قاله دوركايم «إن العلم وحده هو أعد المفاهيم الأساسية التي تهيمن على تفكيرنا... وقبل أن تتكون العلوم كان الدين يقوم بنفس المهمة، لأن كل ميثولوجيا تجتمع على تصور مهيأ مبدئيا للإنسان والكون، وقد كان العلم وريثا للدين»[2].

وكانت نتيجة ذلك التعارض بين العلم والدين «حدوث فراغ في قواعد انطلاق الفكر الإنساني، مما أتاح الفرصة لأصحاب النظريات والفلسفات أن يصلوا المعرفة الحديثة بالفلسفات المادية ذات الأصل اليوناني الوثني القديم لتملأ الفراغ الحادث»[3].

إذن بهذه الروح الوضعية المادية توجه الكتاب الغربيون لدراسة الوحي والنبوة في العقيدة الإسلامية، فكان من الطبيعي أن تتجاهل تلك الدراسات لخصائص ومميزات النبوة في

---

[1]- محمد كمال جعفر، المرجع السابق، ص90.

[2]- إميل دركايم: التربية وعلم الاجتماع، ص56. نقلا عن: محمد أمزيان: "العلوم الإنسانية في المنظومة الغربية، دراسة نقدية في الأسس المنهجية"، المنعطف، ع9، (1415هـ-1994م)، وحدة، ص85.

[3]- هيام الملقي: ثقافتنا في مواجهة الانفتاح الحضاري، ط1، الرياض، دار الشواف للنشر والتوزيع، (1415هـ 1995م)، ص126.

الإسلام[1]، وأن تركز على عامل واحد هو عامل الإنسان، والمتمثل في شخص النبي، ولذلك اعتبرت قضية النبوة والوحي ظاهرة من الظواهر الاجتماعية، وكونها ظاهرة فهذا يعني أن حدوثها كان غير متوقع أو غير منتظر، أو أنها أمر مبهم يحتاج إلى التفسير والتحليل، بالبحث عن الأسباب والشروط التي حتمت وقوع ظاهرة النبوة (وقوع النتائج)، وعليه فإن ما قام به المستشرقون حيال قضية النبوة كان استجابة لعقيدتهم العلمية لا أكثر.

ثالثا: المفهوم الغربي للتطور

بعد ما قاله أ.كونت عن تطور العقل البشري من الخرافة إلى الدين إلى الوضعية، جاء دور شارلز داروين في نهاية القرن التاسع عشر بمذهبه الإحيائي الفلسفي ليحسم الصراع القائم بين الدين والعلم منذ أزيد من ثلاثة قرون؛ وكانت نهاية ذلك الصراع لصالح العلم على حساب الدين، أو لصالح التطور على حساب الثبات، أو لصالح النسبي على حساب المطلق.

فكيف تمكن تشارلز داروين من وضع حد لهذا الصراع؟

وما الجديد الذي أضافه لمفهوم التطور؟

وكيف استخدمت الداروينية كأداة لنشر الإلحاد في المجتمع الغربي؟

1-تعريف النظرية الداروينية (نظرية التطور)

هي نظرية علمية في تفسير كثرة الأنواع البيولوجية في الطبيعة، فقررت بأن العوامل الرئيسية في تطور الكائنات الحية هي التحول والتركيب من أنواع أبسط منها، وهذه من أخرى أبسط منها إلى بداية السلسلة التي هي الكائنات ذات الخلية الواحدة[2].

ولتوضيح ذلك يقول "داروين" «إن الطبيعي إذا تدبّر أصل الأنواع، وأمعن النظر فيما يقع بين الكائنات العضوية من الحاجيات المتبادلة، واستيطانها واقتسام الكائنات بقاع الأرض بحسب كفاءتها، وما يحدث بين أجنحتها من التشابه ثم تعاقب وجودها خلال الأزمنة التي

---

(1)-انظر: الفصل الأول من البحث، ص 3

(2) محمود يعقوبي: مرجع سابق، ص132.

م. روزينتال، ب. يودين: مرجع سابق، ص536.

... الخولي: المرجع السابق، ص 48.

تكونت فيها طبقة الأرض، انتهى به البحث إلى أن الأنواع لم تخلق مستقلة، منذ بدأ التكوين. بل نشأت كالتنوعات بعضها من بعض، وهذه النتيجة إذا أيدتها البراهين القيمة فلا جرم أنها غير كافية لإقامة الدليل القطعي التام ما لم يبين الباحث كيف تحولت صفات الأنواع التي تأهل بها الأرض على إيغالها بالكثرة، حتى أحرزت كمال ترتيبها الآلي وتعادلها النسبي، مما يبعث في كثير من الحالات على التأمل والعجب»[1].

ويقول أيضا: «لا يمر بي خلجة من الشك في أن ما كنت أقطع به كما أقطع به الطبيعيون من القول بأن كل نوع من الأنواع قد خلق مستقلا بذاته خطأ محض، وإني اليوم على تمام الاعتقاد بأن الأنواع دائمة التغاير، وأن الأنواع التي تعتبرها من توابع الأجناس هي أعقابا لسلسة عن ذلك النوع»[2].

ويذهب داروين إلى أن عملية التحول تخضع لعمليتين اثنين هما الصراع من أجل البقاء والانتخاب الطبيعي.

-**التناحر على البقاء:** يقرر "دروين" على أن الكائنات الحية تنزع بطبيعتها إلى التكاثر والازدياد، ولكن ما تحتاج أثناء هذه العملية والتكاثر يبقى محدودا كالطعام والمأوى وأماكن التكاثر، ولذلك يحدث الصراع بين الأنواع في سبيل الحصول على تلك الاحتياجات الضرورية للبقاء[3].

-**الانتخاب الطبيعي (البقاء للأصلح):** وهو نتيجة الصراع على البقاء، فالأنواع التي تمكنت من البقاء والتحول في سلم الرقي هي التي تمكنت من التكيف مع البيئة الخارجية عن طريق مقاومتها للكوارث المفاجئة التي تحدث في الطبيعة.

أما الأنواع الهالكة أو الفانية، فهي التي فشلت في التكيف مع البيئة الخارجية، وعليه فالنوع الذي بقي وتكاثر ونمى هو النوع الأصلح والأنسب للبقاء بين أنواع الكائنات الحية[4].

---

[1]-تشارلز دروين، أصل الأنواع، تر: إسماعيل مظهر، دط، بيروت، مكتبة النهضة، 1971، ص65.

[2]-المرجع نفسه، ص69.

[3]-أحمد محمد حاد عبد الحق: المرجع السابق، ص791.

[4]-م. روزنتال، ت.يودين: مرجع سابق، ص536.

«وعلة ذلك أن الطبيعة حسب دورين وهبت بعض الكائنات عوامل البقاء ومؤلهات حفظ النوع بإضافة أعضاء أو صفات جديدة تستطيع بواسطتها أن تتواءم مع الظروف الطارئة»[1].

ولقد استثنى داروين الإنسان من الخضوع لقانون التطور (التناحر على البقاء، والبقاء للأصلح)، ولكن هذا الاستثناء لم يدم طويلا فسرعان ما تراجع دروين عن حكمه هذا ليعلن في كتابه أصل الإنسان في عام (1859) أن الإنسان كغيره من الكائنات الحية «وليد سلسلة طويلة من التطورات المتعاقبة، بدأت من جرثومة في مستنقع آسن وانتهت في خط سيرها المتخبط إلى صورته الراهنة»[2].

إن الإنسان في ظل تعاليم داروين هو نتيجة لعدة تحولات بدأت جرثومة صغيرة في مستنقع ثم تحولت إلى حيوان (من نوع القردة) ومنه تحول وارتفع إلى نوع إنسان (وهي مرتبة الكمال). وكانت نتيجة الإيمان بهذه النظرية اتساع نطاق الفكر الإلحادي وانتشاره بين الجماهير بعدما كان مقتصرا على فئة العلوم والمثقفين، فلقد عمل داروين تكملة لجهود غيره من العلماء الرافضين للأسلوب الميتافيزيقي في التفكير[3]، لتقديم صورة مادية للإنسان والكون والحياة، عندما أعلن بأن الإنسان كغيره من الكائنات الحية يتكون من العناصر الموجودة في الطبيعة، ولا أثر للعنصر الروحي في تكوينه.

كما قام بإلغاء فكرة الغائية حينما قرر بأن كل شيء في الكون هو خاضع لقانون التطور وأن بقاء الأنواع أو اندثارها يتوقف على عملية الانتخاب الطبيعي (البقاء للأصل). التي تحدث آليا دون تدخل من أي قوة من خارج الطبيعة (المادة)، إذ أن «الطبيعة تعمل على التوازن بين أنواع الكائنات الحية الواحدة وفق البيئات المختلفة، فلا يعيش فيها إلا القوي الذي يتلاءم مع تلك البيئة»[4].

---

(1)-سفر الخوالي: مرجع سابق، ص48.

(2)-صفر الخوالي، مرجع سابق، ص50.

(3)-لقد عضدت نظرية التطور النظريات العلمية الطبيعية لكل من كانت، ولامارك، وليل للاستدلال على فشل الأسلوب الميتافيزيقي في التفكير. م.روزنتال، ت. يودين: مرجع سابق، ص536.

(4)-بكير سعيد أعوشت: القرآن ومذهب داروين، ط1، قسنطينة، دار البعث للطباعة والنشر، (1404هـ-1983م). ص73.

افترضت نظرية داروين أن كل شيء في الكون يتطور من السهل البسيط إلى المعقد الدقيق، ويتدرج من الأحط إلى الأعلى في طريقه نحو الكمال، ومن هذا المنطلق جاء تعميم تطبيق نظرية داروين على كل مجالات الحياة الإنسانية بما فيها الدين، باعتباره ظاهرة إنسانية، ذلك ما توصل إليه أنصار الداروينية في العالم «واعلم أن مذهب داروين كما يصح على الأنواع يصح على الديانات أيضا، فإن الديانات المختلفة كالأنواع تنشأ من أصل واحد، وتتحول بعضها من بعض، وتتنازع نظيرها، وكما أن الفائز من الأنواع في هذا التنازع هو الأنسب للأحوال الخارجية، هكذا الفائز من أنواع الديانات أيضا، ما كان أنسب لأحوال الزمان»[1].

وعلى هذا الأساس درس المستشرقون العقيدة الإسلامية فنظروا إلى الدين الإسلامي على أنه نظام عقائدي كغيره من الأنظمة الدينية التي عرفتها البشرية، معرض لعوامل التغير والتحول والارتقاء بسبب تغير الظروف المحيطة به، والمتمثلة في الفتوحات الإسلامية وما انجر عنها من توسيع لرقعة البلاد الإسلامية، وما رافق ذلك من رخاء اقتصادي ودخول شعوبا أخرى ذات عقائد وديانات مختلفة في الإسلام.

ويعتبر المستشرق المجري "جولد زيهر"[2] (Golde Ziher) أحسن ممثل لهذا الاتجاه النقدي التطوري من خلال مؤلفيه "العقيدة والشريعة في الإسلامي" و"مذاهب التفسير الإسلامي"، ولذلك «حاول أن يعلل تنوع المذاهب ونشوء الفرق بتغير الظروف والبيئات الجنسية والاجتماعية والسياسية التي انتشر فيها الإسلام»[3].

ذلك أن الغاية التي يسعى إليها جولد زيهر وغيره من المستشرقين هي نفي صفة الثبات عن الدين الإسلامي، ومعنى ذلك أن الإسلام قد أدى ما عليه في الماضي، أما الآن

---

[1]-أحمد محمد جاد عبد الحق: مرجع سابق، ص562.

[2]-جولد زيهر: (1850-1921م)، مستشرق يهودي مجري، عمل أستاذ في جامعة "بوداباست"، وفي أواخر القرن التاسع عشر رحل إلى الشرق الأدنى. بدأ مشواره العلمي بالكتابة على اليهود واليهودية بعدها انتقل إلى التأليف في مجال الإسلاميات، من آثاره: "العقيدة والشريعة في الإسلام"، "مذاهب التفسير الإسلامي". نجيب العقيقي: المستشرقون، ص410 وما بعدها.

[3] محمد توفيق حسين: مقال مأخوذ، ص528

ومع التطور العلمي والتكنولوجي الذي وصل إليه الفكر الإنساني فلم تعد هنـــاك ضـــرورة لوجوده لأن الأديان –كما مر بيانه– فكرة اخترعها الإنسان في مرحلته البدائيـــة المنحطـــة ليعلل بها الظواهر الطبيعية، أما الآن فيجب أن يزول الإسلام من حياة المسلمين تماما كمـــا زالت المسيحية من حياة المسيحيين.

والحق أن ما قام به رجال الدين من الوقوف في وجه التغيير والتطور والركون إلـــى الثبات والجمود، هو عمل يعكس حقيقة الديانة المسيحية التي ما وُجدت أصلا إلا لفترة زمنية محددة، وكان الدافع لظهورها هو الانحراف العقائدي والأخلاقي الذي ســـاد فـــي المجتمـــع اليهودي، وقد قال العلماء أن «الشرائع التي جاءت قبل الإسلام جرت فـــي نفـــوس النـــاس مجرى الدواء، إما معالجة إفراط أو معالجة تفريط، وكلما أصاب الإنسانية مرض انبعث الله نبيا من أنبيائه ليعالج ذلك المرض، ولأجل ذلك سمي الكفر والنفاق مرض»[1]، قال تعـــالى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾[2]. وقال المسيح عليه السلام : «لا يحتاج الأصحاء إلـــى طبيب بل المرضى»[3]، وكذلك كان التركيز في دعوة المســـيح علـــى الجـــانب الروحـــي والأخلاقي مع الإبقاء على شريعة موسى عليه السلام وهي التوراة.

إن الذي نستنتج مما تقدم أن المسيحية دعوة أو رسالة سماوية موجهة لبني إســـرائيل في فترة زمنية محددة، وعليه فإن كل محاولة لتجاهل هذا الأصـــل (خصوصيـــة الرســـالة ومحدوديتها الذي يعني عدم قابليتها للاستمرار والتغير والتطور)، سيؤدي حتما إلى حـــدوث الاضطراب والخلل في هذه الديانة.

لكن رسول المسيح "بولس الرسول" لم يرضه هذا الأمر، الذي أقرّه المســـيح عليه السلام. فراح يعلن للمسيحيين أن المسيحية هي دعوة لكل الناس وفي كل العصور، من خلال اكتشافه لعقيدة الصلب والفداء التي يدعي فيها بأن المسيح عيسى عليه السلام هو الإله المخلص لكل البشر، فأتى بادعائه هذا على هدم الديانة المسيحية من الأساس.

---

(1) الراغب الأصفهاني: الاعتقادات، ص36.

(2) سورة البقرة، الآية: 10.

(3) العهد الجديد، إنجيل متى 12 :10/13

وذلك ما حدث فعلا، ففي بداية القرن السادس عشر للميلاد بدأ الغرب المسيحي يكتشف هذه الحقيقة، وهي أن المسيحية ديانة ثابتة جامدة خاصة بفترة زمنية محددة مضت وانتهت، ولذلك فهي لا تقوى على الاستمرار ومواكبة التطور الذي يعرفه الفكر الإنساني. وبذلك حدثت الطامة الكبرى صراع ثم عداء ثم فراق بين المسيحية والعلم، أو بين الدين والعلم.

تلك هي إذن النتيجة التي وصل إليها الفكر الغربي في العصر الحديث، وهي أن الدين والعلم خطان متوازيان لا يلتقيان أبدا، وقاموا بتعميم هذه النتيجة على كل الأديان بما فيها الدين الإسلامي الحنيف.

إن إظهار الإسلام من قبل المستشرقين بصورة من يتحاشى التغير والتطور ويركن إلى الثبات والجمود فيه مغالطة وظلم كبير للإسلام، لأن هذا الدين يختلف تماما عن الديانة المسيحية، فلقد أرسل الله نبيه محمد ﷺ بالرسالة الخالدة لكل الناس، عبر كل العصور والأزمنة، ولأجل هذا اقتضت حكمته تعالى أن تكون طبيعة الدين الإسلامي مزيج متكامل ومتناسق من الثابت والمتغير.

فالثابت ما تعلق بالأهداف والغايات التي تحقق الغاية من الخلق وهي عبادة الله قال تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾[1]، قوله أيضا: ﴿وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾[2]، وقوله كذلك: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾[3].

والمتغير ما تعلق بالوسائل والطرق التي يتم بها تحقيق تلك الأهداف والغايات، وأكثر ما ترتبط بالأمور الدنياوية، قال تعالى: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[4]. وقال رسول الله ﷺ : «أنتم أعلم بأمور دنياكم»[5].

---

[1]- النساء، الآية: 58.

[2]- المائدة، الآية: 49.

[3]- المائدة، الآية: 3.

[4]- المائدة، الآية: 3.

[5]- رواه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب: وجوب امتثال ما قاله شرعا دون ما ذكره ﷺ من معايش الدنيا على سبيل الرأي، ج7، ص95 ... رواه ابن ماجه في السنن، كتاب الرهون، باب تلقيح النخل، ج2، ص825

فما أكبر الفارق بين التطور الذي يدعو إليه الإسلام، والتطور الذي ينادي به أصحاب مذهب التطور «إن الإسلام يرفض الجمود ويدعو إلى الحركة والحركة الدائبة المستمرة، ولكنه يريدها حركة هادفة عاقلة، لا حركة هوجاء مخرّبة، يريدها حركة النهر الدافق في مجراه الأمين، لا حركة السيل المتهدر المنطلق بلا مجرى ولا ضوابط ولا حدود، إن النهر والسيل كلاهما يجري ويتحرك بماء عذب، ولكن النهر يشيع الحياة والخضرة والبركة حيثما جرى، والسيل يعقبه الدمار والخراب ويغرق الزرع والضرع حيثما سار»[1].

رابعا:المفهوم الغربي للتجريب

لبنة أخرى تضاف إلى البناء الفكري للحضارة الغربية الرافض لدور الوحي في المنظومة المعرفية، تتمثل في ذلك المذهب الفلسفي الذي يقصر المعرفة الإنسانية على الحس والإدراك الحسي، ويعتمد على التجربة كمقياس لرفض أو تصديق أية حقيقة يتم الوصول إليها، وعليه فكل فكرة لا تخضع للتجربة فهي مرفوضة ومستحيلة.

يقول محمد البهي عن المذهب التجريبي «إن تحصيل الإنسان للحقائق الكونية ومعرفته بها لا يكون إلا بالتجربة الحسية وحدها، ومعنى ذلك أن الحس المشاهد لا غيره هو مصدر المعرفة الحقيقية اليقينية، ففي العالم تكمل حقائق الأشياء، أما انتزاع المعرفة ما وراء الظواهر الحسية، والبحث عن العلة في هذا المجال فأمر يجب أن يرفض[2].

وهنا تكمن خطورة هذا المذهب، الذي عضد الفكر الإلحادي وألبسه الطابع العلمي حينما رفض الاعتراف بكل ما ليس بمحسوس، كوجود الله وإرسال الرسل والملائكة والمعجزات ...الخ، بدعوى استحالة خضوع هذه المواضيع للتجربة الحسية «فأصحاب هذا المذهب قد اختزلوا الكون إلى الكون المشهود، وانكروا الكون المغيب، أو اختزلوا علم الإنسان إلى عالم الشهادة وأنكروا الحياة الآخرة، واختزلوا مصادر المعرفة الصحيحة إلى الظواهر المادية فقط دون غيرها، ومن ثمة اختزلوا إدراك المعرفة وتصورها على الحواس فقط»[3].

---

[1]-صبحي عبد الحفيظ قاضي: مرجع سابق، ص34.

[2]-محمد البهي: مرجع سابق، ص297.

[3]-هناء حنفي: مرجع سابق، ص128.

إلا أن هناك نوعا من الحقائق ضروري لحياة الإنسان ولا يمكن الاستدلال عليه او التأكد من صحته كحقيقة الوحي والنبوة، فهذه الحقيقة وطبقا لتميزها عن الحقيقة العلمية الطبيعية ينبغي أن تتميز أيضا في طريقة تفسيرها، ولا يجب أن ينطبق عليها نفس المنهج الذي استعمل في تفسير الظواهر الطبيعية وهو المنهج التجريبي. وإنما هي في حاجة إلى استدلال خاص نابع من خصوصية هذا النوع من العلم (علم النبوة).

وحينما حاول المستشرقون تفسير ظاهرة النبوة المحمدية وفق مقاييس العلوم التجريبية باءت محاولاتهم بالفشل، وكان من الطبيعي أن تفشل لأنها استعملت التجربة على أمور يتعذر فيها التجريب، وترفضه بطبيعتها الدينية (الماورائية).

وكانت نتيجة تطبيق المنهج التجريبي في تفسير الوحي والنبوة ظهور آراء لا تلبث أن تتهاوى أمام النقد العلمي، كالرأي الذي يفسر النبوة على أنه نوع من العبقرية الفذة، والرأي الذي يعتبرها درجة من درجات التصوف يصل إليها النبي عندما يكون مستعدا لتلقي الوحي والإلهام[1].

وهكذا تتفق هذه المذاهب الفكرية الغربية الحديثة جميعها على نفي عنصر الوحي من النبوة المحمدية، واعتبارها ظاهرة اجتماعية تستجيب للبحث والدراسة لمعرفة دوافعها، والأسباب التي أدت إلى ظهورها والكشف عن القوانين التي تتحكم فيها.

فما هي أهم المناهج التي استخدمها الفكر الاستشراقي الحديث في فهم وتحليل الوحي والنبوة في العقيدة الإسلامية، وفق القيم والمفاهيم الغربية؟

---

[1]-ذلك ما سنتعرض له بالنقض والتحليل في الفصل القادم إن شاء الله

المبحث الثاني: تصنيف المناهج

المطلب الأول: تعريف المناهج

أولا: التعريف اللغوي:

كلمة "منهج" مأخوذة من نهَجَ، طريق نَهْجٌ، أي بيّن واضح، وأنهج الطريق، وَضُـــح واستبان، وصار نهجا وَاضِحًا، والمنهاج يعني الطريق الواضح[1].

وقد فسر ابن كثير قوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾[2] بالسبيل والسـنة. أي الطريقة[3].

ولذلك كثيرا ما يعبر عن المنهج بالطريقة فيقال: مناهج البحث أو طرق البحث التـي تؤدي إلى الغرض المنشود من الدراسة[4].

ثانيا: التعريف الاصطلاحي:

كلمة منهج هي ترجمة لكلمة (méthode) الأجنبية، ولقد اختلف العلماء فـي تحديـد مفهومها، فقد عرف "ديكارت"[5] (Descartes, René) المنهج على أنه مجموعة من القواعـد التي يجب على العقل أن يتقيد بها لأجل الوصول إلى اليقين، وحددها بأربع هـي: «قـاعدة البداهة، قاعدة التحليل، قاعدة التركيب، وقاعدة الإحصاء والاستقراء، وهي قواعـد وثيقـة الصلة تمنع مراعاتها الدقيقة من أن تؤخذ الباطل على أنه حق، وتبلغ بالنفس إلى المعرفـة الصحيحة بكل الأشياء التي تستطيع إدراكها، دون أن تضع في جهود غير نافعة، بل وهـي تزيد في ما للنفس من علم بالتدريج»[6].

---

(1)-ابن منظور: لسان العرب، مادة نهج، ج6، ص4554.

-ابن فارس: معجم مقاييس اللغة، ج5، ص361.

(2)-سورة المائدة، الآية: 48.

(3)-ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج2، ص76.

(4)-محمد زيان عمر: البحث العلمي مناهجه وتقنياته، ط4، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1983م، ص48.

(5)-ديكارت (1596-1650): من كبار الفلاسفة الفرنسيين عمل على تخليص الفلسفة من سلطة رجال الدين والسياسـة والتفكير من سلطة المنطق الأرسطي والمدرسي، اشتهر بمنهجه المعرفي الجديد وبتوسعه في دليل الكمال على وجود الله، مـن أهم كتبه: "مقالة الطريقة"، "القواعد لقيادة الفكر"، "التأملات". (محمود يعقوبي: مرجع سابق، ص289).

(6)-[illegible] ديكارت، مقال عن المنهج [illegible] ط3، مطبعة [illegible] بمصر، 1985، ص [illegible]

وعرّفه "عبد الرحمن بدوي" من خلال تمييزه بين نوعين من المناهج فقال: «المنهج هو فن التنظيم الصحيح لسلسلة من الأفكار العديدة، إما من أجل الكشف عن الحقيقة حين نكون بها جاهلين، أو من أجل البرهنة عليها للآخرين حين نكون بها عارفين»[1].

ويسمى العلم الذي يدرس الطرق التي يستعملها الباحثون بعلم المناهج، ومهما اختلفت المناهج وتنوعت فإنها تعود في أصلها إلى ثلاثة مناهج هي[2]:

-**المنهج الاستدلالي**: هو المنهج الذي يبحث في الموضوعات العقلية المجردة، ويعتمد في وصوله إلى الحقائق على الاستنتاج المنطقي.

-**المنهج التجريبي**: هو المنهج الذي يدرس الظواهر الطبيعية (المادية) التي تخضع للملاحظة والتجربة، وتكمن أهمية هذا المنهج في مقدرته على التحقق من صحة الفرض او خطئه عن طريق إجراء التجارب. ولقد تمكن العلماء بفضل المنهج التجريبي من التحكم في العديد من الظواهر، الأمر الذي عاد بالفائدة الكبيرة على الإنسانية كلها.

-**المنهج التاريخي**: يقوم بدراسة الموضوعات التاريخية عن طريق جمع الحقائق والمعلومات ثم مقارنتها وتحليلها وتفسيرها[3].

وإذا كان المنهج الاستدلالي بعيدا عن متناول الباحثين المستشرقين، فإن المنهج التاريخي والمنهج التجريبي -بصفة خاصة- هما الركيزة التي تستند إليهما مناهج البحث الاستشراقي على اختلاف أنواعها.

ويعود الفضل في نشأة المنهج التجريبي إلى علماء مسلمين الذين استجابوا لدعوة القرآن الكريم عندما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ. الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[4]. إن المنهج التجريبي هو نوع من أنواع المعرفة التي تتحد جميعها وتتكامل من أجل غاية واحدة، هي عمارة

---

[1]-عبد الرحمن بدوي: مناهج البحث العلمي، القاهرة، دار النهضة العربية، 1963، ص4.

[2]-المرجع نفسه، ص15.

[3]-أحمد بدر: أصول البحث العلمي ومناهجه، ط5، مصر، دار المعارف، 1989، ص182- 186.

[4]-سورة آل عمران الآيات 190- 191

الكون بما يتناسب وقيمة الإنسان الذي كرمه الله وفضله على سائر خلقه بأن جعله خليفة لـــه ونائبا عنه في هذه الأرض.

لقد اقتصرت وظيفة المنهج التجريبي لدى علماء الإسلام على مجال العلوم الطبيعيـة، ولم يحاول أبدا البحث في الأمور والغايات النهائية، والسبب في ذلك راجع إلى أن هذا النوع من الحقائق هي من اختصاص المعرفة الغيبية أو الوحي الإلهي.

وكانت أول معرفة للغرب بهذا المنهج على يد القسيس والمفكر الإنجلـيزي روجـر باكون ، حوالي 1214م-1294م، الذي عاش في فترة الاطلاع المسيحي الغربي على تـراث المسلمين وحضارتهم وعلومهم. وبعدما اطلع على مؤلفات العديد من العلماء المسلمين مـن بينهم ابن سينا، وابن الهيثم، دعا الغرب المسيحي إلى تبني المنهج التجريبي لما له من فوائـد كبيرة، واعتبر بذلك أول من أرسى قواعد التفكير العلمي في أوربا[1].

ولم تحدد معالم هذا المنهج إلا في القرن السابع عشر على يد الفيلسوف الإنجلـيزي فرانسيس باكون من خلال كتابه "الأورغانون الجديد" سنة 1620م.

غير أنّ التيارات السياسية والمذاهب الفكرية والفلسفية التي اضطـرب بـها الفكـر الأوربي في القرن التاسع عشر (19م) لم تكن لتسمح باستمرار تلك الروح الإيمانيـة التـي رافقت المنهج التجريبي منذ نشأته الأولى، فقامت بفصل المنهج العلمي عن أصله العقـدي، وكيف لا تفعل وقد قامت خصيصا من أجل إبعاد الدين عن الساحة المعرفية وحصـره فـي إطار الأمور الشخصية المتعلقة بالأفراد.

وضمن هذا المسار تحول المذهب التجريبي من أداة للبحث في الطبيعة من أجل فـهم قوانين الله في الكون والحياة، إلى أداة إيديولوجية تبحث عن القوانين الحتميـة التـي تحكـم الظواهر الطبيعية وتسير شؤون الكون بعيدا عن خالق هذا الكون[2].

---

[1]-م.روزينتال، ب. يودين: مرجع سابق، ص99.

-الموسوعة الفلسفية المختصرة، ص145-147.

-محمود يعقوبي: مرجع سابق، ص275.

[2]-هيام الملقي: مرجع سابق، ص55.

وقد تنبه إلى هذا الانحراف المنهجي علماء الفكر الغربي أنفسهم، يقول هنري أيكن: «إن تجريبية كونت وضعية، وهو يستعملها بوضوح وصرامة كأداة إيديولوجية لتهديم أغاليط (التفكير العلمي) بأجمعها، وكان يهدف كفيلسوف إلى غرس عقلية لا تفكر بالاصطلاحات (غير العلمية)، وترفض قضايا اللاهوت التقليدي والميثافيزيقي، بكل بساطة على أساس أنها غير علمية»[1].

بعد هذا قام مفكروا الغرب بتعميم المنهج التجريبي على كل العلوم، بما فيها العلوم الإنسانية، وما تشتمل عليه من معارف تختلف من حيث طبيعتها عن العلوم الطبيعية والحيوية كعلم اللغة، وعلم التربية، ودراسة الأديان والأخلاق...إلخ.

ولقد أوضح ذلك أ. كونت بقوله: «إننا ما دمنا نفكر بشكل وضعي (حسي تجريبي) في مادة الفلك أو الفيزياء، لم يعد بإمكاننا أن نفكر بطريقة مغايرة في مادة السياسة أو الدين، فالمنهج الوضعي الذي نجح في علوم الطبيعة غير العضوية، يجب أن يمتد إلى كل أبعاد التفكير»[2].

بهذه الروح الوضعية والحسية تعاملت مناهج العلوم الإنسانية مع المعتقدات الدينية -دون التفرقة بين الدين الوضعي والدين السماوي-، على أنها نوع من الأنظمة الاجتماعية، فحاولت البحث عن نشأتها وعن العوامل والأسباب التي أدت إلى تغيرها وتطورها، وقد تكفل بهذه العملية منهج النقد التاريخي.

وتعتبر الدراسة التي قام بها اسبينوزا سنة 1678م رائدة في هذا الميدان من خلال مؤلفه "الرسائل اللاهوتية" الذي حاول فيه تقييم الدين اليهودي تقييما تاريخيا[3]، ثم جاء بعده الفرنسي "جان ستروك" سنة 1753، بكتاب توصل فيه إلى أن كاتب "الأسفار الخمسة" المنسوبة إلى موسى عليه السلام، قد اعتمد في تأليفه لسفر التكوين على مؤلفات سابقة، "ويليه "فاتكر" سنة 1835م بكتاب توصل فيه إلى وضع الأساس العلمي لتقييم الدين اليهودي[4].

---

[1]-محمد أمزيان، مقال سابق، ص86.

[2]-المقال نفسه، ص85-86.

[3]-محمد توفيق حسين: مقال سابق، ص242.

[4]-المقال نفسه، ص242.

ويعتبر يوليوس فلهاوزن[1] (Welhausen Yulios) من أبرز الباحثين في مجال نقد الأديان، وقد تخصص في نقد العهد القديم (التوراة)، وبالطبع لم يستثن الدين الإسلامي من الخضوع لموجة النقد التاريخي للأديان، خاصة وأن الدراسات النقدية المتعلقة باليهودية والمسيحية قد حققت نتائج هامة ساهمت في صياغة تصور جديد لكل من الديانتين، وذلك بعد اكتشاف مخطوطات البحر الميّت التي يعود تاريخها إلى السنة المائة قبل الميلاد. وقد أثار هذا الاكتشاف العديد من النقاش والجدل حول صحة الأناجيل وحقيقة المسيح، إذ يقول الدكتور و.ف. ألبرايت، وهو عمدة في علم آثار الإنجيل: «... تهاني على اكتشاف أعظم مخطوط في العصر الحديث فوق هضبة بجوار البحر الميت... إنه لا يوجد أدنى شك في العالم حول صحة هذا المخطوط، وسوف تحدث هذه الأوراق ثورة في فكرتنا عن المسيحية»[2]. وقال القس أ. باول ديفز رئيس كهنة كل القديسين في واشنطن في كتابه "مخطوطات البحر الميت": «إن مخطوطات البحر الميت –وهي أعظم الاكتشاف أهمية منذ قرون عديدة– قد تُغَيِّرُ الفهم التقليدي للإنجيل»[3].

أما القس شارلز فرنسيس بوتر فقد قال في كتابه "السنون المفقودة من عيسى تكشف": «من العسير العثور على كتاب في العهد القديم لا يحتاج إلى تصحيحات تحت ضوء مخطوطات البحر الميت، وكذلك ليس هناك كتاب في العهد الجديد لا يحتاج إلى تفسير شامل للآيات الأساسية التي تقوم عليها الشريعة»[4].

وفي القرن التاسع عشر، طبق المستشرقون المنهج الغربي (منهج النقد التاريخي) على الدراسات الإسلامية المخالفة له من حيث التصور والمنهج. لقد استخدم المستشرقون –باعتبارهم مؤرخين غربيين تخصصوا في دراسة تاريخ وحضارة المسلمين– طرقا ومناهج غربية وضعية ترفض التعامل مع الحقائق الغيبية لأنها أمور ما ورائية لا تخضع لمنطق التجربة والملاحظة.

---

[1]–يوليوس فيلهاوزن (1844–1918): مستشرق ألماني، تهتم بدراسة الأديان بدءا بالتوراة، من آثاره: "تاريخ اليهود"، "محمد في المدينة"، "التمهيد للتاريخ الإسلامي" في ستة أجزاء. (نجيب العقيقي: مرجع سابق، ج2، ص724–725).

[2]–إبراهيم خليل أحمد: محمد ﷺ في التوراة والإنجيل والقرآن، ط5، مصر، دار الجيل للطباعة، 1983، ص139.

[3]–المرجع نفسه، ص140.

[4]–المرجع نفسه، ص140–141.

ولكي تتفق مناهج بحثهم مع موضوع البحث قاموا بالتصرف في أهم عنصر من عناصر المبحوث، والمتمثل في نفي العنصر الإلهي عن نبوة محمد ﷺ، مع أن المعمول به علميا ومنهجيا أن الباحث يقوم بالتغيير في طريقة أو منهج البحث، نتيجة لاكتشافه للمزيد من الأدلة مع قربه لنهاية البحث، أو نتيجة لحصوله على مادة علمية جديدة لها علاقة بالبحث، وأحيانا يضطر الباحث إلى تقسيم قضيته إلى أجزاء حتى تسهل عليه الدراسة.

أما أن يقوم بالتصرف في قضية كأن يقوم بنفي جزء أو عنصر من القضية ورفضه، فهذا ما لا يتفق وطبيعة البحث العلمي، ويعتبر خطأ بل انحراف منهجي لا يوصل إلى النتائج الصحيحة.

ولقد اختلف المشتغلون في هذا المجال في تحديد عدد المناهج التي اعتمدها المستشرقون في دراسة العقيدة الإسلامية، ولعل السبب في ذلك يرجع إلى تنوع وكثرة منطلقات الدراسة الاستشراقية. ومن خلال اطلاعنا على معظم ما كتب في هذا الباب تمكنا من حصر سبعة مناهج معتمدة في دراسة الوحي والنبوة هي المنهج التشكيكي، المنهج الافتراضي، منهج الأثر والتأثير، المنهج الإسقاطي، المنهج المقارن، المنهج الماركسي.

وأمام هذا التنوع يجد الباحث نفسه مضطرا إلى القيام بعملية اختيار أو انتقاء، وذلك بالتوقف عند أشهر المناهج وأكثرها استعمالا من قبل المستشرقين، وهي المنهج التشكيكي، والمنهج الماركسي، وهذان المنهجان إما أن يستخدمهما المستشرق مجتمعين كما فعل "منتغمري" الذي استعمل في دراسته للوحي المحمدي كل من المنهج التشكيكي والمنهج الماركسي، أو منفصلين كما فعل روبنسون الذي اكتفى بالمنهج الماركسي. وسنقوم في هذا البحث بإبراز الملامح الأساسية لكل واحد من هذه المناهج، لنتعرف إلى طبيعته وكيفية استخدامه.

المطلب الثاني: المنهج التشكيكي

أولا: تعريف المنهج التشكيكي

1-لغة: كلمة "تشكيك" مشتقة من كلمة "شَكَّ"، وتدور هذه الكلمة ومشتقاتها على معنى واحد يدل على التردد بين النقيضين بلا ترجيح لأحدهما على الآخر.

وقيل: الشك ما استوى طرفاه، وهو الوقوف بين الشيئين لا يميل القلب إلى أحدهما، فإذا ترجح أحدهما ولم يطرح الآخر فهو ظن، فإذا طرحه فهو غالب الظن وهو بمنزلة اليقين[1].

2-اصطلاحا: الشك (Septicisme)، مذهب قديم في التفكير الإنساني، عرفه اليونان بمعنى البحث والتنقيب أو الاختبار[2]، والشكاك بناء على ذلك هو «من ينظر بإمعان، من يفحص باهتمام قبل أن يصدر حكما على شيء، أو قبل أن يتخذ أي قرار»[3].

ومع مرور الزمن أخذ هذا المعنى في التغيير إلى أن صارت كلمة "الشاك" تعني الإنسان العاجز عن اتخاذ أي قرار اعتقادا منه باستحالة الوصول إلى أية معرفة أو حقيقة[4].

ثم عاد مذهب الشك للظهور من جديد وبقوة منذ القرن السادس عشر، وكان السبب في هذه الرجعة القوية هو قيام النهضة الأوروبية، وما رافقها من كشوفات علمية أعلنت خطأ الكثير من النظريات والأفكار السائدة آنذاك، كنظرية (كوبرنيق 1543) التي أبطلت النظرية القائلة بأن الأرض هي مركز الأرض، وقد «أصبحت كل الآراء السابقة حول العالم تكاد تكون عارية من الصحة، واهتزت الثقة في العلم والفلسفة اللذين أديا إلى هذه الآراء، فالعوامل الجديدة التي اكتشفها المكتشفون الأوائل ظهر أنها تسير سيرا حسنا بدون أن تكون مؤسسات مسيحية اجتماعية كانت أو سياسية أو دينية، وقد كانت هذه العوامل الجديدة بمثابة افتزاز تشكيكي أساسي إزاء المزاعم الأوروبية والمسيحية واليهودية في ما يتصل بالمعارف الطبيعية ومصير الإنسان»[5].

---

[1]-محمد التونجي: المعجم المفصل في الآداب، ج2، ص572.

[2]-محمود حمدي زقزوق: دراسات في الفلسفة الحديثة، ط3، القاهرة، دار الفكر العربي، 1993، ص53.

[3]-عبد الرحمن بدوي: موسوعة الفلسفة، ج2، ص16-18.

[4]-محمود حمدي زقزوق: المرجع السابق، ص53.

[5]-المرجع نفسه، ص57.

وتحول الشك بذلك إلى وسيلة تشكك في كل المعلومات والمعارف التقليدية حذرا من الوقوع في الخطأ، وكان ديكارت أول من طبق هذه الطريقة التي عرفت باسم الشك المنهجي أو الشك الديكارتي، حيث شك –وقد سبقه الغزالي إلى ذلك– في كل المعارف التي حصل عليها عن طريق التقليد، وتدرج في شكوكه فشك في المعرفة التي حصل عليها عن طريق الحواس، وفي المعرفة التي حصل عليها عن طريق العقل، ومنها انتقل إلى الشك الميتافيزيقي المطلق ليصل في النهاية إلى الحقيقة أو اليقيني المطلق[1].

ومنذ بداية القرن السادس عشر توجهت سهام الشك إلى العقيدة المسيحية التي كانت تعتقد بصحة بعض النظريات عن الكون والحياة فجاء العلم وكشف عن فساد وبطلان تلك النظريات، يقول اسبينوزا: «إن في العهدين القديم والجديد شيئا جديرا بالحياة، الأخلاق، أما ما يرويانه من أشياء أخرى غير قابل للتصديق»[2].

من هنا ظهرت الدعوة إلى نقد الكتاب المقدس وأصبح الدين الذي كان يمثل الحقيقة المطلقة والمعرفة الأولى التي يرجع إليها الإنسان معرضة للشك والنقاش من قبل ذاك الإنسان نفسه.

ولم تتوقف هذه الدعوة عند الكتاب المقدس، بل انتقلت إلى بقية الأديان –سواء كانت وضعية أم سماوية–، وكان الدين الإسلامي قد احتل الصدارة بعقيدته في الوحي والنبوة في إطار هذه الدراسات، لدرجة أن خصصّ له فرع كامل من المعرفة الإنسانية الغربية (الاستشراق) الذي تخصص في توجيه سهام الشك والنقد للدين الإسلامي الحنيف.

ثانيا: تطور المنهج التشكيكي

يعتبر المنهج التشكيكي من أقدم المناهج التي اعتُمِدت في الدراسات الاستشراقية، ولذلك نجده ملازما للبحث الاستشراقي منذ بدايته إلى العصر الحديث.

فلقد استعمل من قبل مذهب الاستشراق التقليدي، وإن كان استعماله هنا كان أقرب إلى الغاية منه إلى الوسيلة، ولأجل تحقيق هذه الغاية –وهي تشويه محاسن الإسلام وتزييف حقائقه– استعمل عدة أدوات تعبر في جملتها عن الحقد والكره الذي كان يكنّه مستشرقي القرون الوسطى للإسلام والمسلمين، وهي الشرح الآثم والتأويل الظالم والكذب الفاضح.

---

[1]–محمد حمدي زقزوق: المنهج الفلسفي بين الغزالي وديكارت، ط3، الكويت، دار القلم، 1983، ص84.

[2]–اندري كريسون: مرجع سابق، ص140.

ثم رأيناه يوظف من قبل مذهب الاستشراق الاستعلائي واستمر وجوده إلى ظهور مذهب الاستشراق العلمي، وهنا عرف المنهج التشكيكي بعض التغير والتطور تباعا للتطور الذي عرفته الدراسات الاستشراقية في العصر الحديث، تمثل في عدوله عن الطرح المباشر والصريح لقضايا الإسلام إلى الطرح الملتوي والمُمَوَهْ.

إن المنهج العلمي مهما كان نوعه هو طريقة في البحث يتبعها الباحث قصد الوصول إلى النتائج علمية صحيحة بغض النظر عما إذا كانت هذه النتائج موافقة لتصور الباحث وميوله أو مخالفة له.

والظاهر أن المنهج الذي تحدث عنه المستشرقون المعاصرون في كل مناسبة تتاح لهم من ذلك مثلا ما قاله المستشرق وات[1] في كتابه "محمد في مكة" «أما قرائي من المسلمين فإنني أقول لهم شيئا مشابها، فقد حاولت مع الالتزام بالمقاييس العلمية التاريخية الغربية، أن لا أقول شيئا يفهم منه رفض أي مبدإ من مبادئ الإسلام الأساسية، إذ لا يجوز أن تكون هناك هوة لا يمكن عبورها بين الثقافة الغربية والإسلام، فإذا كانت بعض النتائج التي توصل إليها علماء الغرب لا يتقبلها المسلمون، فربما كان السبب في ذلك أن علماء الغرب لم يكونوا مخلصين لمبادئهم العلمية، وأن استنتاجاتهم تحتاج إلى مراجعة من وجهة النظر التاريخية البحتة»[2].

والشك بالمفهوم العلمي الحديث هو منهج علمي يقوم بأداء دور مهم في عملية صياغة النتائج النهائية، فهو عملية عقلية واعية، ويحق للباحث أن يشك في صدق المعلومات المتوفرة لديه، لكن بشرط أن يكون ذلك الرفض أو القبول لتلك المعلومات عن علم وعن اقتناع، لأن المشكوك فيه يمكن أن يكون باطلا كما يمكن أن يكون صحيحا[3].

ولا ينشأ الشك العلمي من العدم بل لابد من وجود دواع مقبولة وأسباب معقولة لتوفر عنصر الشك كوجود التضارب في المعلومات مثلا، كما لا يجب أن تدوم عملية الشك وقتا طويلا لأن وظيفته تكمن في إخلاء المكان لما هو علمي ويقيني[4].

---

(1)-وات: مستشرق إنجليزي، اهتم بتاريخ الجزيرة العربية وسيرة الرسول ﷺ بصفة خاصة، اشتهر بكتابيه "محمد في مكة"، "محمد في المدينة". (نجيب العقيقي: مرجع سابق، ج2، ص32).

(2)-منتغمري وات، محمد في مكة، ص28.

(3)-الربيع ميمون: مشكلة الدور الديكارتي، ط2، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1982، ص28.

(4)-المرجع نفسه، ص28.

ولقد وجد التناقض في المعلومات بين ما كانت تعتقد بصحته المسيحية وما كشف عنه العلم الحديث، فكان ذلك سببا معقولا وقويا لأن ينتقدها الفكر الأوروبي بشدة، ويشك في مصداقيتها، فما هي التناقضات أو الأخطاء التي ارتكبها الدين الإسلامي حتى يعامل بنفس الأسلوب الذي عوملت به المسيحية وهو أسلوب الشك والنقد؟

وما ذنب الإسلام في تحمل وزر عقائد أثبت العلم الحديث زيفها وانحرافها؟ ولكن الفكر الاستشراقي المعاصر وبحكم منطلقاته التاريخية والفكرية لا يأبه بكل هذه التساؤلات المشروعية، ولا ينظر إلى الفروق الجوهرية التي تميز بها الإسلام عن بقية الأديان، ويغض الطرف عن العلم الذي أثبت صحة الإسلام وصدق رسوله الكريم محمد ﷺ فيما أوحي إليه من ربه ﷻ.

ثالثا: معايير المنهج التشكيكي

إذا تحدث المشترقون عن النبوة في العقيدة الإسلامية، فإنهم يعنون بذلك الحديث عن (محمد والقرآن)، انطلاقا من تصور مسبق أن محمداليس نبيا مرسلا وأن القرآن ليس كتابا منزلا من السماء، يقول غوستاق لوبون: «...وكان من مقاصد محمد أن يقيم دينا سهلا يتمرئه قومه، وقد وفق لذلك حين أخذ من الأديان الأخرى ما يلائمهم، ولم يفكر محمد في إبداع دين جديد قط، وهو الذي أعلن أنه يسير على غرار من تقدمه من أنبياء بني إسرائيل»[1]، ويقول كارل بروكلمان (Carl Brocklman)[2]: «اقتبس النبي عن التوراة فكرة الخطيئة الأصلية»[3]، وعن اقتباس النبي لفكرة الآخرة يضيف بروكلمان: «وإنما ترجع معتقداته ﷺ فيما يتعلق بالعالم الآخر إلى مصادر يهودية، وهكذا تتصل بصورة غير مباشرة بمصادر فارسية وبابلية قديمة»[4].

---

[1]-غرستاف لوبون: مرجع سابق، ص118.

[2]-كارل بروكلمان

[3]-كارل بوكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة: نبيه أمين فارس، منير البعلبكي، ط3، بيروت، دار العلم للملايين، 1960، ج1، ص82.

[4]-المرجع نفسه، ج1، ص84.

والشيء الملفت للانتباه في كتابات المستشرقين عن الإسلام هو اتفاقهم المطلق على نفي ألوهية مصدر الوحي المحمدي، فقد تختلف آراءهم في تفسيرهم للتاريخ الإسلامي، وفي تقويمهم لمختلف نواحي الفكر الإسلامي، ولكن معتقدهم بخصوص ربانية مصدر القرآن لا نكاد نجد فيه اختلافا[1].

فكيف حصل المستشرقون على هذا الاتفاق؟ وما هي بواعثه؟

لقد تبنى المنهج التشكيكي في بحثه لموضوع الوحي والنبوة معيارين اثنين هما معياري الأصل والتأثير، ولذلك انصب جهد المستشرقين على البحث عن الأشباه والنظائر التي أرادوا ربطها بما سبقها من الديانات عملا بمنطق تبعية اللاحق للسابق وأفضلية هذا عن ذاك.

فوجود هذا الشبه ينطوي في نظر المستشرقين على معاني التأثير والاقتباس، ويوضح المستشرق فريجتوف خيون قائلا :«الديانة المتأخرة محكوم عليها حسب منطق الأمور أن تسك طريق السموا الرمزي تحت طائلة الانتفاء من الوجود إذا جاز التعبير، لكن هناك أيضا مزية إيجابية تتعلق بالسبق وعلى الديانة الجديدة والأخيرة من وجهة نظرها الخاصة، أن تجد في هذا المجال "ما كان قبلا" أو "ما كان دائما"، وبالتالي فإن جدّتها –أو عظمتها– هي "سبقها" المطلق»[2].

ويضيف وات: «إن على الإسلام أن يقرّ بحقيقة أصله أي بالتأثير التاريخي للتراث الديني اليهودي المسيحي»، وذلك في اعتقاده راجع إلى وجود الإسلام في نفس البقعة بسبب وجود في نفس البقعة الجغرافية وبسبب التقارب الزمني بين هذه الديانات، ولذلك فمن الطبيعي جدا –حسب رأيهم– أن يظهر الإسلام وهو خاتم تلك الديانات كنتاج متواتر تنعكس عليه سلبا أو إيجابا آثار اليهودية والمسيحية[3].

1–**معيار الأصل**: ويقصد به الديانات التي كانت متواجدة في شبه الجزيرة العربية، والتي سبقت مجيء الإسلام بفترة ليست طويلة كاليهودية والمسيحية، وهناك من يفضل إظافة بعض الديانات الفارسية والهندية القديمة.

---

[1]–عبد الرزاق بن إسماعيل هرماس: مطاعن المستشرقين في ربانية القرآن، ص76.

[2]–فريجتوف خيون: كيف نفهم الإسلام؟، ترجمة: عفيف دمشقيه، ط2، بيروت، دار الآداب، 1984، ص

[3]–بنسالم حميش: الاستشراق في أفق انسداده، ص67.

2-**معيار التأثير**: ويعنون به تأثر النبي محمد ﷺ بهذه الديانات والمعتقدات التي كانت موجودة في المجتمع العربي آنذاك، واعتماده -عليه الصلاة والسلام- عليها في صياغة مادة القرآن، ولذلك لا يكاد يخلو كتاب لمستشرق تحدث عن النبي أو عن سيرته، من الحديث أو الإشارة إلى البيئة الدينية لمجتمع الجزيرة العربية، وفي هذا الصدد يذكر "جولد زيهر": «بأن تبشير النبي العربي ليس إلا مزيجا منتخبا من معارف وآراء دينيه عرضها أو انتقدها بسبب اتصاله بالعناصر اليهودية والمسيحية، وغيرها التي يتأثر بها تأثرا عميقا والتي رآها جديرة بأن توقظ عاطفة دينية حقيقية عن بني وطنه»[1]، ويقول "جوستاف لوبون": «وإذا أرجعنا القرآن إلى أصوله أمكننا عد الإسلام صورة مختصرة من النصرانية»[2]، ويعتقد "رودنسون" «بأن الديانات غير العربية كان لها تأثيرها الذي أضفته على الروح الدينية لمحمد من خلال أفكارها وخبراتها، وإن هناك العديد من الدراسات التي تمت في هذا الصدد توضح تأثير كل من اليهود والمسيحية على النبي»[3].

وعلاقة الرسول ﷺ بالأديان المتواجدة آنذاك ليست بالطرح الجديد الذي يقدمه المستشرقون الآن، لأن جذوره فكرة التأثير والتأثر قديمة سبقهم إليها عرب مكة، وكان ذلك في بداية الدعوة الإسلامية، وقد حفظ لنا القرآن الكريم موقفهم هذا في العديد من الآيات الكريمة كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ [4]. وقوله أيضا: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا. وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا. قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [5].

---

[1]-جولد زيهر: العقيدة والشريعة في الإسلام، ترجمة: محمد يوسف موسى، وآخرون، دط، بيروت، دار الرائد العربي، 1910، ص5-6.

[2]-جوستاف لوبون: حضارة العرب، ص125.

[3]-رودنسون: حياة النبي والمشكلة الاجتماعية لأصول الإسلام، تر: زينب رضوان، ضمن دورية الفكر العربي، ع32، ص8. نقلا عن: عبد الرزاق هرماس: الشريعة، مرجع سابق، ص97.

[4]-النحل، الآية: 103.

[5]-الفرقان، الآية 4-7.

2-**معيار التأثير**: ويعنون به تأثر النبي محمد ﷺ بهذه الديانات والمعتقدات التي كانت موجودة في المجتمع العربي آنذاك، واعتماده -عليه الصلاة والسلام- عليها في صياغة مادة القرآن، ولذلك لا يكاد يخلو كتاب لمستشرق تحدث عن النبي أو عن سيرته، من الحديث أو الإشارة إلى البيئة الدينية لمجتمع الجزيرة العربية، وفي هذا الصدد يذكر "جولد زيهر": «بأن تبشير النبي العربي ليس إلا مزيجا منتخبا من معارف وآراء دينيه عرضها أو انتقدها بسبب اتصاله بالعناصر اليهودية والمسيحية، وغيرها التي يتأثر بها تأثرا عميقا والتي رآها جديرة بأن توقظ عاطفة دينية حقيقية عن بني وطنه»[1]، ويقول "جوستاف لوبون": «وإذا أرجعنا القرآن إلى أصوله أمكننا عد الإسلام صورة مختصرة من النصرانية»[2]، ويعتقد "رودنسون" «بأن الديانات غير العربية كان لها تأثيرها الذي أضفته على الروح الدينية لمحمد من خلال أفكارها وخبراتها، وإن هناك العديد من الدراسات التي تمت في هذا الصدد توضح تأثير كل من اليهود والمسيحية على النبي»[3].

وعلاقة الرسول ﷺ بالأديان المتواجدة آنذاك ليست بالطرح الجديد الذي يقدمه المستشرقون الآن، لأن جذوره فكرة التأثير والتأثر قديمة سبقهم إليها عرب مكة، وكان ذلك في بداية الدعوة الإسلامية، وقد حفظ لنا القرآن الكريم موقفهم هذا في العديد من الآيات الكريمة كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ [4]. وقوله أيضا: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا. وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا. قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [5].

---

[1]-جولد زيهر: العقيدة والشريعة في الإسلام، ترجمة: محمد يوسف موسى، وآخرون، دط، بيروت، دار الرائد العربي، 1910، ص5-6.

[2]-جوستاف لوبون: حضارة العرب، ص125.

[3]-رودنسون: حياة النبي والمشكلة الاجتماعية لأصول الإسلام، تر: زينب رضوان، ضمن دورية الفكر العربي، ع32، ص8. نقلا عن: عبد الرزاق هرماس: الشريعة، مرجع سابق، ص97.

[4]-النحل، الآية: 103.

[5]-الفرقان، الآية 4-7.

ويرى "إبراهيم الفيومي" بأن ورود مثل هذه الآيات في القرآن الكريم، وهو كما نعلم أقدم وأصدق الوثائق التاريخية[1]، يفيدنا من الجانب التاريخي أن دعوى اتصال الرسول ﷺ بالأديان السابقة، ومن ثمة تأليفه للقرآن وهو كتاب العالمين، لا يختص بزمان ولا بمكان ولا بأمة، كان على علم بأن هذه الدعوى يعاد طرحها من جديد[2].

واستكمالا للتوضيح نعرج ولو قليلا على تلك المعتقدات التي كانت موجودة زمن بعثة النبي ﷺ وهي:

أ-**الوثنية**: تعتبر الوثنية هي الديانة الأولى في شبه الجزيرة العربية ويذكر المؤرخون[3] بأن سكانها العرب كانوا موحدين على دين إبراهيم وإسماعيل -عليهما السلام- ولكن هذه العقيدة مع مرور الزمن أخذت في الاختفاء شيئا فشيئا حتى زالت من تلك البقاع. فالوثنية لم تكن وليدة البيئة العربية، بل وفدت عليها من طريق عمرو بن لحي، حيث يذكر ابن كثير أن ابن هشام قال: «حدثني أهل العلم أن عمرو بن لحي خرج من مكة إلى الشام، فلما قدم مآب من ارض البقاء و بها يومئذ العماليق رآهم يعبدون الأصنام فقال لهم: ما هذه الأصنام التي أراكم تعبدون؟ قالوا له: هذه أصنام نعبدها فتمطرنا، ونستنصر بها فتنصرنا، فقال لهم: ألا تعطوني منها صنما، فأسير به إلى أرض العرب فيعبدونه، فأعطوه صنما يقال له هبل، فقدم به مكة ونصبه وأمر الناس بعبادته. وعمرو بن لحي هو سيد خزاعة، وكنت لخزاعة سدانة البيت الحرام، فكان له بهذا سلطان في التوجيه يعضمون ما تعضمه»[4].

ولم يكن إيمان قريش بآلهتها إيمانا خالصا، لذلك وصفت وثنية العرب بأنها وثنية بسيطة ساذجة ليس لها مضمون فكري كنظرية الحلول التي نجدها في وثنية الرومان واليونان[5]. والعرب مع وثنيتهم كانوا مؤمنين، إلا أنهم غير موحدين، فهم يؤمنون بأن الله

---

[1]-وذلك باعتراف المستشرقين، فقد قال ديمومبين المستشرق الفرنسي في كتابه "من الإسلام" ما نصه: «إن المنصف لا مناص له من أن يقر بأن القرآن الحاضر هو الذي كان يتلوه محمد»، عبد الحليم محمود: التفكير الفلسفي في الإسلام، ص56.

[2]-محمد إبراهيم الفيومي:

[3]-محمد أبو زهرة: خاتم النبيين، دط، صيدا، المكتبة العصرية، 1979، ج1، ص37.

[4]-المرجع نفسه، ص37.

[5]-المرجع نفسه: 37.

وقد عجزت المسيحية عن التأثير على العقلية العربية وذلك راجع إلى:

- أن الإنسان العربي آلف الوثنية والنفس البشرية -كما هو معلوم- إذا آلفت شيئا فترة طويلة من الزمن يكون من الصعب التخلي عنها، يدل على ذلك قول الشاعر عدي بن زيد العبادي الذي اعتنق المسيحية ولم تغادر الوثنية قلبه:

سعى الأعداء لا يألون شرا علي ورب الكعبة والصليب[1]

فالشاعر على الرغم من مسيحيته فهو قرن في قسمه الصليب برب مكة الوثنية. ويكفينا هذا دليلا على أن المسيحية لم تتمكن من التوغل إلى عمق الإنسان العربي، ولم يكن إيمانه بها سوى ظاهريا.

- طبيعة المسيحية؛ فالمسيحية التي وجدت قبيل بعثة النبي ﷺ ليس هي المسيحية التي جاء بها المسيح عليه السلام، بل هي مجموعة من المؤلفات البشرية صاغها الأتباع والتلاميذ بعد انتقال السيد المسيح.

وبتعدد الكتاب تعددت الرؤى والمفاهيم للعقائد الأساسية للديانة المسيحية، فظهر الاختلاف حول الركيزة الأولى للديانة المسيحية وهي طبيعة المسيح هل هو إنسان أم لا؟ وجاء مجمع نيقية الذي انعقد عام 325م بقرار أنهى بموجبه الخلاف القائم، وهو جعل الألوهية عند المسيحية في ثلاثة أقانيم متداخلة، الأب والابن والروح القدس.

د-الصابئة: وطائفة من العرب عبدت الكواكب والنجوم كقبيلة كنانة التي كانت تعبد القمر والدبران وجرهم التي تعبد المشتري وطيبئ عبدت الثرية والمرزم، وسهيل وبعض قبائل لخم وخزاعة وقريش عبدت الشعري. وقد أقام معظمهم في بلاد اليمن وحراء وأعالي العراق، وكوكب الشعري هي التي أشار إليها القرآن الكريم في وقله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى﴾[2].

ويطلق على عبدة الكواكب والنجوم لفظ "الصابئة"، وجاء ذكرهم في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ

---

[1]-عبد العزيز سالم: تاريخ العرب قبل الإسلام، ص432.

[2]- سورة النجم، الآية: 49.

وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [1]. وقال : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [2]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [3].

هـ-المجوسية: كما عرف العرب أيضا عبادة النار عن طريق الفرس، وإن كانوا فئات قليلة توزعت بين الحيرة واليمن والبحرين. وقد أطلق عليهم اسم المجوس بسبب تعظيمهم للنار، لأنها في اعتقادهم هي السبيل لنجاتهم منها في الآخرة[4].

ولكن في وسط هذه الوثنيات الجوفاء التي عجزت عن ملأ الفراغ الروحي الذي يعانيه المجتمع العربي آنذاك، ظهرت مجموعة من الناس رفضت الاستسلام والانقياد لهذه العقائد، فقد روي أنه اجتمع في أحد الاحتفالات التي كان يقيمها العرب لأصنامهم أربعة من العرب هم: ورقة بن نوفل، وعثمان بن الحويرث، وعبيد الله بن جحش، وزيد بن عمرو، وقال هؤلاء بعضهم لبعض: والله ما قومنا على شيء لقد أخطئوا دين أبيهم إبراهيم، ما حجر نطوف فيه لا يبصر ولا يسمع، ولا يضر ولا ينفع؟

فالتمسوا لأنفسهم دينا غير الوثنية، وأخذ هؤلاء يفكرون فاهتدا ورقة وعثمان للنصرانية، والتبس الأمر على عبيد الله فبقي في حالة الالتباس حتى ظهر الإسلام، فأسلم وهاجر للحبشة وهناك تنصر. أما زيد فلم يدخل النصرانية ولكنه أبعد عبادة الأصنام عن نفسه، وأنكر ما رآه على العرب من أكل الميتة والدم وغيرها، واعتقد بذلك أنه عاد إلى دين إبراهيم، ولذلك كان يسند ظهره إلى الكعبة ويقول يا معشر قريش والذي نفس زيد بيده ما أصبح أحد منكم على دين إبراهيم غيري، وكان يناجي ربه قائلا: يا رب لو أني أعلم أحب الوجوه إليك عبدتك به، ولكني لا أعلم وهو الذي يقول:

---

[1]-سورة البقرة، الآية: 62.

[2]-سورة المائدة، الآية: 69.

[3]-سورة الحج، الآية: 17.

[4]-محمد إبراهيم الفيومي: في الفكر الديني الجاهلي، مرجع سابق، ص196-197.

تركت اللات والعزى جميعا كذلك يفعل الرجل الخبيـــــر
فلا العزة أو دين ولا أنستها ولا ضمير في غم أنـــــذر
ولا هبل أجل وكـــاد رب لنا في الظهر إذ حلمي صغير

إن اختلاط العرب بالنصارى واليهود والمجوس وغيرهم من أصحاب الملل والنحل لم يكن له أي تأثير عقدي أو فكري على الحياة الفكرية العربية، أو على النبـــي محمـــد ﷺ أو على مضمون رسالته الخالدة، بل تمثل التأثير كله في إيمان بعض القبائل من العرب بـــهذه الديانات، وقد أشرنا سابقا أنه كان إيمانا ظاهريا نتج بحكم الجيرة والتقليد ليس إلا، هذا مـــن جهة.

ومن جهة أخرى فإن حالة الأديان آنذاك كانت تباعا للحالة العامة للمجتمع العربـــي، فهي أيضا كانت تعاني من الاضطراب والتناقض والمجادلات النظرية العقيمة، وما وجـــود فئة من الحنفاء التي رفضت كل هذه العقائد إلا دليل على بطلان وفساد هذه الأديان.

وإذا جارينا أقوال المستشرقين -جدلا- فإن ما يدعون إليه لا يستقيم إذا لاحظنـــا أن العقائد الأساسية للمسيحية لم يأخذ بها القرآن الكريم، بل رفضها وانتقدها بشدة، كعقيدة ألوهية المسيح، وعقيدة الصلب والفداء، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ [1]، قوله أيضا: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [2]، تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [3]، وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ. وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [4].

ويعلق إبراهيم الفيومي على عوى تأثر القرآن بالعقائد الموجودة زمن بعثة النبـــي ﷺ بطرحه للسؤال التالي: «إذا كان الرسول ﷺ ألف القرآن وهو الآن بين أعيننا وبين أيدينا، فيا ترى متى تعلم الرسول؟ وفي أي مدرسة من المدارس القديمة انتظم فيها؟ وهل يا ترى عندما

---

[1]-سورة النساء، الآية: 171.

[2]-سورة آل عمران، الآية: 59.

[3]-سورة الأنعام، الآية: 164.

[4]-سورة الزلزلة، الآية: 7-8.

ألف القرآن استمده من المسيحية؟ أو من اليهودية؟ أو من الصابئة؟ أو من العربية؟ وبأي لغة كانت؟ ... فالمسيحية لم تكن بلسان عربي، وإنما كان لسانها لسانا سريانيا والمجوسية لم تكن عربية وإنما كانت أعجمية وبلسان فارسي، وكذلك الصابئة لم تكن بلسان عربي وإنما كان لسانها آرميا، وكذلك الوثنية الفكرية لك تكن باللسان العربي، وإنما كان لسانها رومانيا»[1].

ثالثا: سلبيات المنهج التشكيكي

إذا كان الشك في ذاته عملية عقلية واعية، نلجأ إليها حينما يشوب الاضطراب أو تناقض المعلومات المتعلقة بالموضوع المدروس، ويكون هدفه البحث عن الحقيقة لأجل الوصول إلى نتائج علمية صحيحة، فإن عملية الشك التي قام بها المستشرقون في العصر الحديث لا تمت بصلة لا من قريب ولا من بعيد إلى الشك المنهجي أو الشك العلمي، لأن الشك كما سبق وأن ذكرنا –عملية لا تدوم طويلا– ويستخدمها الباحث بعد أن يكون قد قطع شوطا هاما في تجميع المعلومات وتحليل البيانات.

لكن شك المستشرقين يرافقهم منذ بداية البحث الاستشراقي، أي منذ الخطوة الأولى، فهم يأتون بالشك أولا (أي بالأفكار والنصوص التي تدعم عملية الشك لديهم)، وبعد ذلك يقومون بعملية التحليل والتفسير، وبذلك يتحول المنهج لديهم من وسيلة للكشف عن الحقيقة إلى غاية يستدلون بها على أفكارهم وتصوراتهم. وبناء عليه فالمنهج التشكيكي الاستشراقي هو منهج ذو أبعاد دينية ونفسية تنفي عنه صفة العلمية والموضوعية.

1–البعد الديني للمنهج التشكيكي

استخدم المستشرقون المنهج التشكيكي بطريقة كشفت عن استمرار النظرة السائدة في الغرب في القرن التاسع عشر إلى الإسلام، وهي نظرة الاحتقار والتشويه وذلك باعتراف البعض منهم، يقول المستشرق "نومان دانيال" «إنه رغم المحاولات الجدية المخلصة التي بذلها بعض الباحثين الغربيين في العصور الحديثة للتحرر من المواقف التقليدية للكتاب المسيحيين في الإسلام، فإنهم لم يتمكنوا من أن يتجردوا كليا عنها كما قد يتوهمون»[2].

ويصرح المستشرق "بيرنارد لويس" قائلا: «لا تزال آثار التعصب الديني الغربي

---

[1]–محمد إبراهيم الفيومي، تاريخ الفكر الديني الجاهلي، مرجع سابق، ص21–22.

[2]–عبد الله الشرقاوي: المرجع السابق، ص100.

ظاهرة في مؤلفات عدد من العلماء المعاصرين ومنتشرة في الغالب وراء تلك الحواشي المرصوصة في أبحاثهم العلمية»[1].

2-البعد النفسي للمنهج التشكيكي

وهذا البعد يظهر جليا حين التحدث عن مذهب الاستشراق الاستعلائي، الذي يضع فوقية الغرب في مقابل دونية الشرق، وهي نظرة أقصت طابع التجديد والإبداع عن العقلية السامية، لذلك كانت دراستهم للحضارة الإسلامية تهدف إلى إعطائها لونا خاصا بفقدها معناها وحقيقتها، ويطبعها بطابع السلبية والقصور، لاعتقادهم الراسخ بعجز العقلية العربية عن الإتيان بالجديد وافتقارها دوما إلى الآخر.

وحينما قرأوا الإسلام وتعرّفوا على حقيقة هذا الدين وعظمته، عزّ عليهم أن تنسب تلك العظمة للإسلام والمسلمين، فراحوا يشككون في أصالة الدين الإسلامي عن طريق البحث عن الأشباه ونقاط الالتقاء بين الإسلام وغيره من الديانات المعاصرة له كاليهودية والمسيحية، وحيثما وُجِد التشابه فقد تأكد التأثير، يقول المستشرق آربري (Arbery): «إن أحد الأمور التي تبرهن على التحيز في دراسة المستشرقين، والذي أخشى أن يكون قد فعله عدد غير قليل منهم، هو أن كل ما يتصورونه أمرا حسنا في الإسلام يرجعونه إلى مصدر أجنبي، ويجب عندهم أن يلتمسوا له أصلا أو آخر غير إسلامي، وليست توجد صورة غير أمينة للبحث العلمي أكثر سوء من هذا التعصب الطائفي الأعمى»[2].

إن وجود التشابه بين كل من الإسلام واليهودية والمسيحية لا يمكن أن يكون دليلا على أن الإسلام (وهو آخر الأديان) قد تكوّن من التوفيق والتلفيق بين الديانتين السابقتين عليه في الظهور، وهما اليهودية والمسيحية. لأن القرآن الكريم قد احتوى على العديد من الأحكام التي عارض فيها تلك المعتقدات، كما هو الحال بالنسبة للمسيحية وعقيدتها الأساسية التثليث، ولم يكتف القرآن بالمعارضة وحدها، بل هاجم وحارب بشدة هذه العقيدة التي ينظر إليها على أنها كفر وشرك بالله الواحد الأحد.

---

[1]-عرفان عبد الحميد، المرجع السابق، ص5.

[2]-عبد الله الشرقاوي: مرجع سابق، ص107.

وحينما يُواجه المستشرقون بهذه الحجة التي تكذب زعمهم، يقولون بأن النبي محمد ﷺ لم يأخذ بعقيدة التثليث ليس لأنه يرفضها، وإنما جاء رفضه لها بسبب عدم تمكنه من فهمها، فالنبي (عربي سامي) عاجز عقله عن إدراك معنى التثليث وماهيته، ففضل التخلي عنها.

فهذه النصوص وغيرها كثير تكشف لنا عن الدوافع النفسية الذاتية للمستشرقين وتحكمها في عملية سير البحث الاستشراقي، بحيث يتحول الباحث أو المستشرق من مهمة البحث والكشف عن الحقائق التاريخية إلى مهمة التبرير العقلي لكل ما يفترضونه من أحكام حول مادة القرآن الكريم. وعليه فالمنهج التشكيكي الاستشراقي هو منهج موجه لأجل أغراض دينية ونفسية وليس منهجا علميا موجها من أجل الوصول إلى نتائج علمية صحيحة.

المطلب الثالث: المنهج الماركسي

أولا: تعريفه

يعتبر المنهج الماركسي من أحدث المناهج الاستشراقية في العصر الحديث، يحاول فهم نبوة محمد ﷺ من خلال وضعها في صعيد واحد مع الظواهر الإنسانية، ثم تفسيرها تفسيرا ماديا رافضا لتدخل الوحي في الدعوى التي قام بها النبي محمد ﷺ.

ثانيا: أسس المنهج الماركسي

1-المادية التاريخية

بنى ماركس منهجه الفلسفي المادية الماركسية على أساس الجدل الهجلي الذي طبقه "هيجل" في عالم الأفكار، فجاء "ماركس" واستعمل نفس القانون "قانون صراع الأضداد" وطبقه في مجال المادة والعالم الخارجي، كما بين ذلك في مقدمة الجزء الأول من كتابه "رأس المال" الذي يقول فيه: «إن أسلوبي الديالكتيكي" ليس مجرد أسلوب مخالف لأسلوب "هيجل"، وإنما هو عكسه تماما، لأن عملية التفكير عند "هيجل" هي خالقة العالم الحقيقي،

والعالم الحقيقي ليس إلا الشكل الخارجي الذي تتخذه الفكرة، أما أنا فأرى أن الفكرة ما هي إلا العالم المادي بعد أن يعكسه ذهن الإنسان، ويصوغه في شكل أفكار»[1].

وبما أن العالم الخارجي، أو الواقع الإنساني هو جزء من الكون المادي، فهو أيضا خاضع لقانون صراع الأضداد حسب النظرية الماركسية، الأمر الذي تسبب في ظهور ما يعرف بالمادية التاريخية.

إذا سلمنا بهذا التصور فما المقصود بالمادية التاريخية؟

المادية التاريخية هي اتجاه اجتماعي في تفسير حركة التاريخ الإنساني تفسيرا ماديا، يعتمد على عنصر النظام الاقتصادي، حيث ترى أن أسلوب إنتاج الحاجات المادية هو العامل الحاسم في عملية تحول المجتمع من نظام إلى نظام آخر، يقول "انجلز" : «إن النظرية المادية تبدأ من هذا المبدأ: وهو أن الإنتاج وما يصحبه من تبادل المنتجات هو أساس كل نظام اجتماعي. وفي كل مجتمع ظهر في التاريخ نجد أن توزيع المنتجات وما يلازمه من تقسيم المجتمع إلى طبقات يعينه الإنتاج وطريقته وكيفية تبادله»[2].

أراد "ماركس" أن يبرهن على صحة نظريته بالاعتماد على المادية الجدلية، التي فسرت الكون على أنه مادة أزلية قابلة للإدراك، متغيرة باستمرار طبقا لقانون التطور القائم على صراع المتناقضات، والأضداد الموجود في كل ذرة من ذرات الكون. والنظرية التطورية التي ترى بأن كل شيء في الطبيعة هو خاضع لقانون التطور، من السهل البسيط إلى المعقد الدقيق عن طريق عملية الانتخاب الطبيعي.

يقول "كونفورث" في كتابه "مدخل إلى المادية التاريخية" : «وتُقدّم المادية التاريخية أساسا للعلم الاجتماعي بنفس الطريقة التي تُقدّم بها نظرية التطور عن طريق الانتقاء الطبيعي أساسا للعلم البيولوجي... وأيا كان المجتمع الذي يُدْرَس فإنه أصبح ما هو عليه بتكيف علاقات الإنتاج مع الإنتاج، والأفكار والمؤسسات مع علاقات الإنتاج»[3].

---

[1]-عماد الدين خليل: التفسير الإسلامي للتاريخ، ط5، بيروت، دار العلم للملايين، 1991، ص42.

[2]-فتحي عثمان: التاريخ الإسلامي والمذهب المادي في التفسير، ط1، الكويت، الدار الكويتية للطباعة والنشر، 1969، ص17-18.

[3]-محمد قطب، مرجع سابق، ص281.

وانطلاقا من فلسفته المادية، يرى "ماركس" أنه يمكن تفسير أحداث الماضي تفسيرا ماديا بالنظر إلى التغير والتطور الذي يطبع كل الظواهر الإنسانية، ولكي يحدث التطور ويتحقق لا بد من مروره بثلاث مراحل هي:

المرحلة الأولى: إن كل حادثة مهما كان نوعها هي عبارة عن جملة من المتناقضات، لأن هذه الحوادث في النهاية ترجع إلى الظواهر المادية وإلى الكون المادي، الذي يحوي على التناقض والصراع في كل ذرة من ذراته.

المرحلة الثانية: بداية الصراع الناتج عن اجتماع الأضداد والمتناقضات، والذي يكون مُمهدا لميلاد نمط جديد.

المرحلة الثالثة: وهي ميلاد النمط الجديد أو النظام الجديد وزوال النظام القديم، وتمثل هذه المرحلة قمة التطور الذي يحوي هو بدوره على بذور التناقض الذي سيؤدي حتما إلى زواله، طبقا لحتمية التغير، ولكن "ماركس" كان يشير بذلك إلى مرحلة النظام الشيوعي، حيث قسمت النظرية الماركسية تاريخ التطور البشري إلى خمسة مراحل هي: (المشاعية الابتدائية والرق، فالنظام الإقطاعي، فالرأسمالي ثم الاشتراكية وتليها الشيوعية).

ومن هنا وقع ماركس في التناقض، عندما خالف قانون الجدل (أساس النظرية الماركسية) الذي يحكم على كل الشيء في الكون بالحركة والتغير والتجدد، وأعلن بأن الشيوعية هي نهاية التطور التاريخي للبشرية، فهي الثابت الذي لا يتحرك ولا يتغير، ويتحدث "عبد الحميد صديقي" في كتابه "تفسير التاريخ" ص122 عن السبب الذي أوقع "ماركس" في هذا التناقض ما نصه «فلا بد أن ماركس قد كان في ذهنه ظروف المجتمع في ذلك العصر، وكل ما جاء به ربما كان ملائم لزمنه هو، ولا يمكن بعد زمانه ذاك أن يكون صالحا للعصور التي تلته. فمع تغير الزمان لا بد لفلسفته أن تتغير»[1]، وبعد هذا يشير المؤلف إلى العصبية الإيديولوجية التي طبعت أذهان الماركسيين وعطلت ملكة التفكير السليم لديهم بقوله: «...لا يوجد ماركسي مستعد بأن يقبل هذا الفهم، فهم يعتقدون نظراته صحيحة في كل الأزمان: أي أنها قيّم دائمة للمجتمع الإنساني لا تتغير»[2].

---

[1]-نقلا عن: عماد الدين خليل: التفسير الإسلامي للتاريخ، المرجع السابق، ص60.

[2]-المرجع نفسه، ص60.

وطبقا للتفسير الماركسي، فإن كل نظام اقتصادي جديد ملزم بأن يقدم للمجتمع أفكارا وقيما جديدة تكون ملائمة للوضع المادي الجديد الذي آل إليه المجتمع في هذه المرحلة أو تلك. وانطلاقا من حتمية التطور يعتقد ماركس «أن النظام الاقتصادي الجديد الناشئ من القديم هو بصورة عامة تقدمي ويصور درجة أرفع من العدالة الاجتماعية، فمن الواضح أنه يجب أن يأتي معه بأخلاق أسمى»[1].

غير أن الواقع التاريخي يثبت عكس ذلك تماما، والمجتمعات الغربية خير شاهد على هذا الكلام، فلقد عجز النظام الاقتصادي الحديث رغم التطور الهائل الذي حازت عليه وسائل الإنتاج، على تشريع نظام أخلاقي يضمن حقوق الفرد ويصون كرامته، والمجتمع الغربي الأكثر تقدما والأكثر رفاهية يعدّ اليوم المجتمع الأكثر عنفا والأكثر تفككا وانحلالا.

وإذا بحثنا عن السبيل إلى هذا التطور وجدنا أنفسنا بصدد الحديث على الركيزة الثانية من ركائز المنهج الماركسي وهي صراع الطبقات أو الصراع الطبقي.

2-الصراع الطبقي

لقد سيطرت فكرة الصراع على الاتجاه الماركسي فنظر إلى الحياة على أنها حلبة للصراع بين أفراد المجتمع الواحد، الذين يتكتلون في شكل طبقات مختلفة ومتباينة والتي ما كانت لتوجد أصلا لولا العامل الاقتصادي، المتمثل في أساليب الإنتاج وما يتبعها من ظروف إنتاجية كطريقة توزيع الإنتاج مثلا.

ويكون الباعث على هذا الصراع هو تلبية الحاجات المادية كالحاجة إلى الغذاء والحاجة إلى المسكن والحاجة إلى أدوات الإنتاج...الخ، «فالمصالح الأساسية للفئات الاجتماعية والطبقات البشرية هي أولا وقبل كل شيء مصالح مادية اقتصادية تحدد في نهاية الأمر المصالح السياسية والقانونية والأخلاقية والدينية»[2].

أما الإنسان العنصر المهم والفعال في الحادثة التاريخية، فنراه قد غُيِّبَ تماما في المنظور الماركسي، فهو مسلوب الإرادة لا يختلف عن بقية العناصر المادية الموجودة في الطبيعة، حيث: «تحول إلى كائن طبيعي مادي أي يستنبط معلوماته من التجربة الحسية

---

[1]-نقلا عن: عماد الدين خليل: التفسير الإسلامي للتاريخ، المرجع السابق، ص60.

[2]-كورنفورث: أسس المادية الديالكتيكية والجدلية، نقلا عن: محمد قطب: مرجع سابق، ص287.

وأخلاقه من حركة الطبيعة (المادة) وكل ما هو إنساني يتفكك ويُرَدّ في نهاية الأمر وفي التحليل الأخير إلى أصول مادية تاريخية»[1]. وعوضوه بالعنصر الاقتصادي الذي وُكّلت إليه مهمة تفسير التاريخ بما له من آثر فعال في تطور الحوادث التاريخية.

ولم يعد ممكنا في ظل هذا التوجه الماركسي التمييز بين الخطأ والصواب ما دمنا ننظر إلى النمط الاقتصادي وكأنه إله مقدس له الحق في التشريع والتوجيه، إذ أن نظام المتغيرات الذي اعتمدت عليه النظرية الماركسية، يستلزم أن يكون لكل نمط اقتصادي جديد قيمه وأفكاره الخاصة به، والتي عن طريقها يتم تحديد سلوك الناس وأخلاقهم وتوجهاتهم الفكرية.

ومن هنا كان لحديث المستشرقين (ذوو الاتجاه الماركسي عن البيئة الاقتصادية والاجتماعية أهمية تاريخية في دراسة رسالة الإسلام، والتي تعتبر بحسب المنهج الماركسي نتاج ظروف اقتصادية واجتماعية معينة، فهم يصورون دعوة النبي ﷺ على أنها تلبية للحاجة المادية لسكان مكة، وفي هذا يقول وات: «دعوة محمد كانت استجابة للوضع العام في مكة، وإن بدأت بداية دينية في أساسها، لقد قاد الازدهار الاقتصادي إلى ضنك اجتماعي شديد بين المكيين»[2].

ثالثا: نتائج المنهج الماركسي

كان لحديث المستشرقين -ذوو الاتجاه الماركسي- عن البيئة الاقتصادية والاجتماعية أهمية تاريخية في دراسة رسالة الإسلام، والتي تعتبر بحسب المنهج الماركسي نتاج ظروف اقتصادية واجتماعية معينة، ولقد قادتهم هذه الدراسة إلى النتائج التالية:

1-الدعوى الإسلامية قامت لأجل المصلحة المادية

قام المستشرقون بتصوير دعوة النبي ﷺ على أنها قامت من أجل المصالح المادية لسكان مكة، الذين عانوا كثيرا من الفقر والحاجة بسبب الطبيعة الجغرافية لبلدهم (صحراء قاحلة جدباء) أولا، وبسبب تمركز الثروة في أيدي عصبة قليلة من السكان، التي كانت تتحكم في مصير الجماهير الضعيفة المغلوبة على أمرها ثانيا.

---

[1]-عبد الوهاب المسير، عزيز العظمة، مرجع سابق، ص70.

[2]-منتغمري وات، الفكر السياسي الإسلامي، تر: أحمد أمين، دط، القاهرة، مكتبة مدبولي، 1983، ص9.

وأمام هذه الوضعية الاقتصادية المزرية لأكثرية سكان مكة وما جاورها، لم يجد النبي محمد ﷺ من مخرج لهذه الأزمة إلا بالقيام بثورة إصلاحية دينية لتقويض دعائم النظام الجاهلي والقضاء عليه، وعملا بمنطق المادية التاريخية فإن النصر حتما سيكون لصالح دعوة النبي، التي أتت بدستور جديد (القرآن) فيه كل الحلول للأزمات الاقتصادية والأخلاقية والفكرية التي كان يتخبط فيها المجتمع العربي قبل الإسلام.

2-محدودية الدعوة الإسلامية

ولقد عمل المستشرقون الماركسيون على تكريس هذه النظرة إلى أبعد الحدود، حينما نفوا عالمية الدعوة الإسلامية، واعتبروها حلا مرحليا للمشاكل التي كان يعاني منها المجتمع العربي آنذاك، وقالوا بأن فكرة الدعوة لم يكن لها وجود في ذهن النبي في مكة، ولكن بعدما هاجر إلى المدينة وأقام دولته الدينية، أخذ يفكر في السيطرة على الأمم المجاورة ليبسط نفوذه عليها، وعندئذ ابتكر فكرة عالمية الفكرة الإسلامية، يقول "فيلهاوزن" في مؤلفه "الدولة العربية وسقوطها" «لقد كان في وسع محمد من طريق عقيدة تتجاوز دائرة معتنقيها الدائرة التي ترسمها رابطة الدم، أن يحطم رابطة الدم هذه لأنها لم تكن بريئة من العصبية وضيقها، ولا كانت ذات صبغة خارجية عارضة، هذا هو الذي جعلها لا تتسع لقبول عنصر غريب عنها، ولكن محمد لم يرد ذلك، ومن الجائز أيضا أنه لم يكن يستطيع أن يتصور إمكان رابطة دينية في حدود غير رابطة الدم»[1].

وسعيا منه لتأكيد هذا الادعاء يضيف "فلهاوزن" في موضع آخر من نفس الكتاب ما نصه: «وليس ثمّ ما يدعو الإنسان لأن يعيب عليه -أي محمد- أنه حقق إنشاء مملكة الله في الأرض على الأساس الطبيعي الذي وجده أمامه، فهو وإن كانت الضرورات العملية في كثير من الأحيان قد اضطرته أو هي انحرفت به إلى استعمال وسائل غير مقدسة من غير أن يستند ذلك إلا إلى الله، فلا يسوغ للمؤرخ من أجل ذلك أن يعتبره منافقا»[2].

والحق أن هذا التوجه الإدّعائي قد رُفض من قبل بعض المستشرقين أنفسهم أمثال "جولد زيهر" "نولد كه" و"توماس آرنورد" الذي يقول في كتابه "الدعوة إلى الإسلام": «من

---

[1]-نقلا عن: عماد الدين لخيل: دراسة في السيرة، ص20.

[2]-عماد الدين خليل: مرجع سابق، ص20.

الغريب أن ينكر بعض المؤرخين أن الإسلام قد قصد به مؤسسه في بادئ الأمر أن يكون دين عالميا، برغم هذه الآيات البينات»[1]. وفي مكان آخر يضيف: «لم تكن رسالة الإسلام مقصورة على بلاد العرب، بل إن للعالم أجمع نصيبا فيها، ولم يكن هناك غير إله واحد، كذلك لا يكون هناك غير دين واحد يدعي إليه الناس كافة»[2].

أما المستشرق "سخاو" فيرد على هذا الادعاء بقوله: «إن الرسالة الإلهية ليست مقصورة على العرب، بل إن إرادة الله تشمل جميع المخلوقات، ومعنى ذلك خضوع الإنسانية كلها خضوعا مطلقا، وقد كان لمحمد بوصفه رسولا من الله حق المطالبة بهذه الطاعة، وقد كان أن يطالب بها، وهذا ما ظهر من أول الأمر جزء لا ينفصل من جملة ما أراد تحقيقه من مبادئ»[3].

أما من وجهة النظر الإسلامية، فلقد تضمن القرآن الكريم للعديد من الآيات القرآنية التي تدحض هذه الفرية بسبب نزولها على النبي ﷺ في مكة، أي قبل هجرته إلى المدينة، والتي تتحدث عن عالمية الدعوة الإسلامية وعدم تعلقها بالجنس العربي دون غيره من البشر، من هذه الآيات قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ [4]، وقوله أيضا: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [5]، وقال أيضا:﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [6]، وقوله كذلك: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ﴾ [7].

---

[1]-توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ص48.

[2]-المرجع نفسه، ص49-50.

[3]-المرجع نفسه، ص48.

[4]-القلم، الآية: 52.

[5]-سبأ، الآية: 28.

[6]-الفرقان، الآية: 1.

[7]-الأنعام، الآية: 90.

3-نفي استمرارية الدين الإسلامي

بسبب منطلقاته العلمانية الوضعية التي تقدس العقل وترفض دور الوحي، وبسبب مقوماته وركائزه المادية التي تجعل الصراع من أجل المادة محور الحياة، كان للمنهج الماركسي نتائجه الخطيرة على المستوى الفكري، فلقد تشكلت قناعات لدى البعض – وخصوصا المسلمين منهم– بضرورة التخلي عن هذا الدين الذي ما كان ليوجد أصلا لو لم تتأزم الأوضاع في مكة ويضطرب النظام الجاهلي الذي فشل في تحقيق العدل والمساواة بين أفراد المجتمع العربي؛ وبالتالي فشل في توفير الأمن والاستقرار اللذان يعدان عاملان مهمان في دفع عجلة تطور المجتمع وازدهاره.

وبناء عليه فإن الدين الإسلامي له ظروفه وأسبابه الخاصة به التي حتّمت ظهوره، تلك الظروف التي تتفق مع مرحلة معينة من تطور القوى المادية. أما الآن ومع التطور التكنولوجي الذي عرفه العصر الحديث، فلم يعد هناك داع للتمسك بنظام النبوة التي باتت لا تناسب هذا العصر، إذ أن تطور المجتمع يتطلب أسلوبا جديدا ينظم علاقات الناس ببعضهم وقيما روحية جديدة تتكيف مع الوضع المادي الجديد. فالدين كما نلاحظ لا يختفي تماما في ظل التفسير الماركسي، ولكنه يتغير ويتبدل تباعا لتغير النظام الاقتصادي الذي يرتبط به ارتباطا كليا.

رابعا: سلبيات المنهج الماركسي

نظر المستشرقون الماركسيون إلى نبوة محمد ﷺ من زاوية المادية التاريخية التي لا تعترف إلا بحقيقة الوجود المادي المتطور، الأمر الذي يعيقها عن إدراك المعنى الحقيقي للوحي والنبوة. ولذلك وضعوا النبي ﷺ في صورة الرجل المصلح العظيم، الذي ساءه ما رأى عليه قومه من ظلم وفقر وجهالة، ولقد حيره هذا الوضع كثيرا، وشغل كل تفكيره، فأخذ يتأمل ويفكر في قرارة نفسه عن الحل الذي ينقذ مجتمعه ويخلصه من هذه الوضعية المزرية، فاهتدى إلى الحل الصحيح، وهو التوجه إلى قومه بدعوة دينية[1] بالاعتماد على البيئة الاقتصادية للمجتمع العربي.

---

[1]-دينية: أي مناسبة لطبيعة الفكر العربي (السامي) الذي جُبِل على التأمل والتأثر بالأوهام بسبب وجوده في بيئة الأديان بحسب الادعاء الإستشراقي.

إن الاعتماد على التفسير المادي لنبوة محمد ﷺ هي محاولة متهافتة من عدة أوجه.

1-تعميم قانون صراع الأضداد

لقد استعاضت الماركسية عن العقيدة الدينية بعقيدة جديدة جعلتها هي المسؤولة عن سير حركة المادة، ومن ورائها حركة التاريخ، والمتمثلة في قانون صراع الأضداد والمتناقضات التي ترجع بأصلها إلى الفيلسوف الألماني "هيجل".

قدم "هيجل" نظريته عن صراع الأضداد داخل كل ذرة من ذرات الكون على سبيل الطرح الاحتمالي، فلقد تصور أن للكون إله هو الذي جعل الكون يسير وفق هذا القانون، بحيث ارتقى من الحالة الابتدائية إلى الحالة التي نراه عليها الآن[1].

أما عند ماركس، فإن الجدل بالنسبة له هو الحقيقة التي لا تقبل الشك خاصة بعد ظهور النظرية الدرينية التي قررت بأن العوامل الرئيسية في تطور الكائنات الحية هي التحول والتركيب من أنواع أبسط منها، وهذه من أخرى أبسط منها إلى بداية السلسلة التي هي الكائنات ذات الخلية الواحدة[2].

إن الحقيقة التي آمن بها "ماركس" ودعى العالم إلى التسليم بها، تهاوت أمام تطور البحث العلمي الذي كشف عن خطأ تعميم قانون صراع الأضداد والتناقضات في تفسير حركة التاريخ الإنساني. فلئن وجدت المركسية ما يوافق نظريتها في بعض الحوادث التاريخية لدى المجتمع البدائي القديم، فهذا لا يعني بأن كل تطور يحصل في المجتمع كان الدافع إليه صراع الأضداد الذي حصره ماركس في المجال الاقتصادي، يقول "عماد الدين خليل": «لقد قام ماركس كما فعل هيجل وسبنغلر لكي يجعل نظريته تبدو مستصاغة بتحريف كثير من الحقائق، وتجاهل بعض الحوادث المهمة في التاريخ التي لم تساند ما ذهب إليه، ولأجل أن يثبت أن نظرياته صحيحة استخدم الحوادث التي وقعت في الأغوار البعيدة من الزمن، مما لا يمكن التحدث عنه بشكل أكيد... بل يستحيل الوصول إلى أية حقيقة على أساس هذه الحوادث التي وقعت قبل التاريخ»[3].

---

[1]-إمام عبد الفتاح إمام: مرجع سابق، ص77.

[2]-محمود يعقوبي: مرجع سابق، ص132.

[3]-عماد الدين خليل: التفسير الإسلامي للتاريخ، مرجع سابق، ص56.

ويستدل "ماركس" على نظريته تلك، بأن قارن بين المكانة الحقيرة التي كانت تحتلها المرأة عند القبائل التي تعتمد على الصيد في عيشها، وبين المكانة الرفيعة التي حصلت عليها المرأة عند القبائل التي تعيش من الزراعة، وتوصل إلى أن السبب في ذلك هو أن المرأة في مجتمع الصيد كانت لا تقوم بأي عمل، بينما المرأة في مجتمع الزراعة فكان لها عملا تقوم به كزرع البذور وجني الثمور وغيرها من الأعمال الزراعية[1].

فكأن الاحترام والتقدير الذي حصلت عليه المرأة جاء من العمل الذي قامت به، في حين أنه توجد العديد من الحقائق التي تثبت عكس ما ذهب إليه ماركس كما قال "كارل فيدر" (K.Ferdern): «فالنساء لم تتحسن أحوالهن لمجرد أن العالم خرج من مرحلة الصيد إلى مرحلة الزراعة، إنما تحسن وضعهن بالحركات الدينية والسياسية التي قادها الأنبياء –عليهم السلام– والزعماء رجالا ونساء في الفترات المختلفة من تاريخ البشر»[2].

2–الاعتماد على العوامل الاقتصادية والاجتماعية في تفسير النبوة

وقد تمثل هذا الاتجاه بوجه خاص في المحاولات التي قام بها المستشرقون المولعون بالتفسير المادي للتاريخ، الذين قاموا بتقسيم المجتمع العربي إلى طبقات، طبقة الأغنياء والأشراف، الذين يدافعون عن بقائهم ويسعون للحفاظ على نفوذهم ومركزهم الاجتماعي، وطبقة الفقراء والعبيد، الذين يحلمون بحياة كريمة ويسعون لتحقيقها على أرض الواقع.

وطبقا للمادية التاريخية يقع الصدام والصراع بين هاتين الطبقتين (طبقة الأغنياء وطبقة الفقراء) والذي يؤدي حتما إلى ميلاد نمط جديد هو عبارة (عن الشيء وضده). ويكون الدافع لهذا الصراع هو تلبية الحاجة المادية، يقول "رودنسون": «...ففي الأساس ثمة نواة إلهامي انطلاق أولي، سواء كان ذلك صادر عن الله أو عن محمد، إلهاما أعدت له على الأقل –إذا لم تكن كيفته ظروف اجتماعية وتاريخية وسياسية وثقافية–... وهي مع ذلك تجيب على أسئلة وجودية أبدية»[3].

---

[1]–عماد الدين خليل: التفسير الإسلامي للتاريخ، مرجع سابق، ص56.

[2]–المرجع نفسه، ص59.

[3]–رودنسون، الماركسية والعالم الإسلامي، نقلا عن: عبد الرزاق هرماس: مرجع سابق، ص60.

لقد أخطأ المستشرقون في اختيار أداة التفسير[1] لموضوع الدعوة التي جاء بها النبي ﷺ وأرادوا من خلال هذه العملية أن يطبقوا عليها المراحل التي مرت بها المجتمعات البدائية القديمة رغم التباين الواضح بينهما، إن التغيير الجذري الذي أحدثته دعوة الإسلام لم يكن الدافع إليه هو تخليص الفقراء والعبيد من رقاب الأغنياء الجشعين المتسلطين فحسب، بل هو تغيير شامل لكل نواحي المجتمع العربي الناحية الاقتصادية الاجتماعية، والناحية السياسية، والناحية الفكرية (العقائدية). وإن الإسلام كدين لا ينكر الناحية المادية وأهميتها في توفير الأمن والاستقرار في المجتمع، ولكنه لا يعتبره هو الغاية التي يكافح الإنسان من أجلها في الحياة كما تقول الماركسية.

إن الأمر الجوهري الذي يغيب عن أذهان هؤلاء المستشرقين هو الأسس العقائدية التي تستند إليها تلك التلبية المادية التي تمت على يد رسول الإسلام ﷺ. وهذه الأسس هي: الإيمان بالله خالق الكون والإنسان، والإيمان بمكانة هذا الإنسان في الكون، وبالوظيفة التي شرفه الله بتأديتها، وهي الخلافة والعمارة، والإيمان بالمنهج الذي خطه الله لتحقيق الغاية من الخلق وهي عبادة الله.

وتكون نتائج هذا الإيمان كله هي تكوين مجتمع صالح تسوده الأخوة عن طريق التوحيد الذي شهدوا به لله تعالى، وتسوده المساواة عن طريق الإيمان بأن المعبود واحد هو الله، وما سواه فهم عبيد متساوون فلا يجوز لغني أن يتعالى عن فقير ولا يحق لقوي أن يسخر من ضعيف، لأن البشر عند الله متساوون كلهم ولا يتفاضلون إلا بفعل الخير والتقوى. وتسوده العدالة عن طريق الإيمان باليوم الآخر الذي يكون بمثابة القانون الصارم الرادع لكل من تسول له نفسه بالظلم أو الاعتداء أو الاستيلاء على أموال أو ممتلكات الغير، لأنه يعلم جيدا بأن يوم الرحيل آت لا محال، وهو اليوم الذي يتخلى فيه عن كل ما جمعه من مال وثروة، كما يدرك جيدا بأن يوم الحساب آت أيضا لا شك فيه، وعندئذ سيعاقب من قبل الله على كل المظالم التي ارتكبها في حياته.

---

[1]-المقصود بالأداة هنا هو المنهج الماركسي.

ومن هنا كانت الدعوة أو الحركة الدينية -كما يحلو للمستشرقين تسميتها- التي قام بها النبي ﷺ «تنويرا عقليا وتحريرا سياسيا وعدالة اجتماعية ونهضة اقتصادية، تكون هذا كله، وتكون شيئا من هذا، وفقا للاحتياجات في مختلف العصور والبيئات!!» [1].

ولو كانت دعوة الإسلام موجهة لحل مشكلات العيش التي تعاني منها الطبقات الكادحة، لما استمر تأثيرها على العقول أكثر من أربعة عشر قرنا، ولكانت انتهت في زمانها كما انتهت الثورات الإصلاحية التي قادها الزعماء والمصلحون في مختلف العصور، كالإصلاحات التي قام بها "مارتن لوثر" والإصلاحات التي قام بها "ماركس".

إذن لم تكن الثورة التي أعلنها النبي ﷺ على النظام الجاهلي من أجل الطبقات الكادحة، ولم تكن دعوته -عليه الصلاة والسلام- استجابة للأوضاع الاقتصادية والاجتماعية، بل كانت استجابة للنداء العلوي الذي أعلن عن بداية الاتصال بين الأرض والسماء.

3-خصوصية الحدث النبوي

إن التصور المادي الذي دفع بالمستشرقين إلى اختيار البحث في موضوع النبوة يمثل في حد ذاته العائق الوحيد الذي يقف حائلا دون وصول المنهج الماركسي إلى إدراك المعنى الحقيقي للنبوة.

لأن النبوة كما هو معلوم لدينا من الأمور السمعية، التي نحتاج في معرفتها إلى الأنبياء الذين يقومون بوظيفة الإخبار والتبليغ عن الله ﷻ، وعليه فإن الباحث في هذا النوع من المواضيع يحتاج إلى منهج خاص، أي منهج يقر بوجود نوع آخر للمعرفة تأتي من غير طريق الحواس، ويعترف بالخصائص الأساسية المكونة لموضوع النبوة وهي الوحي والمعجزة ووجود ملكْ مرسل.

بينما المنهج الماركسي، ومن خلال رؤيته المادية وإن كان قد أقر بوجود ظاهرة الدين في المجتمع كحقيقة تاريخية لجأ إليها الإنسان البدائي ليعبر بها عن مخاوفه وجهله بالأسباب الحقيقية للظواهر الطبيعية، فإنه لا يعترف بالمصدر الغيبي.

---

[1]-فتحي عثمان: مرجع سابق، ص45.

وفي سبيل التكريس لهذه النظرة المادية، سعى المستشرقون بكل الوسائل والأساليب إلى تجاهل وإغفال السبب الحقيقي الذي أدى إلى حدوث النبوة، بحيث ربطوها ربطا تعسفيا بالظروف الاقتصادية والاجتماعية.

وبسبب هذا الاختلاف بين طبيعة الموضوع (النبوة) ووسيلة البحث المنهج الماركسي، وقع الخلل والخطأ في النتائج التي توصل إليها هذا المنهج، ومن هنا تكمل أهمية المنهج ودوره في توجيه البحث وفي النتائج التي يصل إليها. وحتى لا نقع في الخطأ وحتى لا تذهب جهود الباحث هباء، يوصي المنظرون لعلم المناهج بضرورة استعمال المنهج المناسب لطبيعة الموضوع[1].

وإذا حاول الاتجاه الاستشراقي الماركسي تفسير نبوة محمد ﷺ ولم يتمكن، فإن مسؤولية ذلك الفشل تقع على «المنهج الذي تتبعه الفلسفة المادية، لأن المنهج دائما يستنبط من الموضوع، ويعبر عنه، ولذلك إذا لم يكن المنهج المتبع مستمدا ومستنبطا من الأديان كموضوع، فإنه لا يستطيع التعرف عليها أو البحث فيها.

ولقد اهتم العديد من المفكرين ببيان قصور المنهج الماركسي الذي اعتمده المستشرقون في التفسير نظرا لخصوصية الحدث النبوي الإسلامي، يقول المستشرق "ترينون" (Trinon): «إذا صح في العقول أن التفسير المادي يمكن أن يكون صالحا في تعليل بعض الظواهر التاريخية الكبرى وبيان أسباب قيام الدول وسقوطها، فإن هذا التفسير المادي يفشل فشلا ذريعا حين رغب في أن يعلل وحدة العرب وغلبتهم...، فلم يبق أمام المؤرخين إلا أن ينظروا في العلة الصحيحة لهذه الظاهرة الفريدة، فرأوا أنها تقع في هذا الشيء الجديد ألا وهو الإسلام[2].

ولقد ركز المفكرون المسلمون في عملية نقدهم هذه على إبراز الخصائص والمميزات التي يمتاز بها الإسلام عن غيره من المعتقدات (السموية أو الوضعية) كالإيمان بالله الواحد والإيمان بالغيب، والإيمان بالملائكة، والإيمان بالرسل، والإيمان باليوم الآخر.

---

[1]-عقيل حسين عقيل: فلسفة مناهج البحث العلمي، دط، القاهرة، مكتبة مدبولي، 1999، ص120.

[2]-صبحي عبد الحفيظ قاضي: مرجع سابق، ص79.

فهذه الخصائص كما هو معلوم تقع على طرفي النقيض من خصائص التصور الماركسي الذي يتخذ من المادة إلها موجها وهدفا مقدسا «ولذلك فإن كل المحاولات التي تجري الآن لتفسير الإسلام من خلال النظريات الغربية هي محاولات قاصرة، ذلك أن الإسلام الذي يقوم منهجه على تكامل الروح والمادة والدنيا والآخرة والنفس والجسد، والثوابت والمتغيرات لا يمكن أن يفسر بمنهج جزئي سواء كان ماديا أو روحيا خالصا»[1].

وفي نفس السياق، يأتي تنبيه المفكر الإسلامي "أنور الجندي" «بأن هناك محاذير كثيرة يقع فيها المحللون والباحثون وأخطر هذه المحاذير هي محاكمة تاريخ الإسلام من خلال مناهج وضعت لتفسير تاريخ أمم أخرى لها لا يمكن فهم تاريخ الإسلام إلا بتفسيره وفق منهج أصيل مستمد من عقيدته»[2].

كانت هذه إذن أبرز المناهج الاستشراقية المعاصرة التي عالجت قضية الوحي والنبوة، انطلاقا من قيّم المجتمع الغربي وفلسفته، ولقد سعى المستشرقون من خلال هذه المناهج إلى إخضاع تجربة الوحي المحمدي، لما أخضع له علماء الغرب الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد، دون أدنى مراعاة بخصوصية هذه التجربة وتميزها عما سواها من العقائد.

وسعيا منا في توضيح صورة موقف (مذهب الاستشراق العلمي) من الوحي المحمدي ارتأينا أن نعرض نماذج من الأدوات المنهجية الاستشراقية من خلال التعرض لتفسير كل من وات ورودنسون للوحي المحمدي.

---

[1]-صبحي عبد الحفيظ قاضي: مرجع سابق، ص79.

[2]-المرجع نفسه، ص75.

المبحث الثالث: أدوات المناهج الاستشراقية

الأداة هي الوسيلة التي يعتمد عليها الباحث في تجميع البيانات والمعلومات من مصادرها[1]، ولقد اعتمد المستشرقون في تجميعهم للمعلومات التي تتحدث عن الوحي والنبوة نوعين من الأدوات هما: الأدوات العامة والأدوات الخاصة.

فما المقصود من وراء هذا التصنيف؟ وماذا نعني بالأدوات العامة والخاصة؟

المطلب الأول: الأدوات العامة

إذا جاز لنا القول بأن الاستشراق هو أحد فروع العلوم الاجتماعية، أمكننا عد البحث الاستشراقي كنوع من أنواع البحث العلمي، يلتقي مع وسائله عند أداتي الملاحظة والمقابلة (أو المطابقة).

أولا: الملاحظة العلمية (Observation)

تعتبر الملاحظة العلمية من الأدوات الهامة في البحث الاستشراقي، فهي تعين الباحث في عملية التفسير إذا عرفنا بأن الملاحظة تعني «التفكير المصحوب باستهداف الكشف عن حقيقة المادة أو (الموضوع محل الملاحظة)[2]، وتمكنه من استنباط المعلومات الخفية «من خلال قدرة الباحث على ربط العلاقات بين المتغيرات، والتناقضات حول القضايا المطروحة للبحث والدراسة»[3].

ومن الأخطار التي تهدد البحث الاستشراقي -وهو بعد في بدايته- ارتباط الملاحظة بفكرة مستبقة عن حقيقة مادة البحث، الأمر الذي يؤثر على السير الطبيعي (الموضوعي) لعملية البحث[4]، والمستشرق -كما سيأتي بيانه- هو أكثر الباحثين تعرضا لهذا الخطر.

---

(1)-أحمد بدر: مرجع سابق، ص28.

-عقيل حسين عقيل: مرجع سابق، ص

(2)-محمد طه بدوي: منهج البحث العلمي -إجراءاته ومستوياته-، دط، دب، المكتب العربي الحديث، دت، ص69.

(3)-عقيل حسين عقيل: المرجع السابق، ص

(4)-محمد طه بدوي: المرجع السابق، ص69.

ثانيا: المقابلة (أو المطابقة) (Interview)

نجدها عادة في البحوث النفسية والتربوية، حيث تتم المقابلة بين المريض والطبيب المعالج أو بين الباحث (صاحب الدراسة) وأفراد عينة الدراسة.

غير أن المقابلة في البحث الاستشراقي تتم بين الوثائق والنصوص التي تكون في متناول الباحث، ويعلق ساسي الحاج عن استعمال المستشرقين لهذه الأداة[1]، بقوله: «وكانت نتائجهم (المستشرقون) في تحقيق النصوص غالبا ما تكون صحيحة لأنها تنصب على نصوص محددة متناثرة يسهل إجراء المطابقات والمقابلات عليها، إلا أن النتائج العلمية المستخلصة من هذه الوسيلة لا تكون في الغالب متفقة والمبادئ الإسلامية والنظرة الموضوعية»[2].

وإذا كان المستشرقون قد اعتمدوا على بعض أدوات البحث العلمي (الملاحظة والمقابلة) في بعض القضايا الإسلامية، كقضية أصالة الحضارة الإسلامية[3]، فإنهم عدلوا عنها في دراسة موضوع الوحي والنبوة، حتى تتماشى مع متطلبات وأهداف البحث الاستشراقي في هذا الموضوع، وعوضوها بأدوات أخرى أطلقنا عليها اسم "الأدوات الخاص"، والتي قلما نجد لها نظيرا في أي فرعا من فروع البحث العلمي.

---

[1]-عدّ الباحث ساسي الحاج المقابلة والمطابقة (المطابقة والمقابلة) من المناهج الاستشراقية، ولكننا وجدنا أن تصنيفها ضمن الأدوات يكون أفضل، خصوصا وأن الدراسة التي قمنا بها قادتنا إلى حصر مناهج المستشرقين في منهجين اثنين هما: المنهج التشكيكي، والمنهج الماركسي.

[2]-ساسي الحاج: مرجع سابق، ص

[3]-من بين المستشرقين الذين أثبتوا فعلا أصالة الحضارة الإسلامية المستشرق رودنسون.

- انظر الفصل الثاني من البحث، ص

المطلب الثاني: الأدوات الخاصة

وهي الأدوات التي يستعملها المستشرقون خصيصا لتجميع مادة البحث الذي يتناول بالدراسة والتحليل موضوع الوحي والنبوة في العقيدة الإسلامية، وقد تم لنا حصرها كمايلي:

أولا: التأويل الخاطئ[1]

استعمل المستشرقون أداة التأويل للكشف عن المقصود من النصوص بما يتوافق ومعتقداتهم الدينية أو اتجاهاتهم الفكرية، مثال ذلك تأويلهم أو تفسيرهم لآيات من سورة النجم تفسيرا وضعيا ماديا رافضا للاعتراف بوجود عالم آخر غير العالم المادي المشاهد.

قال تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى. مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى. وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى. إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى. عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى. ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى. وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى. ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى. فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى. فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾[2]، فالآية القرآنية كما فسرها علماء المسلمين[3] تدل على أن المرئي في هذه الآية هو جبريل عليه السلام، بدليل الآية ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى﴾، التي تفيد تنزيه الله للنبي -عليه الصلاة والسلام- على أن يأتي بشيء من هوى نفسه.

---

[1]-يعود السبب في نشأة التأويل في الغرب إلى ظهور بعض الاكتشافات العلمية التي ناقضت بعض ما جاء في الكتاب المقدس، ولأجل الحفاظ على بقاء واستمرارية الديانة المسيحية رأى بعض العلماء وعلى رأسهم رجال اللاهوت ضرورة اللجوء إلى المجاز في التعامل مع تلك النصوص.

وللمزيد انظر: -محمد يحي، مجلة البيان، ع72، شعبان 1414هـ، يناير/فبراير 1994، ص91-103.

-مصطفى تاج الدين، النص القرآني ومشكلة التأويل، إسلامية المعرفة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، س4، ع14، خريف (1419هـ/1992م)، ص7.

[2]-النجم: الآيات: 1-10.

[3]-الطبري: تفسير الطبري، ج9، ص20.

-الفخر الرازي: تفسير الفخر الرازي، ج14، ص288.

-محمد الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، دط، تونس، الدار التونسية للنشر، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984، ج27، ص90-95.

ولكن المستشرقين وجريا وراء تصوراتهم العقلية المادية، الرافضة لعالم ما رواء المادة، ينكرون رؤية النبي للملكْ، ويؤولون بأن ما رآه هو من عمل الخيال الخلاق أو الخيال المبدع، أو نتيجة للحالة النفسية التي كان عليها النبي، وهي حال من القلق والاضطراب النفسي تلك الحالة التي دفعته إلى اللجوء إلى غار حراء «أين تحولت أفكاره وأماله إلى إلهام فاض عليه من عقله الباطن، أو نفسه الخفية، الروحانية على مخيلته السامية وانعكس اعتقاده على بصره فرأى الملك ماثلا له وعلى سمعه فوعى ما حدثه الملك به»[1].

ثانيا: تجاهل الأدلة المضادة

من الطبيعي أن يقوم المؤرخ أو المستشرق بتحليل أهم وأعظم حدث عرفته شبه الجزيرة العربية (ظهور نبوة محمد ﷺ) من رؤيته الخاصة، والتي لا يستطيع التخلي عنها نهائيا، ولكن الأمر غير الطبيعي أن يقوم الباحث بعملية الاختيار والانتقاء لجملة من الحقائق التي تؤيد فكره وتَوَجُهَه ويتغاضى أو يتجاهل الحقائق الأخرى التي تشير إلى وجود عوامل أخرى ساهمت في صياغة هذا الحدث التاريخي والديني، لأنها لا تتفق مع النتائج التي وصل إليها المستشرق.

مثال ذلك ما قام به المستشرقون أصحاب الاتجاه المادي في تفسير الحدث النبوي، والذين حاولوا أن يبعدوا عنصر الوحي عن الدعوة التي قام بها النبي ﷺ ووضعها في قالب الحركة أو الثورة الإصلاحية التي قامت من أجل القضاء على النظام الجاهلي المستبد، وتعويضه بنظام جديد يسعى لتوفير الأمن والاستقرار والعدالة والمساواة لكافة أفراد المجتمع.

وللاستدلال على هذه النتيجة قالوا بأن أتباع النبي الذين التفوا حول دعوته الدينية الجديدة، كانوا من الفقراء والضعفاء الذين كانوا يئنون تحت وطأة النظام القديم الجائر، متجاهلين حقيقة تاريخية هامة تفيد بوجود عناصر كانت تحتل المرتبة الأولى في السلم الاجتماعي للمجتمع العربي، بما كانت تتمتع به من نفوذ وسيادة وثراء. ومع ذلك تخلت عن هذه المكانة الاجتماعية المرموقة، واستجابة لدعوة النبي ﷺ كعثمان بن عفان وعبد الرحمن

---

[1]- كولد زيهر: مصدر سابق، ص6.

بن عوف، وأبو بكر الصديق، وخالد بن الوليد، وعمرو بن العاص ﷺ، وسنقف بشيء من التفصيل عند البعض منهم.

1-عبد الرحمن بن عوف

عبد الرحمن بن عوف بن عبد عوف بن الحارث القرشي، كان يدعى في الجاهلية باسم عبد عمرو وقيل عبد الكعبة، فلما جاء الرسول سماه عبد الرحمن.

من كبار التجار بمكة، وكان أحد الثمانية الذين سبقوا إلى الإسلام، وأحد العشرة المبشرين بالجنة، انفق جل ماله في سبيل الله، روى معمر عن الزهري «أن عبد الرحمن بن عوف حينما أسلم تصدق بشطر ماله أربعة آلاف، ثم تصدق بأربعين آلفا، ثم تصدق بأربعين ألفا دينار، حمل على خمسمائة فرس في سبيل الله، ثم حمل على خمسمائة راحلة في سبيل الله، واعتق في يوم واحد ثلاثين عبدا، كما تذكر الروايات أن عبد الرحمن بن عوف تزوج فأتى النبي ﷺ فقال: بارك الله لك أوْلِمْ ولو بشاة، قال: فكثر ماله حتى قدمت له سبعمائة راحلة تحمل البُر وتحمل الدقيق والطعام، قال: فلما دخلت المدينة سمع لأهل المدينة رجة فقالت عائشة ما هذه الرجة، فقيل لها: عير قدمت لعبد الرحمن بن عوف، سبعمائة بعير تحمل البر والدقيق والطعام، فقالت عائشة –رضي الله عنها– سمعت النبي ﷺ يقول: يدخل عبد الرحمن بن عوف الجنة حبوا»[1].

2-عثمان بن عفان

عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية القرشي، ذو النورين، وأحد المبشرين بالجنة، كان أبوه صاحب تجارة وقد مات في إحدى سفرياته إلى الشام تاركا لولده ثراء حسنا، وعلى درب أبيه وقومه في التجارة سار عثمان بن عفان فحقق من رواء ذلك مالا كثيرا.

وحينما سمع بدعوة النبي محمد ﷺ لم يتردد في الإيمان بها فكان من السابقين للإسلام، وتقول الروايات أن أبا بكر دعا عثمان إلى الإسلام فمال قلبه ثم صحبه إلى النبي ﷺ الذي

---

[1]-ابن سعد: الطبقات الكبرى، دط، بيروت، دار بيروت للطباعة والنشر، دت، مج3، مج3، ص124.

-ابن الأثير: أسد الغابة في معرفة الصحابة، دط، بيروت، دار إحياء التراث العربي، دت، مج3، ص313.

وعضه ودعاه للإسلام فأسلم، وكان يقول إني لرابع أربعة في الإسلام[1].

3-أبو بكر الصديق

عبد الله بن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب القرشي التيمي، أبو بكر الصديق بن أبي قحافة، كان اسمه في الجاهلية عبد الكعبة، فسماه الرسول ﷺ عبد الله، من أوائل المؤمنين بالدعوة الإسلامية، وصاحب رسول الله في الغار وفي الهجرة.

وهو من رؤساء مكة وأشرافها، وإليه كانت الأشناق في الجاهلية (الأشناق أي الديات)، وكعادة سادة مكة عمل أبو بكر في التجارة، وعندما أسلم أنفق جل ماله في سبيل الله، فقد ذكر الرواة أنه حينما أسلم كان لديه أربعون ألف درهم أنفقها في سبيل الله عند هجرته إلى المدينة، ولم يبق منها سوى خمسة آلاف درهم، وكان يشتري العبيد الذين أوذوا وعذبوا بسبب إيمانهم بدعوة النبي ﷺ ثم يعتقهم فيصبحوا أحرارا.

أبو بكر الصديق الذي لم يتردد في تصديق الرسول ﷺ حينما أخبر الناس بأن الله أسرا به من ليلته من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى في حين كذبته قريش، وراوض الشك بعض المسلمين في تصديقه، وعنه قال الرسول: «لو كنت متخذا من أمتي خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا، ولكن إخاء وصحبة حتى يجمعنا الله عنده»[2].

ومن هنا تتكشف لنا النوايا السيئة للاستشراق العلمي -في مجال دراسة النبوة- وتسقط بذلك كل دعاوي الحياد والموضوعية والبحث عن الحقيقة، وعليه، فإن الباحث المستشرق لا يهتم بمدى صحة المعلومات المقدمة، بقدر ما يهتم بالترويج لتصوره الوضعي الذي ينادي بضرورة إخضاع الحادثة التاريخية للمنهج التجريبي، ثم البحث عن القوانين والشروط التي تحكمت في هذه الظاهرة، ولا فرق عندهم إن كانت الظاهرة المدروسة دينية أم اقتصادية أم نفسية، مادامت تنتمي جميعها إلى الكون المادي.

---

[1]-ابن سعد: المصدر السابق، مج3، ص53.
-ابن الأثير: المصدر السابق، مج3، ص376-377.
[2]-ابن سعد: المصدر السابق، مج3، ص169.
-ابن الأثير: المصدر السابق، مج3، ص205-206.

ثالثا: الإسقاط Projection

الإسقاط في مفهوم التحليل النفسي الكلاسيكي هو «العملية التي بواسطتها يزيح الفرد سماته وانفعالاته وميوله واتجاهاته ويلصقها بشخص آخر[1].

ويكون السبب من وراء هذه العملية هو كراهة الشخص لوجود تلك السمات والانفعالات في ذاته، كما جاء في معجم مصطلحات التحليل النفسي من أن «الإسقاط يدل على العملية التي ينبذ فيها الشخص من ذاته بعض الصفات والمشاعر والرغبات وحتى بعض الموضوعات التي يتنكر لها أو يرفضها في نفسه، لكي يُمَوْضِعها في الآخر»[2].

ويلجأ الشخص إلى هذه الوسيلة النفسية بطريقة لاإرادية ودون وعي منه[3].

والممعن للنظر في هذين التعريفين يجد أنهما ينطبقان تماما على حالة المستشرقين الذين قاموا بعملية إسقاط أو إزاحة لكل العيوب والنقائص الموجودة في الكتاب المقدس، وإلصاقها بالقرآن الكريم، والسبب في ذلك كما يرى العديد من المفكرين المسلمين هو «شعورهم بالنقص بسبب عقلنية الإسلام وعلميته، وخرافات عقيدتهم وأسرارها ورموزها المتناقضة»[4].

ويعتقد المستشرقون بأن مادة القرآن ليست وحيا من السماء، وإنما خليطا من الأفكار والمعلومات الدينية جمعها النبي عن طريق اتصاله بالديانات الموجودة في بيئته زمن ظهوره، وفي ذلك يقول جولد زيهر: «فتبشير النبي العربي ليس إلا مزيجا من معارف وآراء دينية عرفها أو استقاها بسبب اتصاله بالعناصر اليهودية والمسيحية وغيرها، والتي تأثر بها تأثرا عميقا ورآها جديرة بأن توقظ عاطفة دينية حقيقية عند بني وطنه»[5].

---

(1)-جابر عبد الحميد جابر، علاء الدين كفافي: معجم علم النفس والطب النفسي، دط، القاهرة، دار النهضة العربية، 1993، ج6، ص2997.

(2)-جان لابلانش، ج.ب.بونتاليس: معجم مصطلحات التحليل النفسي، ترجمة: مصطفى حجازي، ط2، لبنان، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 1407هـ-1987م، ص70-71.

(3)-جابر عبد الحميد جابر، علاء الدين كفافي: المرجع السابق، ج6، ص2997.

(4)-شوقي أبو خليل: مرجع سابق، ص16.

(5)-جولد زيهر: مرجع سابق، ص12.

فهذا الاتهام الموجه للقرآن الكريم هو إسقاط حاول المستشرقون من خلاله التعبير عن القلق الذي يشعرون به تجاه الأناجيل والتوراة، بعد أن كشفت الدراسات التاريخية في القرن الثامن عشر (18م) احتواء الكتاب المقدس للعديد من الأخطاء والتناقضات التي نتجت عن الأخذ والاقتباس من العقائد الوثنية للأمم المجاورة التي كانت موجودة زمن بعثت المسيح عليه السلام[1].

ويذهب بعض الباحثين إلى أن عامل الخوف على المسيحية هو الذي دفع المبشرين بالدعوة المسيحية إلى اللجوء إلى الأمم المجاورة «وهناك حاولوا تطعيم المسيحية ببعض عقائد تلك الشعوب الوثنية حتى تجد لها طريقا إلى أذهانهم»[2].

وتعتبر عقيدة الثالوث من بين العقائد المقتبسة من ديانة تلك الشعوب الوثنية، وهكذا فإن المسيحية كما يقول "ول ديورنت": «لم تقض على الوثنية بل تبنتها، ذلك أن العقل اليوناني النضر عاد إلى الحياة في صورة جديدة في لاهوت الكنيسة وطقوسها...، وانتقلت الطقوس اليونانية الخفية إلى طقوس القداس الخفية الرهيبة... فجاءت من مصر آراء الثالوث المقدس ويوم الحساب، وأبدية الثواب والعقاب، وخلود الإنسان في هذا أو ذاك»[3].

أما الإسقاط الذي قام به المستشرقون بخصوص تفسير الوحي في العقيدة الإسلامية على أنه إلهام وفيض من نفس النبي الداخلية، فذلك هو معنى الوحي في الديانتين اليهودية والمسيحية، فقد جاء في قاموس الكتاب المقدس ما نصه: «أما النبوة فكانت على أنواع مختلفة كالأحلام الرؤى والتبليغ، وكثيرا ما كان الأنبياء يرون الأمور المستقبلية بدون تمييز أزمنتها... وتأسست أيضا مدارس للأنبياء في بيت إيل وأريحة وأماكن أخرى، وكان يعلّم في هذه المدارس تفسير التوراة والموسيقى والشعر، ولذلك كان الأنبياء شعراء وأغلبهم كانوا يترنمون ويلعبون على آلات الطرب»[4].

---

[1]-انظر: الفصل الأول من البحث، ص55-56

[2]-عبد الغني عبود: مرجع سابق، ص85.

[3]-ويل ديورنت: مصدر سابق، مج11-12، ص275.

[4]-جورج بوست: قاموس الكتاب المقدس، ص10-12. نقلا عن: التهامي نقرة، مرجع سابق، ص105.

فهذه الفكرة السائدة لدى مؤرخي الأديان في الغرب –وهي أن أنبياء العهد القديم كانوا يتدارسون التوراة في مدارس خاصة، قادتهم إلى الإسقاط، فقالوا بأن الرسول ﷺ أخذ المعارف الدينية أو تعلم العقائد الدينية من الراهب "بُحَيرى" الذي التقى به النبي حينما كان في رحلة تجارة مع عمه قادته إلى بلاد الشام، ومن ورقة بن نوفل ابن عم السيدة خديجة زوج النبي، وقد كان عالما بالنصرانية.

1-التعلم من الراهب بحيرة

تذكر الروايات أن الرسول ﷺ لما بلغ السن الثانية عشرة اصطحبه عمه أبو طالب في تجارة إلى الشام، حتى وصل بصرى –وهي معدودة من الشام وقصبة كوران وكانت في ذلك الوقت قصبة للبلاد العربية التي كانت تحت حكم الرومان – وكان في هذا البلد راهب وعرف ببحيرا واسمه جرجيس، فلما نزل الركب خرج إليهم وأكرمهم بالضيافة، وكان لا يخرج إليهم قبل ذلك وعرف رسول الله ﷺ بصفته، فقال وهو آخذ بيده هذا سيد العالمين، هذا يبعثه الله رحمة للعالمين، فقال أبو طالب: وما علمك بذلك؟ فقال: إنكم حين أشرفتم من العقبة لم يبق حجر ولا شجر إلا و خر ساجدا، ولا تسجد إلا لنبي، وإني أعرفه بخاتم النبوة في أسفل غضروف كتفه مثل التفاحة، وإنا نجده في كتبنا، وسأل بحيرا أبا طالب أن يرده ولا يقدم به إلى الشام خوفا عليه من اليهود، فبعثه عمه مع غلمانه إلى مكة[1] .

ولكن المستشرقين ألفوا التعامل مع السيرة العطرة وفق أسلوب خاص لا يمت بصلة إلى منهجية البحث العلمي، هو أسلوب قائم على تشويه الحقائق والتأويل الخاطئ لبعض النصوص دون النظر إلى مراتب الإسناد، كما هو الحال في الرواية، وهي خطوات تقصي البحث عن دائرة العلمية والموضوعية.

وكل هذه الخطوات لا تهمهم، لأن الأهم عندهم هو تأكيد نتائج مسبقة صاغوها في شكل فرضيات ثم اتبعوا كل الطرق والأساليب في سبيل الاستدلال عليها، وجعلها حقائق ثابتة لا تقبل النقاش، وقضية اقتباس الرسول ﷺ للمعارف الدينية من الديانتين المسيحية واليهودية أصبحت عندهم عقيدة راسخة لا يزيحون عنها.

---

[1]– ابن هشام: مصدر سابق، ج1، ص180-182

يقول المستشرق **ج.إيداك:** «واتفق محمد في أثناء رحلاته أن يتعرف شيئا قليلا من عقائد اليهود والنصارى، ولما أشرف على الأربعين أخذت تتراءى له رؤى أقنعته بأن الله اختاره رسولا»[1] .

ويقول المستشرق **جوستاف لوبون:** «وتقول القصة أن محمدا سافر مرة مع عمه إلى سورية فتعرف في بصرى براهب نسطوري في دير نصراني، فتلقى منه علم التوراة... وتهيأ له بذلك السفر إلى سورية والاجتماع مرة ثانية بالراهب الذي أطلعه سابقا على التوراة»[2].

فلو نظرنا إلى هذه الرواية بعين الباحث المنصف المتحرك للبحث عن الحقيقة فإنه يدرك بأن هذه الرواية لا تتضمن أية دلالة أو إشارة إلى أن الرسول ﷺ قد استمد معلوماته الدينية من بحيرا الراهب وذلك للأسباب الآتية:

1-اتفق رواة الحديث على أن الرسول ﷺ حينما ذهب مع عمه إلى الشام كان سنه يومئذ اثني عشرة سنة، فكيف يستسيغ العقل البشري بأن يحدث الراهب بحيرا طفلا في هذا السن في أمر من أعظم الأمور وهو أمر العقيدة والدين؟ وكيف استوعب عقله الصغير علم التوراة كلها دفعة واحدة؟.

2- إن النبي محمد ﷺ كان برفقة عمه ورجال القافلة، ولو حدث أمر كهذا لما خفي ذلك على أفراد القافلة وبكان خبر ه قد وصل إلى مكة وعم المنطقة كلها، ولكانت قريش أول من ينازع النبي ﷺ في هذا الأمر وتتهمه بالأخذ عن بحيرا الراهب قبل المستشرقين بمئات السنين.

3-إن تاريخ السيرة العطرة تؤكد لنا أن الرسول ﷺ لم يسافر في حياته إلا مرتين: الأولى في طفولته برفقة عمه أبو طالب؛ والسفر الثاني في شبابه برفقة ميسرة غلام السيدة خديجة بنت خويلد رضي الله عنها في تجارة لها إلى الشام، وكان سنه يومئذ خمسا وعشرين

---

[1]- عفاف صبرة: المستشرقون ومشكلات الحضارة. ص75

[2]- جوستاف لوبون: حضارة العرب، ص.130.

سنة، ومن غير المعقول أن يكون هناك لقاء تم مع الراهب بحيرا في هذه المرة، لأنه يكون قد مات وأضحت عظامه في الثرى رميما، إذ أن الفارق بين الرحلة الأولى والثانية ثلاثة عشرة سنة.

إلا أن هناك من الباحثين من يعتقد بأن الرسول ﷺ حينما عاد إلى الشام للمرة الثانية واستراح في ظل شجرة قريبا من صومعة لراهب يقال له انسطورا فعرف هذا الراهب بفراسته بعض أمارات النبوة في محمد ﷺ قال لميسرة: « ما نزل تحت هذه الشجرة إلا نبي...!!»[1].

وسواء تم اللقاء الثاني أو لم يتم فإن المؤكد أن الرسول ﷺ لم يكن بمفرده، كما أن أياما معدودة قضاها بالشام يستحيل أن تكون كافية لأن يحفظ النبي ﷺ علم التوراة كلها.

4-قبل المستشرقون جزءا من قصة بحيرا وهو التقاؤه مع بالرسول ﷺ لينسجوا منه الدليل على مسألة الأخذ و التلقي من الغير، وأغفلوا الجزء الآخر والمتعلق بمعرفة بحيرا لصفات النبوة في شخص محمد ﷺ الأمر الذي جعل بحيرا يطلب من عمه أبي طالب الرجوع به إلى مكة مخافة أن يراه اليهود، فلو كان غرضهم نزيها لعرضوا الحقائق كما جاءت، ثم يتناولونها بالنقد والتحليل سواء توافق ذلك مع أفكارهم الخاصة أم لم تتوافق معها، أما أن يقوموا بعملية التقطيع والبتر للحقائق، فيتقبلون جزءا ويرفضون أجزاءً أخرى فهذا ما لا يتفق ودعاويهم القاضية بالتزام المنهج العلمي.

5-إن قصة بحيرا قد ضعفها الشيخ رشيد رضا لأن الروايات الخاصة بها ضعيفة الاسانيد إلا رواية الترميذي وليس فيها اسم " بحيرا"، وفيها غلط في المتن وليس في شيء من تلك الروايات أنه ﷺ سمع من بحيرا شيئا عن عقيدته أودينه[2] .

---

[1]- محمد أحمد المسير: الرسول والوحي، ص80 .

[2]- محمد رشيد رضا: الوحي المحمدي، ص.96.

2-التعلم من ورقة بن نوفل

ورقة بن نوفل هو الشخص الذي لجأت إليه السيدة خديجة رضي الله عنها حينما أخبرها الرسول ﷺ بما رآه في غار حراء، ففي الأخبار أن خديجة رضي الله عنها ذهبت رفقة النبي ﷺ إلى ابن عمها ورقة ابن نوفل وقصت عليه الخبر فطمأن النبي ﷺ وقال له:« يا ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره الرسول ﷺ خبر ما رأى فقال له ورقة هذا الناموس الذي أنزل على موسى وهو جبريل، يا ليتني أكن فيها جدعا، ليتني أكون حيا إذ يخرجك قومك، فقال الرسول ﷺ أو مخرجي هم؟ قال ورقة: نعم لم يأت أحد بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرا مؤزرا...»[1].

ويذكر الطبري أن لفظة الناموس تعني جبريل وهي من الألفاظ اليهودية والنصرانية، وهي نوموس (NOMOS) في اليونانية ولها عدة معان منها الشريعة ، والكتب المقدسة، وكتب الوحي.[2] .

أما المستشرقين فقد جعلوا من ورقة الدليل الأول، والسند الأكبر الذي يرتكزون عليه في قضيتهم الأبدية، قضية (بشرية القرآن)، وإليه أرجعوا الفضل في ثقافة محمد ﷺ الدينية، لأنه بقي في جواره مدة خمسة عشر عاما قبل البعثة، وهو ينهل من معارف هذا العالم المسيحي، وقد اجتمعت الآثار على أن ورقة تنصر، وقد كان يترجم التوراة والإنجيل إلى العربية، ألا تكفي هذه المدة لنابغة العرب محمد بن عبد الله لكي يأخذ عنه شيئا من علوم التوراة والإنجيل[3].

وترجم له المؤرخون من أهل الحديث فذكروا بأنه ينتسب إلى بني أسد، وكان حنيفيا لا يعبد الأصنام ولا يشرب الخمر، ثم تنصر، وقد اختلف المؤرخون في مسألة اعتناقه للنصرانية فمنهم من عده من الداعين لها والمبشرين بها اعتمادا على رواية البخاري التي

---

(1)- رواه البخاري في صحيحه: كيفية بدأ الوحي، باب: كيف كان بدأ الوحي، ج1، ص5.

(2)- الطبري: تاريخ الطبري، ج1، ص.27.

(3)- التهامي نقرة: مرجع سابق، ص.37.

يشير فيها إلى معرفته للغتين العبرانية والسريانية، وكتابته للتوراة والإنجيل، والتي تقول: «وكان أمرؤ قد تنصر في الجاهلية وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل ماشاء الله أن يكتب »[1].

ومن المؤرخين من قال بقراءته للكتابين دون أن يكون داعيا لهما، يقول المؤرخ جواد علي: « تعلم ورقة العبرانية، وقرأ التوراة وكتبها بالعبرانية، وقرأ الكتب، ولا نعرف من أمره شيئا واضحا صريحا يلقي الضوء على حياته ومعتقده وآرائه وموقفه من اليهودية والنصرانية غير تلك الروايات التي يرويها أهل الأخبار، ولم يذكر أحد منهم أنه أسلم أو أنه روى حديثا عن الرسول ﷺ »[2].

ويضيف الشيخ محمد رشيد رضا قائلا: « وقد استقصى المحدثون كل ما عرف عن ورقة هذا مما صح سنده ومما لم يصح له سند كدأبهم في كل ما له علاقة بالنبي ﷺ والإسلام، فلم يذكر أحد منهم أنه عرف عنه دعوة إلى النصرانية أو كتابه فيها»[3].

والرد على دعوة تلقي النبي ﷺ عن ورقة نرد عليها في النقاط الآتية:

_ إن الروايات التي اعتمد عليها المستشرقون في الاستدلال على دعواهم القاضية بتعلم الرسول ﷺ التوراة والإنجيل من ورقة الذي وصفوه بالعالم المسيحي الكبير، هي روايات غامضة وبعضها شاذة. وهذه هي المنهجية المتبعة عندما يتعلق الأمر بأصول الإسلام، وهي منهجية انتقائية قائمة على اختيار الروايات الضعيفة والمهلهلة التي تساعدهم في إثبات فرضياتهم والوصول إلى مبتغاهم، حيث جاء في بعض الروايات، أن ورقة بن نوفل قال حين علم من خديجة خبر محمد ﷺ «إنه هو النبي المنتظر الذي بشر به المسيح عيسى بن مريم» وهي رواية شاذة[4].

---

(1)— رواه البخاري في صحيحه: كيفية بدأ الوحي، باب: كيف كان بدأ الوحي، ج1، ص5.

(2)— جواد علي: مرجع سابق، ص75.

(3)— محمد رشيد رضا: مرجع سابق، ص96.

(4)— المرجع نفسه، ص96.

_ وأن حديث بدأ الوحي الذي رواه الشيخان في الصحيحين هو حديث صريح و لا توجد ففيه أية إشارة أو علامة تفيد أن النبي ﷺ أخذ عن ورقة التوراة والانجيل، وكل ما هنالك أن خديجة رضي الله عنها خافت على النبي ﷺ جراء ما حدث بغار حراء فأرادت أن تطمئن على زوجها فقصدت ابن عمها ورقة بن نوفل لأنه أعلم العرب بهذا الشأن[1].

_ إن الواقع التاريخي يكذب هذا الإدعاء، لأن الرسول ﷺ، لم يسبق له وأن التقى بورقة إلا في هذه المرة، ولو حدث عكس ذلك لما خفي أمره عن كفار قريش، ولما أغفل هذا الأمر أهل الحديث وكتاب السيرة.

_ أما ما يقوله الحداد: «من أن الرسول ﷺ بقي خمسة عشر عاما قبل البعثة بجوار ورقة يتعلم منه التوراة والانجيل فهو قول مرفوض؛ فلو فرضنا جدلا بأن النبي ﷺ بقي كل هذه المدة وهو يتعلم من ورقة فيكون من غير المعقول أن يأتي إليه الرسول بعد أول اتصال بينه وبين الوحي يسأله عما حدث له لأن المنطق السليم يقتضي بأن يكون عالما بهذا الأمر مدركا لحيثياته وتفاصيله، فلا يخاف ولا يجزع، بل العكس الذي يحدث لأنه وقع له ما كان يرجوه وينتظره وهو مجيء الوحي والتكليف بالرسالة.

ويعلق الدكتور عبد الكريم الخطيب على هذه الدعوى قائلا: « إن ورقة قد مات بعد قليل من بعثة النبي ﷺ، لم يشهد أحداث الدعوة ولم يدرك وقائعها، فكيف يضمن القرآن الذي وضعه بين يدي محمد ﷺ، كيف يُضمّنه أحداثا لم تقع حتى بعد أن مات وصار ترابا في التراب؟ كيف يذكر هذه الأحداث التي كان يتنزل بها الوحي في حينها محددة الزمان والمكان، فهذه غزوة النبي ﷺ مثلا في بدر، وأحد ، وحنين إنها مشاهد حية وقعت بين المسلمين وبين أعداء النبي ﷺ والإسلام، وقد سجل التاريخ أحداثها من أوثق المصادر بعد أن ذكرها القرآن الكريم في حينها.

---

[1]–محمد رشيد رضا: المرجع السابق، ص124.

فهل كان ورقة شاهد هذه المعارك، لقد طواه الموت قبل ذلك بزمن غير قليل، فكيف إذن يذكرها في القرآن الذي وضعه لمحمد؟ »[1].

رابعا: الاعتماد على الأشباه وإغفال الفروق

إذا كان المستشرقون قد بنوا مذهبهم في القرآن (الاعتقاد ببشريته) على مجموعة من القضايا وقع فيها التشابه بين الديانات السماوية الثلاث (اليهودية والمسيحية والإسلام)، كالتشابه في بعض القصص القرآني والتشابه في بعض العادات والعبادات، فما هو موقفهم من الأخبار التي خالف فيها القرآن ما ورد في التوراة والإنجيل؟

وسنكتفي هنا بالحديث عن ثلاثة فروق تأتي العقيدة الإلهية في مقدمتها.

1-الاختلاف في تصور الألوهية

إذا كان الإله في المسيحية يتكون من ثلاث أقانيم (الأب والابن والروح القدس)، وقام بتقديم ابنه الوحيد فداء للبشرية وحبا فيها[2]. فإن للإله في اليهودية شأنا آخر، فهو إله واحد ولكنه لم يضح بابنه الوحيد لأجل البشرية، بل ضحى بكل البشرية لأجل شعبه الوحيد المتمثل في شعب إسرائيل، ولذلك فإن "يهوه" إله خاص ببني إسرائيل دون غيرهم من الأمم كما جاء في سفر إرميا، يقول الرب: «...وأعطيتهم قلبا ليعرفوا أني أنا الرب فيكونون لي شعبا وأنا أكون لهم إلها»[3].

كما تختص عنايته بقوم اليهود وحدهم كما يتضح ذلك في مسألة الخروج من مصر، إذ يقول الرب: «يا بني إسرائيل علِمُوا بيوتكم بعلامات لأني أريد أن أغير على المصريين وأهدم بيوتهم، فحتى أعرف بيوتكم علِمُوهَا حتى لا أهدمها»[4]. لذلك فإن الاخلاق كما يقول الباحث "محمد خليفة حسن خليفة" في الديانة اليهودية وجهت لخدمة تلك الخصوصية التي منحها الإله "يهوة" لليهود «وأصبح هناك مستويات للتعامل الأخلاقي المستوى الأول للتعامل

---

[1]-عبد الكريم الخطيب: النبي ﷺ، ص.91.

[2]-انظر: الفصل الأول من البحث، ص55

[3]-سفر إرميا، الإصحاح 3/12-5.

[4]-سفر الخروج، الإصحاح 5/14-7.

الأخلاقي بين الإسرائيليين في علاقاتهم ببعضهم، والمستوى الثاني للتعامل الأخلاقي بين الإسرائيليين من ناحية، وغير الإسرائيليين من ناحية أخرى، وهكذا خضعت الأخلاق للرؤية العنصرية التي بدأت تستثري في الديانة إلى أن حولتها في النهاية إلى ديانة عنصرية خالية من الاتجاه العلمي»[1].

ولننظر الآن إلى صورة الإله في الكتاب المقدس -كما وصفه اليهود- فهو يمشي في الجنة ويندم ويخاف من منافسة الآلهة له، ويغار على شعبه، وغيرها من الأوصاف التي كانت تطلق على الآلهة التي كانت تعبدها الأمم المجاورة لبني إسرائيل[2].

جاء في سفر إشعيا الثاني قول الرب «بمن تشبهونني وتُسَوُونَنِي وتمثلونني لنتشابه؟»[3]، وقوله أيضا على لسان نبيه إرميا: «إن أباءكم قد تركونني وذهبوا وراء آلهة أخرى وعبدوها وسجدوا لها وإياي تركوا وشريعتي لم يحفظوا»[4]. وأورد سفر الخروج ما نصه «لا تسجد لهن ولا تعبدهن لأني أنا الرب إلهك إله غيور»[5].

وفي عرض التوراة لقصة خطيئة آدم عليه السلام تصف الإله ماشيا في الجنة ولا يعلم ماذا حدث فيها: «...وسمعا صوت الرب الإله ماشيا في الجنة عند هبوب ريح النهار، فاختبأ آدم وامرأته من وجه الرب الإله في وسط شجر الجنة، فنادى الرب الإله آدم وقال له: أين أنت؟ فقال: سمعت صوتك في الجنة فخشيت لأني عريان فاختبأت...»[6].

---

(1)-محمد خليفة حسن خليفة: المرجع السابق، ص166-167.

(2)-المرجع نفسه، ص196-197.

-جودة السحار: مرجع سابق، ج2، ص

-عباد محمود العقاد: الإسلاميات، المجموعة الكاملة، مج5، الإسلاميات1، ط3، بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1986، ص52.

(3)-سفر إشعيا الإصحاح/25.

(4)-سفر إرميا الإصلاح16/11-12.

(5)-سفر الخروج، الإصحاح 5/20.

(6)-سفر التكوين الإصحاح3/8-10.

لقد جاء الإسلام ليصحح الانحراف الذي أصاب عقيدة الألوهية في كل من اليهودية والمسيحية، من خلال إلغاء صورة الإله الذي ينفعل ويغضب وينحاز في التوراة، وإلغاء فكرة التعدد وأن المسيح ابن الله وثالث الثلاثة (الأب والابن والروح القدس) في المسيحية.

إن القرآن يقرر منذ البدء حقيقة بسيطة واضحة في متناول كل العقول، الله واحد لا شريك له خالق الكون والإنسان، ليس كمثله شيء.

هذه الحقيقة التي باتت تجذب العديد من الغربيين ليؤمنوا بصحة رسالة الإسلام وبصدق رسوله محمد ﷺ، من ذلك مثلا: الاستجواب الذي نشرته مجلة (صوت الإسلام، ع9 لسنة 1988) ومن ضمن ما جاء فيه ردا على سؤال وُجه للفرنسي "كليمون توريز" (Clement Touriz) [1]: لماذا اعتنقت الإسلام؟ قال: «ثلاث ميزات في الإسلام لم أجدها في غيره من الأديان ولا في النظريات البشرية البساطة والوضوح والتوافق مع طبيعة الإنسان»[2].

2-الاختلاف في صنع العجل

تقول التوراة بأن هارون أخو موسى -عليهما السلام- هو الذي صنع العجل الذي عبده بنو إسرائيل أثناء غياب موسى، كما ينص على ذلك سفر الخروج: «ولما رأى الشعب أن موسى أبطأ في النزول من الجبل اجتمع الشعب على هارون وقالوا له: قم واصنع لنا آلهة تسير أمامنا، لأن هذا موسى الرجل الذي أصعدنا من أرض مصر لا نعلم ماذا أصابه، فقال لهم هارون: انزعوا أقراط الذهب التي في آذان نسائكم وبنيكم وبناتكم وأتوني بها، فنزع كل الشعب أقراط الذهب التي في آذانهم وآتوا بها إلى هارون، فأخذ ذلك من أيديهم وصوره بالإزميل وصنعه عجلا مسبوكا، فقالوا: هذه آلهتك يا إسرائيل التي أصعدتك من أرض مصر، فلما نظر هارون بنى مذبحا أمامه، ونادى هارون وقال: غدا عيد الرب فبكروا في الغد وأصعدوا محرقات وقدموا ذبائح سلامة، وجلس الشعب للأكل والشرب ثم قاموا للعب»[3].

---

[1]-كليمون توريز: حفيد موريس توريس (Mourice Touriz)، مؤسس الحزب الشيوعي الفرنسي، اعتنق الإسلام هو وأخته كاترين وأصبح اسمهما على التوالي: عبد الرحمن ولطيفة. شوقي أبو خليل: غوستاف لوبون في الميزان، ص7-8.

[2]-شوقي أبو خليل: مرجع سابق، ص7.

[3]-سفر الخروج، الإصحاح32/1-6.

إن نسبة صنع العجل لهارون عليه السلام يعني اتهامه بالكفر والخروج عن شريعة موسى، وهي التوحيد وعبادة الإله الواحد- وهذا الأمر ليس بالشيء الغريب عن طبيعة بني إسرائيل الذين ألفوا الكذب على الأنبياء ورميهم بأبشع التهم.

بينما نفى القرآن الكريم هذه التهمة التي يستحيل عقلا أن تصدر في حق نبي أمر من قبل الله بالدعوى لعبادته، ونسب صنع العجل إلى شخص يدعى السامري، قال تعالى: ﴿فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَاقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي. قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ. فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ﴾ إلى قوله: ﴿قَالَ يَاهَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا. أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي. قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي. قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَاسَامِرِيُّ. قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾[1].

3-الاختلاف حول المرأة التي تبنت موسى عليه السلام

في حين تنص التوراة على أن ابنة فرعون هي التي تبنت النبي موسى كما جاء في سفر الخروج: «فنزلت ابنة فرعون إلى النهر لتغتسل وكانت جواريها ماشيات على جانب النهر، فرأت السفط بين الحلفاء فأرسلت أمتها فأخذته ولما فتحته رأت الولد وإذ هو صبي يبكي. فرقت له وقالت هذا من أولاد العبرانيين، فقالت أخته لابنة فرعون هل أذهب وأدعو لك امرأة مرضعة من العبرانيات لترضع لك الولد، فقالت لها ابنة فرعون اذهبي... وأخذت المرأة الولد وأرضعته ولما كبر الولد جاءت به إلى ابنة فرعون، فصار لها ابنا»[2].

يخبرنا القرآن الكريم بأن المرأة التي تبنت موسى عليه السلام هي آسيا امرأة فرعون وليست ابنته، قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[3].

---

[1]-طه، الآية: 86-97.

[2]-سفر الخروج، الإصحاح 2/5-10.

[3]-القصص: الآية 9.

هذه إذن كانت من بعض من أمثلة كثيرة على الاختلاف الحاصل في الأخبار بين القرآن الكريم والكتاب المقدس، وهي تدل على وجود مصدر آخر استقى منه الرسول ﷺ هذه الأخبار المخالفة لكل المعارف والمعلومات الدينية التي حفلت بها بيئة النبي، ولن يكون ذلك المصدر سوى المصدر الإلهي المتمثل في الوحي الرباني.

خامسا: -التحيزات الذاتية المسبقة (الافتقار إلى الموضوعية)

من بين المحاولات التي قام بها المستشرقون لنفي الاتصال الإلهي بين الله ونبيه محمد ﷺ محاولة نسبة القرآن الكريم إلى الشعر الجاهلي كشعر أمية بن أبي الصلت[1].

وتعتبر المحاولة التي قام بها المستشرق "كليمار هوار" (Clement Houart)[2] من أبرز المحاولات في هذا المجال، حينما كتب فصلا في المجلة الآسيوية سنة 1904 يدّعي فيه اكتشافه لمصدر جديد للقرآن هو الشعر الجاهلي، ومما جاء فيه قوله: «...من بين شعراء العرب كان تأثير أمية بن أبي الصلت جد ملاحظ، إن أثر قصائد أمية -التي كانت محفوظة وكثيرة الترديد على لسان العرب- على الرغم من أن النبي حاربها، كان عظيما بشكل لا يحتاج إلى المقارنة»[3].

وفي موضع آخر من هذا الفصل يقول: «وأبيات قصائده (أمية بن أبي الصلت) في أغلبها الساحقة تقتصر على نظم مقاطع من الكتاب المقدس، وهذا سيمكننا -من جديد من دراسة مسألة الشعر الجاهلي على تكوين القرآن-»[4].

---

[1]-أمية بن أبي الصلت: من ثقيف بن بكر، واسمه عبد الله بن ربيعة، شاعر عاش في الجاهلية والإسلام، كان على معرفة بالتوراة والإنجيل، فرغب عن عبادة الأوثان، ولقد عرف من الرهبان أن نبيا صوف يظهر من العرب فأخذ يتحسس أخباره، حتى إذا بعث النبي محمد ﷺ تكدّر وكفر به حسدا، إذ كان يأمل أن يكون ذلك النبي، ولما أنشد رسول الله شعره قال: أمن لسانه وكفر قلبه، مات في الطائف بعد أن رثا قتلى بدر من المشركين. انظر: أبو الفرج الإصفهاني: كتاب الأغاني، ص37. ابن قتيبة: الشعر والشعراء، دط، مصر، ددن، 1964، ص429.

[2]-كليمان هوار: (1854-1927م)، مستشرق فرنسي تخرج من مدرسة اللغات الشرقية، وعمل لدى وزارة الخارجية الفرنسية، بعدها تفرغ للدراسات المتعلقة بالإسلام من آثاره: "

[3]-كليمان هوار: مصدر جديد للقرآن، ص133. مقلا عن: عبد الرزاق بن إسماعيل هرماس: مرجع سابق، ص86.

[4]-المرجع نفسه.

وليس الغرض هنا بيان تهافت هذه النسبة (نسبة القرآن إلى الشعر) بقدر ما هو محاولة نستدل بها على غلبة أهواء النفس وميولها وسيطرتها على فكر الباحث المستشرق، فعطلت عنده ملكة التفكير السليم وأعاقته عن الإدراك الصحيح. وذلك من خلال إيراد قول "طه حسين" الذي تصدى للرد على تقة كليمان في شعر أمية وتشككه في القرآن الكريم –على الرغم مما ذهب إليه قبل هذا في مؤلفه الشعر الجاهلي–.

يقول طه حسين: «والغريب في أمر المستشرقين في هذا الموضوع وأمثاله، أنهم يشكّون في صحة السيرة النبوية نفسها ويتجاوز بعضهم الشك إلى الجحود، فلا يرونها مصدرا تاريخيا صحيحا، وإنما هي عندهم كما ينبغي أن تكون عند العلماء جميعا طائفة من الأخبار والأحاديث تحتاج إلى التحقيق والبحث العلمي الدقيق»[1]. وبعد هذا يضيف: «يقفون من أمية وشعره موقف المتيقن المطمئن، مع أن أخبار أمية ليست أدنى إلى الصدق ولا أبلغ في الصحة من أخبار السيرة، فما سر هذا الاطمئنان الغريب إلى نحو من هذه الأفكار دون الآخر، أيكون المستشرقون أنفسهم لم يبرؤا من هذا التعصب الذي يرمون به الباحثين من أصحاب الديانات»[2].

سادسا: التناقض

وهي أكثر الأدوات استعمال من طرف المستشرقين، يحث يصرح هؤلاء في مقدمة كتبهم بأنهم سيلتزمون بالموضوعية والحياد والدقة، ولكن سرعان ما يحيدون عن ذلك، قال "واط" في كتابه "محمد في مكة": «فإذا كان علينا أن نصحح الأخطاء التي ورثناها عن الماضي فلا بد أن نؤمن بإخلاصه وصدقه إلا إذا ثبت العكس... فنظريات الكتاب التي تفترض افتراضا مسبقا أن محمد ﷺ غير صادق لن نناقشها كنظريات، ومع هذا فسنناقش هنا الأدلة التي سيقت للدلالة على عدم صدقه»[3]. وفي موضع آخر من نفس الكتاب، نجده يقول: «بأن أفكار محمد ﷺ التي أنتجها خياله المبدع كانت إلى حد كبير حقيقية

---

[1]–طه حسين: في الأدب الجاهلي، ط3، دار العلم للملايين، 1978، مج1، ص154.

[2]–المرجع نفسه.

[3]–مونتغمري واط: محمد في المكة، مرجع سابق، ص121–122.

وصحيحة»[1]، إن قول واط الأخير يشير إلى احتواء القرآن على أفكار غير حقيقية وغير صحيحة، ومن هنا يتضح لنا التناقض الصارخ بين هذا القول والقول السابق.

سابعا: الاعتماد على مؤلفات أسلافهم من المستشرقين:

كان ينبغي على المستشرق الذي اختار البحث في موضوعات العقيدة الإسلامية أن تكون مصادره إسلامية أصيلة بالدرجة الأولى، كالقرآن الكريم وكتب الصحاح وتاريخ الطبري وسيرة ابن هشام وطبقات ابن سعد، بالإضافة إلى الكتب المعتمدة عند جمهور المسلمين، ثم لا بأس بعد ذلك أن يستعين بما كتبه أسلافه من المستشرقين حول الموضوع، فذلك يرفع من القيمة العلمية للبحث ويوجهه لخدمة الغرض العلمي المتمثل في البحث والاستقصاء عن الحقيقة مهما كانت النتيجة المتوصل إليها، سواء أكانت تلك النتائج موافقة لرأي الباحث وميوله أو معارضة له.

أما أن يبحث المستشرق في موضوعات الإسلام كدين وحضارة، ويتجاهل تلك المصادر الأصيلة، فهذا ما لا يتماشى ومنهجية البحث العلمي، ومع الأسف الشديد فهذا هو المعمول به في الوقت الحاضر.

وكمثال على ذلك نأخذ كتاب الإسلام والمسيحية للمستشرق الروسي "ألكسي جورافيسكي"، إن المتصفح لقائمة المصادر والمراجع لهذا الكتاب لا يجد ولو كتابا واحدا من الكتب الأصيلة التي تعتبر عن النظرة الإسلامية الصحيحة من بين حوالي المائة والثلاثين كتابا (130) التي اعتمد عليها في إنجاز مؤلفه، في حين شغلت كتب أسلافه وزملائه من المستشرقين الحيز الكبير في قائمة المصادر والمراجع، أمثال المستشرق "ماسينيون" و"منتغمري وات" و"لويس غارديه" و"ألبيرت حوراني" و"جاك بيرك"، الأمر «الذي يدل على الرغبة الشديدة في وضع النظريات دون التعرف على باطن الأرض المدروسة، إذن فهل يمكن أن تكون تلك النظرية علمية وسليمة؟ طبعا لا»[2].

إن المستشرقين على الرغم من اعترافاتهم وتصريحاتهم التي تتحدث عن الموضوعية والحياد، نراهم يستخدمون أدوات تعكس بصورة جلية وواضحة دفاعهم عن معتقداتهم الدينية باعتبار أن غالبيتهم من اليهود والنصارى، لا تمت بصلة إلى شروط البحث العلمي النزيه.

كما سنرى حينما نتناول من النقد والتحليل تفسير كل من المستشرق منتغمري واط والمستشرق ماكسيم رودنسون لنبوة محمد ﷺ.

---

[1]-إميل دمنغام: مرجع سابق، ص73.

[2]-أنور عبد الملك: الاستشراق في أزمة، نقلا عن: أحمد سمايلوفيتش: فلسفة الاستشراق، ج2، ص450.

الفصل الرابع:

تفسير المستشرقين لنبوة محمد ﷺ

المبحث الأول: استمرار شبهة مصادر القرآن في مذهب الاستشراق العلمي

المبحث الثاني: موقف المستشرقين من نبوة محمد ﷺ

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

تمهيد:

إذا تحدث المستشرقون عن الوحي والنبوة في العقيدة الإسلامية، فإنهم يعنون بذلك الحديث عن (محمد والقرآن)، وعن الكيفية التي تمت بها صياغة القرآن الكريم، استنادا إلى منطلقات تاريخية وفكرية قائمة على اعتبار أن الإسلام ليس دينا صحيحا، وأن محمدا ﷺ ليس نبيا مرسلا، وإنما هو مصلح أو مفكر استطاع بفضل ما حصل عليه من معلومات أن يؤلف القرآن.

وقد أصفر موقف المستشرقين من الوحي المحمدي عن ظهور نظريتين اثنتين[1]، حاولتا تحليل ظاهرة الوحي من خلال علم النفس الحديث، بالاعتماد على الأعراض التي كانت تنشأ عن الرسول ﷺ حين كان يأتيه الوحي، وأسسوا فكرتهم القاضية بأن ما كان يدعيه نبي الإسلام من أنه وحي أتاه به ملك مرسل لا يخرج عن كونه حالة نفسية لها دوافعها وأسبابها، ولذلك نجدهم يتحدثون عن العقل الباطن، وعن اللاشعور وعن الخيال الخلاق وغيرها من المصطلحات ذات الدلالات النفسية، النظرية الأولى وقد قال بها المستشرق الإنجليزي المسيحي مونتغمري واط، الذي حاول تفسير الوحي المحمدي بإرجاعه إلى مصدر اللاوعي الجماعي، وإلى الخيال الخلاق. والنظرية الثانية التي قال بها المستشرق الفرنسي الملحد ماكسيم رودنسون، والذي حاول تفسير الوحي المحمدي باعتباره حالة من الحالات التي تعتري المتصوفين وهو الكشف والإلهام.

---

[1]-توجد نظرية أخرى اعتبرت الوحي المحمدي -في ضوء التحليل النفسي دائما- حاول مرضية خاصة تصيب العظماء من الرجال، كما ذهب جولد زيهر الذي فسر الوحي على أنه «حالة من الأمراض التي تصيب الرجال الذين فوق البشر دون سواهم، والذين يستقون منها حياة جديدة، كانت قبل ذلك مجهولة، كما يتخذون منها قوة تهدم جميع العقبات ومن ذلك حمية النبي أو الحواري». جولد زيهر، العقيدة والشريعة في الإسلام، ص.6.

وجوستاف لوبون الذي وصف الوحي المحمدي بالهوس حينما قال «وإذا عَدَوْتَ هوس محمد -مثل كل مفتون- وجدته حصيفا سليم الفكر، ويجب عدُّ محمد من فصيلة المتهوسين من الناحية العلمية، كما هو واضح، وذلك كأكبر مؤسسي الديانات، ولا كبير أهمية لذلك، فأولوا الهوس وحدهم -لا ذووا المزاج البارد من المفكرين- هم الذين ينشئون الديانات ويقودون الناس». جوستاف لوبون، حضارة العرب، ص.102-103.

ولكننا لم نشأ إيراد هذه النظرية في المتن تجنبا للتكرار، إذ أن النقد الذي سيوجه لها موجود ضمنيا في النقد الموجه للنظريتين المذكورتين في المتن.

المبحث الأول: استمرار شبهة مصادر القرآن في مذهب الاستشراق العلمي

المطلب الأول: نشأة مبحث مصادر القرآن

إذا كان عاملي الزعامة والطبيعة البشرية للنبي هما السببان الحقيقيان وراء تبني جهال العرب قديما لموقف العداء والخصومة مع النبي ﷺ إذ كانوا يعتقدون بأن النبوة يجب أن تكون في سادة القوم وزعمائهم، بسبب ما يتمتعون به من سلطة ونفوذ يمكنهم من حماية الدعوة، فلما اقتصرت النبوة على شخص الرسول وكان من أوسط الناس حالا، استاءوا من هذا الأمر، يقول تعالى: ﴿وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَانِ هُمْ كَافِرُونَ﴾[1]. أما عن الطبيعة البشرية للنبي ﷺ فقد سمعوا من أهل الكتاب بأن الأنبياء لهم معجزات، وخوارق ومعرفة بالغيب، فلما رأوا النبي بشرا مثلهم تعجبوا وكان ذلك مبعث جحودهم وتكذيبهم لنبوته -عليه الصلاة والسلام-، وقد تكفل القرآن بالرد عليهم آنذاك وانتهى الأمر باعتناقهم للإسلام، يقول تعالى: ﴿لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا﴾[2]. وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا. أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا. أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا. أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾[3].

فإن كان عالم الحقد والكراهية هو الذي حمل مستشرقي العصور الوسطى على القول بأن الإسلام ليس دين سموي، وأن القرآن ليس كتابا منزلا، بل هو من وضع النبي محمد ﷺ

---

[1]-الأنبياء، الآية: 36.

[2]-الفرقان: الآية: 7.

[3]-الإسراء: الآيات: 90-93.

عن طريق ما قام بجمعه من معلومات ومعارف دينية استقاها من الديانتين السابقتين على الإسلام اليهودية والمسيحية. وكان الباعث على القيام بهذا العمل (تأليف القرآن) في رأي المذهب الاستشراقي التقليدي هو الحصول على الملذات الدنياوية[1].

ويشير الباحثون بأن أول من تحدث في مسألة المصادر الأجنبية للقرآن الكريم هو "يحنى الدمشقي"[2]، صاحب المقولة الشعرية «الإسلام هردقة مسيحية»، الذي يقول عنه المستشرق "ألكسي جورافسكي" «إن يحنى الدمشقي يرفض بدوره مجموعة كبيرة من اليقينيات الإسلامية التي لا يمكن للمسيحيين أن يتقبلوا التعايش معها مطلقا، مثل: القول بأن محمدا نبي من الله، وهو خاتم الأنبياء والمرسلين، وأن القرآن كلمة الله المنزلة إلى محمد من السماء»[3].

وفي مؤلفه "مناظرة بين ساراتي ومسيحي" أورد الدمشقي مجموعة من الحجج يرى بأنها «مناقضة للطبيعة الإلهية للرسالة المحمدية كالقول إنه لم يبشر بها الأنبياء السابقون، وأن محمدا لم يقم بأي معجزة شهيرة أو أعجوبة تثبت حقيقة نبوته، وأنه من غير الممكن أن يغدو نبيا، باعتبار أن سلسلة الرسالات النبوية ختمت بيوحنا المعمدان[4]»[5].

فما هي العوامل أو الأسباب التي جعلت مذهب الاستشراق العلمي يتمسك بنفس الطرح الاستشراقي التقليدي (والمتمثل في المصادر الأجنبية للقرآن)، بالرغم من انتقاده الشديد لاطروحات هذا الأخير؟

---

[1]-قاسم السمرائي: المرجع السابق، ص54.

[2]-يوحنا الدمشقي (676-749م)، عاش في عهد الدولة الأموية في خلافة هشام بن عبد الملك، وكان يشرف على بيت المال خلفا لأبيه، من مؤلفاته: (Dialescis) كتاب في الجدل بين المسلمين والنصارى، وكتاب (مناظرة بين ساراتي ومسيحي)، ولقد ساهمت هذه الدراسات بشكل كبير في صياغة التصور الغربي عن الإسلام في العصور الوسطى. انظر: نجيب العقيقي: المستشرقون، ج1، ص72. قاسم السمرائي: الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية، ص54-55. أليكسس جورافسكي: الإسلام والمسيحية، ص70. جورج قنواتي: فلسفة الفكر الديني، ج2، ص32-48.

[3]-أليكس جورافسكي: المرجع السابق، ص70.

[4]-يوحنا المعمدان: هو يحيى عليه السلام في القرآن.

[5]-أليكس جورافسكي: المرجع السابق، ص70.

المطلب الثاني: أسباب تمسك مذهب الاستشراق العلمي بشبهة مصادر القرآن

يرى مذهب الاستشراق العلمي أن هناك عدة أسباب (مبررات جعلتهم يعتقدون بأن رسول الإسلام –عليه الصلاة والسلام– قد اعتمد في تأليف مادة القرآن على مصادر أجنبية تمثلت خصوصا في الديانتين اليهودية والمسيحية. وتتلخص هذه الأسباب في مظاهر الشبه ونقاط الالتقاء بين الإسلام والديانات الأخرى، ولقد تحمل المستشرقون (الموضوعيون) الكثير من الجهد والتعب في البحث عن هذه الأسباب متخذين في ذلك معياري التأثير والتأثر مقياسا لإثبات فكرة الاقتباس.

أولا: التشابه في بعض الأفكار

كفكرة القيامة واليوم الآخر ويوم البعث، فهذه الأمور الغيبية عزاها المستشرقون إلى ما جاء في التوراة والإنجيل، يقول جول زيهر: «إنّ ما يبشر به الرسول والمتعلق بالدار الآخرة ليس إلا مجموعة مواد انتقاها بصراحة من الخارج يقينا، وأقام عليها هذا التبشير، ولقد أفاد من تاريخ العهد القديم وكان ذلك في أكثر الأحيان عن طريق قصص الأنبياء»[1].

وذهب "وات" إلى القول: «بأن الصور القرآنية الأولى التي تتحدث عن الوحدانية تضع القرآن في مرتبة الوحدانية اليهودية المسيحية، نظرا لمفاهيمه عن الله الخالق ويوم البعث والحساب[2].

أما "بروكلمان" فيرى «بأن معتقداته ﷺ فيما يتعلق باليوم الآخر ترجع إلى مصادر يهودية، وهكذا تتصل بصورة غير مباشرة بمصادر فارسية وبابلية قديمة»[3].

وللرد على هذا الادعاء، نقول إن سكان مكة كما يخبرنا القرآن الكريم (باعتباره اقدم وثيقة تاريخية وأصدقها) لم يكونوا بمنأى عن المعلومات والأخبار الدينية التي كانت تتناقل

---

[1]–جولد زيهر: مرجع سابق، ص9.

[2]–منتغمري وات: محمد، نقلا عن: ساسي الحاج: مرجع سابق، ص330.

[3]–بروكلمان: مصدر سابق، ص130.

إليهم عبر القوافل التجارية، وعن طريق الأقليات اليهودية والمسيحية التي وجدت بمكة[1].

قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾[3].

ويروي "ابن هشام" عن "ابن إسحاق" عن سلامة بن رقش وكان علامة من أصحاب بدر، قال: «كان لنا جار من يهود، فخرج علينا يومنا من بيته، فذكر القيامة، والبعث، والحساب، والميزان، والجنة والنار...، قال ذلك لقوم أهل شرك، أصحاب أوثان، لا يرون أن بعثا كائنا بعد موت... فقالوا له: ويحك يا فلان! أترى هذا كائنا... إن الناس يبعثون بعد موتهم إلى دار فيها جنة ونار يجزون فيها بأعمالهم؟ قال: نعم...»[4].

إن ورود مثل هذه الأخبار في القرآن الكريم وفي تاريخ السيرة، لدليل كاف على أن الرسول ﷺ لم يقتبس شيئا من تلك المعلومات، فلو حدث الاقتباس فعلا لكان القرآن امتنع عن الإشارة إلى وجود تلك المعارف الدينية ببيئته حتى لا ينكشف الأمر.

أما عن وجود الشبه، فذلك أمر طبيعي وخاصة في الأمور الغيبية التي لا سبيل لمعرفتها إلا من طريق الوحي، وهو أمر مشترك بين الأنبياء جميعا، والمُوحِي إليهم واحد هو الله، فلا عجب إذن أن يوجد الشبه بين الديانات السماوية التي ارتوت من منبع واحد، فالتشابه دليل على وحدة المصدر وليس دليل على التأثير، والحق كما يقول "صبحي الصالح": «أن محمدا لم يكن بدعا من أولئك المرسلين، ولا كان أول نبيا خاطب الناس باسم الوحي، وحدثهم بحديث السماء، فمن لدن نوح تتابع أفراد مصطفون أخيار ينطقون عن الله ولا

---

[1]-انظر: الفصل الثاني من البحث، ص156.

[2]-الأنفال: الآية: 31.

[3]-العنكبوت: الآية: 46.

[4]-رواه الحاكم في المستدرك، كتاب معرفة الصحابة ﷺ. باب: ذكر مناقب سلمة بن سلامة بن وقش الأنصاري، ج3، ص471.

ينطلقون عن الهوى، ولم يكن الوحي الذي أيدهم به مغايرا للوحي الذي أيد به محمدا، بل كانت ظاهرة الوحي في جوهرها متماثلة عند الجميع، لأن مصدرها واحد هو الله، ولأن غايتها واحدة في الوصول إلى الله»[1].

واختلف القرآن في طريقة العرض لهذه الأمور فوصف القيامة وأهوالها والحياة الآخرة ويوم البعث، لم يكن معروفا لديهم بالكيفية التي وردت بها في القرآن، كما جاء في سفر إشعيا «تحيا أمواتك، تقوم الجثث، استيقظوا، ترنموا يا سكان التراب لأن هلك كل أعشابك والأرض تسقط الأخيلة»[2]. فقد قال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ. فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ. وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾[3]، وقوله أيضا:﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ(93)وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾[4].

فمن أي جهة تحصل الرسول ﷺ على هذا التصوير الرائع لقيام الساعة وأهوالها؟ لذلك نقول إذا كان التشابه دليل على وحدة المصدر وهو الله الواحد الصمد، فالاختلاف دليل صدق آخر للمتلقي عن المصدر الواحد وهو النبي محمد ﷺ.

ثانيا: التشابه في بعض الموضوعات (كموضوع القصص القرآني)

إن موضوع القصص القرآني من المواضيع التي أرجعها المستشرقون إلى التوراة والإنجيل، فهم يعتقدون بأن الرسول قد استمع إلى هذه القصص من اليهود والنصارى ثم

---

[1]-صبحي الصالح: الإسلام ومستقبل الحضارة، ص241.

[2]-أسفار الأنبياء، الإصحاح 19/26.

[3]-المؤمنون، الآيتين: 101-103.

[4]-الأنعام، الآيتين: 93-94.

أعاد صياغتها بأسلوبه الخاص، وضمها إلى مادة القرآن مدعيا بأن الله هو الذي أخبره بهذه القصص.

فقصة قابيل وهابيل وقصة إبراهيم وقصة ملكة سبأ وقصة يوسف مقتبسة من التوراة، أما قصة أهل الكهف وقصة مريم وقصة طفولة المسيح فهي مقتبسة من الإنجيل[1]. وفي هذا يقول المستشرق بلاشير (Blacher)[2]: «إن التشابه الحاصل في القصص القرآني مع القصص اليهودي المسيحي لدليل على بشرية القرآن وتأثره بالعوامل الخارجية وخصوصا منها عامل التأثير المسيحي، الذي يظهر جليا في السور المكية الأولى، والتي نتج عن العلاقة التي كانت تربط بين مؤسس الإسلام والفقراء المسيحيين»[3]، ويقول أيضا: «ولكي تتمكن الدعوة من الوصول إلى غايتها كانت تعتمد على قصص وأساطير معروفة في الجزيرة العربية، وقد تم صياغتها في شكل متناسق، فبعد بداية قصير على العموم يتناول التوبة وفرائض الإيمان، تأتي قصة تتعلق بقبيلة أو شعب أظله ترفه، فردّه عن عبادة الإله الأعلى، إنهم قوم عاد من جنوب الجزيرة العربية وثمود من وادي القرى شمال المدينة، وشعب لوط والمصريون وفرعون»[4].

والآن نأخذ قصة المسيح كمثال نستدل به على تهافت المستشرقين في دعوتهم القاضية باقتباس النبي ﷺ لموضوع القصص القرآني من التوراة والمسيحية.

يعتقد المستشرقون بأن آراء القرآن حول طبيعة المسيح البشرية تتفق مع آراء بعض الفرق النصرانية القديمة التي تنفي الطبيعة الإلهية للمسيح، يذكر المستشرق جوليان بلديك (Julian Baldick): «إن المسيحية اليهودية وليس الفرقة الأبيونية وحدها قد تبنت خلال

---

[1]-عفاف صبرة: المستشرقون والحضارة، ص50.

[2]-رينجير بلاشير (1900-1973): مستشرق فرنسي معاصر، تخرج من كلية الآداب بالجزائر سنة 1922، شغل منصب مدير لمعهد الدراسات المغربية العليا، وفي عام 1936 حصل على درجة الدكتوراه، أهم كتبه: "معضلة القرآن"، "مدخل إلى القرآن". (نجيب العقيقي: مرجع سابق، ج1، ص309).

[3]-Blachère .E. : Le problème du Mahomet, P.U.F, Paris, 1952, P60.

[4]-Balchère .R : Histoire de la lidélirature arabe des origines à la fin du 15eme siècle de J.C, « Dibrairie d'Amirique et d'orient, Paris, 1980, T2, P205.

القرون القليلة الأولى عددا من المواقف تبناها الإسلام فيما بعد، مثل الاعتقاد بأن عيسى كان المسيح المبشر به على انه بشر وليس ابنا لله...»[1].

ولقد أورد محمد أبو زهرة بعض آراء هذه الفرق المسيحية القديمة التي تقول: «بأن عيسى عبد الله ورسوله كأحد الأنبياء –عليهم السلام–، خلقه الله في بطن مريم من غير ذكر، وأنه إنسان لا إلهية فيه، وكان يقول: لا أدري ما الكلمة ولا روح القدس»[2].

وطبقا للاستشراق التقليدي، فإن القرآن الكريم قد نفى ألوهية المسيح بتأثير من هذه الفرق المسيحية، قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَامَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾[3]، ويقول أيضا: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾[4] وقوله كذلك: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[5].

ويبين لنا "درمنغام" كيفية هذا التأثير بقوله: «إن القرآن يقصد النصرانية الصحيحة حينما يقول إن عيسى كلمة الله أو روح الله ألقاها إلى مريم، وأنه من البشر، والقرآن حينما يحمل على التجسيد والثالوث لا يقصدهما بل يقصد ما فسرا به تفسيرا إلحاديا، فهو يذم مذهب القائلين بطبيعة واحدة في المسيح، ومذهب القائلين بألوهية المسيح، ومذهب تقديم الخبز إلى مريم عبادة ثم أكله. لا النصرانية الصحيحة، ولا يسع النصراني إلا أن يرضى بمهاجمة القرآن للثالوث المؤلف من الله– عيسى– مريم»[6].

---

(1)–محمد عبد الله الشرقاوي، الاتجاهات الحديثة في دراسة التصوف الإسلامي، مرجع سابق، ص84–85.

(2)–محمد أبو زهرة، مرجع سابق، ص233.

(3)–آل عمران، الآية: 45.

(4)–المائدة: الآية: 17.

(5)–آل عمران، الآية: 59.

(6)–إميل دمنغام: مرجع سابق، ص91.

ويواصل حديثه عن فكرة التأثير بقوله: «والقرآن يكون قد هاجم مذهبا خاطئا من فرق النصرانية، والقرآن لا يقول إن الثالوث مذهبا خاطئ، بل يشير إلى أنه لا ينبغي أن يفهم هذا المذهب فهما خاطئا، وأن محمد ﷺ لم يأخذ بالتثليث بسبب كثرة الفرق النصرانية الضالة[1].

إن النتائج التي يُتوصل إليها في أي مجال من مجالات المعرفة هي رهن المنهج الذي يسير عليه الباحث، وبقدر استقامة المنهج أو اعوجاجه بقدر ما يقترب من الحقيقة أو يبتعد عنها، والاعوجاج بيّن واضح في المنهج الذي سلكه "درمنغام".

فقد صدر حكمه على تأثر القرآن بالمسيحية بناء على تشابه في الآراء وهو تشابه -كما سبق لنا الحديث- يعزز صدق الدعوة المحمدية التي صدرت عن الله الواحد، الذي أرسل موسى وعيسى -عليهما السلام- من قبل. ولكن هذا المستشرق حينما وجد نفسه في مأزق بخصوص ما تؤمن به المسيحية الحالية، وهو القول بالتثليث، لجأ إلى أسلوب المراوغة والتمويه، حيث يقول: «...والقرآن لا يقول إن الثالوث مذهب خاطئ، بل يشير إلى أنه لا ينبغي أن يفهم هذا المذهب فهما خاطئا...»[2].

وإن دل هذا على شيء، فإنما يدل على أن المبرر أو السبب الذي سوغ لعقل "درمنغام" بالحكم على أن النبي ﷺ قام بعملية التوفيق والتلفيق بين الديانتين اليهودية والمسيحية، ومنها نسج مادة القرآن، ينطوي على دوافع نفسية ودينية لم يستطع التخلص منها على الرغم من تبنيه لدعوة الالتزام بالحياد والموضوعية عند الكتابة عن المواضيع الإسلامية. والذي يتبين لنا من خلال هذا الطرح الذي قدمه "درمنغام" أن هناك ركنا ثابتا في الدراسات الإسلامية لا يتناسب مع موضوعيتهم وحيادهم وهو مبحث نبوة محمد ﷺ[3]. هذا من جهة.

---

[1]-إميل دمنغام: مرجع سابق، ص15.

[2]-المرجع نفسه، ص60

[3]-انظر الفصل الثاني من البحث، ص93.

ومن جهة أخرى أفادت الدراسات القرآنية بأن القرآن الكريم هو الكتاب السماوي الوحيد الذي تحدث عن قصص الأمم القديمة وذكر أحوالهم ومواقفهم من الأنبياء الذين أرسلهم الله إليهم، كقوم عاد وثمود، وأصحاب الكهف، وأصحاب الأخدود، وأصحاب الفيل، كما تعرض القرآن أيضا لقصة بني إسرائيل التي أفاض من خلالها في وصف اليهود وأحوالهم أكثر مما فعلت التوراة[1].

ثالثا: التشابه في بعض العادات والأعراف

اتفق المستشرقون على أن الرسول محمد –عليه الصلاة والسلام– أدخل في شريعة الإسلام بعض العادات والأعراف التي اقتبسها من تراث الأمم الأخرى كالصيام والختان، والصلاة، والحج، وفي هذا الصدد يقول المستشرق "فليب حتي" في مؤلفه (تاريخ العرب المطوّل): «لقد نجح الإسلام في ترتيب صلاة الجمعة على منوال اليهود في عبادتهم بـ الكنيس، إلا أنه تأثر من بعد بطقوس صلاة الأحد التي يمارسها النصارى في البيَعْ»[2].

ويقول "بلديك": «إن المسيحية اليهودية قد تبنت خلال القرون القليلة الأولى عددا من المواقف تبناها الإسلام فيما بعد مثل: الإقرار بالشريعة اليهودية في الشؤون الدينية ومثل تأكيد فريضة الختان..»[3]. وسنكتفي بالحديث هنا عن الحج عند العرب، وعن الصلاة والصوم عند المسيحية.

1-الحج عند العرب

وجد الحج عند العرب منذ الجاهلية أي قبل الإسلام، حيث كانوا يحجون إلى مكة ويزورون الكعبة، وقد ملئت بالأصنام حتى وصل عددها ثلاثمائة وستون صنما (360). ولقد ذكر الإمام الطبري في تفسيره «إن الطواف كان على نوعين، نوع من الحجاج يطوف عريان ، ونوع يطوف في ثيابه، ويعرف من يطوف بالبيت عريان بـ "الحلة"، أما الذين يطوفون بثيابهم فيعرفون بـ"الحمس"، وكان العرب يطوفون بين الصفا والمروى، ومنصوب

---

[1]-عصام الدين محمد علي: مرجع سابق، ص158.

[2]-شوقي أبو خليل: الإسقاط في مناهج المستشرقين والمبشرين، ط1، بيروت، دار الفكر، (1416هـ-1995م)، ص28

[3]-محمد عبد الله الشرقاوي: الاتجاهات التحديثة في دراسة التصوف، مرجع سابق، ص84.

عليهما صنمان هما أسان وثائلة، وكانوا يطوفون بهما سبعة أشواط»[1].

2-الصلاة والصوم في المسيحية:

-**الصلاة:** الصلاة في المسيحية هي ركن من أركان الدين تقربهم إلى الله عن طريق المسيح، وهي دليل على الإيمان بالله والشكر له والتقرب منه، كما جاء في تعريف "محمد أبو زهرة"، إذ يقول: «إن الدين قلب مقتنع بوجود الخالق، والحافظ والفادي، فتكون الصلاة ترجمان ذلك القلب، يعبر بها عما يخالجه من الأشواق والعواطف، فبالنظر لاقتناعه بقداسته تكون الصلاة كلمات التعظيم والتسبيح له، وبالنسبة لاقتناعه بوجوده وإحسانه تكون الصلاة عبارات الشكر والحمد، وبالنسبة لوقوعنا في الخطيئة تكون الصلاة كلمات التذلل والتواضع والاستغفار، وبالنسبة للاحتياج إليه تعالى تكون الصلاة طلبا ودعاء»[2].

وللصلاة عندهم شرطان: الأول أن تقدم باسم المسيح «الحق أقول لكم إن كل ما طلبتم من الأب باسمي يعطيكم، إلى الآن لم تطلبوا شيئا باسمي، اطلبوا تأخذوا ليكون فرحكم كاملا»[3].

الشرط الثاني أن تكون الصلاة مسبوقة بالإيمان الكامل، فقد ذكر "مرقص" في إنجيله ما نصه: «لذلك أقول لكم كل ما تطلبونه حينما تصلون فآمنوا أن تنالوه فيكون لكم»[4].

وذكر يعقوب في رسالته «وليكن الطلب بأيمان غير مرتاب البتة، لأن المرتاب يشبه موجا من البحر تخبطه الريح وتدفعه، فلا يظن ذلك الإنسان أنه ينال شيئا من الرب»[5].

وتمتاز الصلاة في المسيحية بمايلي:

- أنها اختيارية وليست إجبارية.

---

(1)-الطبري: تفسير الطبري، دط، بيروت، دد، (1398هـ-1978م)، مج2، ص170.

(2)-محمد أبو زهرة: محاضرات في النصرانية، دط، الجزائر، شركة الشهاب، 1989، ص185.

(3)-إنجيل يوحنا: الإصحاح16/23-24.

(4)-إنجيل مرقص: الإصحاح 25/11.

(5)-محمد أبو زهرة: محاضرات في النصرانية، مرجع سابق، ص186.

- ليست لها عبارات خاصة معلومة يجب أن يتلوها المصلي بشرط أن لا تخرج عن قاعدة الصلاة التي علمها إياهم المسيح أو ما يعرف بالصلاة الربانية، جاء في إنجيل يوحنا قوله: «...متى صليتم فقولوا أيانا الذي في السماوات، ليتقدس اسمك، ليأتي ملكوتك، لتكن مشيئتك كما في السماء كذلك على الأرض، خبزنا كفافنا أعطينا كل يوم، واغفر لنا خطايانا، لأننا نحن أيضا نغفر لكل من يذنب إلينا، ولا تدخلنا في تجربة ولكن نجنا من الشر»[1].
- ليست معدودة العدد، بل يتوقف ذلك على القائمين بها.
- ليست لها مواقيت معلومة.[2]

-**الصوم في المسيحية**: وهو أيضا اختياري وغير إجباري، ويكون بالامتناع عن الطعام من الصباح حتى بعد منتصف النهار، ثم تناول طعام خال من الدسم.

يصوم المسيحيون يوم الأربعاء، وهو يوم المؤامرة التي انتهت بالقبض على عيسى، ويوم الجمعة لأن المسيح صلب يوم الجمعة، وصوم الميلاد وعدد أيامه ثلاثة وأربعون (43) يوما تنتهي بعيد الميلاد، وصوم المقدس وعدد أيامه خمسة وخمسون (55) يوما، وهي عبارة عن الأربعين يوما التي صامها المسيح[3]. جاء في إنجيل متى «فبعدما صام أربعين نهارا وأربعين ليلة جاع أخيرا»[4].

إن قول المستشرقين بأن القرآن أقر العمل ببعض الشرائع اليهودية والمسيحية والجاهلية، ليس فيه ما يقوم دليلا قاطعا على أن النبي ﷺ قام بعملية الاقتباس وهو قول يرفضه تاريخ الأديان الذي أثبت أن العبادة بوجه عام قد اقترنت بظهور الإنسان على هذا الكوكب، إذ أن مشاهدته للحوادث الطبيعية المحيطة به والمفاجئة له، كالبرق، والرعد،

---

[1]-إنجيل يوحنا: الإصحاح 1/11.

[2]-محمد أبو زهرة: محاضرات في النصرانية، مرجع سابق، ص186-187.

[3]-فؤاد عبد المنعم: أبحاث في الشرائع اليهودية والنصرانية والإسلام، دط، الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، (1414هـ-1994م)، ص157.

-محمد أبو زهرة: محاضرات في النصرانية، مرجع سابق، ص185.

-مصطفى شاهين: مرجع سابق، ص233-234.

[4]-إنجيل متى: الإصحاح 5/4.

والزلازل، ولدت في نفسه إحساسا بوجود قوى هائلة هي المسؤولة عن هذه الحوادث وهي المسؤولة أيضا عن سير هذا العالم.

وحينها أدرك الإنسان مدى عجزه وضعفه وحاجاته لهذه القوى، ولا بد من التقرب منها والعمل على إرضائها عن طريق القيام ببعض العبادات والطقوس كالصوم والصلاة، وتقديم القرابين والأضاحي، وإن اختلفت في طريقة تأديتها وإجرائها[1]، كالصلاة على الموتى التي كانت معروفة عند جميع الأديان، والتي كانت طقوسها تختلف من ديانة لأخرى، فهي تؤدى على شكل دعاء للميت لدى قوم، وتأتي عند آخرين في شكل وصية له ونصيحة، وتكون لدى البعض عبارة عن عضة وتعليم[2].

أما عن الدراسات الإنثروبولوجية فلقد ذكر الباحثون بأن الختان الذي ينسبه المستشرقون إلى الشريعة اليهودية والمسيحية قد ظهر عند المصريين القدماء منذ الفترة التي عاش فيها العبرانيون في مصر قبل خروجهم منها بقيادة موسى عليه السلام[3].

فإذا كانت الطقوس والعبادات وجدت منذ وجود الجنس البشري، وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾[4]. فلماذا يصر المستشرقون على نسبتها "العبادات" إلى اليهودية والمسيحية؟ وكيف تعاملوا مع الوحي المحمدي على ضوء هذه المعطيات الخاطئة؟.

بعد أن فرغ المستشرقون من ذكر الأسباب التي دعتهم إلى الاعتقاد بوجود مصادر أجنبية اعتمد عليها النبي ﷺ في نسجه لمادة القرآن -وهي كما بيّنا أسباب واهية- انتقلوا بعدها إلى شرح الطريقة أو الكيفية التي انتقلت بها تلك المادة إلى ذهن النبي، وكيف أنه توهم واعتقد خاطئا بأن هناك ملك مرسل هو الذي كان يمليها عليه.

---

(1)-محمد اغواري: الختان في اليهودية والمسيحية والإسلام، ط1، القاهرة، دار اغاني للطباعة والنشر، (1407هـ-1946م)، ص46.

(2)-عبد الجليل شلبي: رد مفتريات المبشرين على الإسلام، ط2، الرياض، مكتبة المعارف، 1985. ص78.

(3)-محمد اغواري: مرجع سابق، ص46.

(4)-الشورى، الآية: 13.

المبحث الثاني: موقف المستشرقين من نبوة محمد ﷺ

إذا تحدث المستشرقون عن الوحي والنبوة في العقيدة الإسلامية، فإنهم يعنون بذلك الحديث عن (محمد والقرآن)، وعن الكيفية التي تمت بها صياغة القرآن، استنادا إلى منطلقات تاريخية وفكرية قائمة على اعتبار أن الإسلام ليس دينا صحيحا، وأن محمد ﷺ ليس نبي مرسلا، وإنما هو مصلح أو مفكر استطاع بفضل ما حصل عليه من معلومات أن يؤلف القرآن، ولذلك يقول "لوبون": «وإذا أرجعنا القرآن إلى أصوله أمكننا عد الإسلام صورة مختصرة من النصرانية واليهودية».

وقد أسفر موقف المستشرقين من الوحي المحمدي عن ظهور نظريتين اثنتين[1] حاولتا تحليل ظاهرة الوحي من خلال علم النفس الحديث بالاعتماد على الأعراض التي كانت تنشأ عن الرسول ﷺ حين كان يأتيه الوحي.

وأسسوا فكرتهم القاضية بأن ما كان يدعيه نبي الإسلام من أنه وحي أتاه به ملك مرسل لا يخرج عن كونه حالة نفسية لها دوافعها وأسبابها، ولذلك نجدهم يتحدثون عن العقل الباطن وعن اللاشعور وعن الخيال الخلاق وغيرها من المصطلحات ذات الدلالات النفسية.

النظرية الأولى: النظرية الأولى، وقد قال بها المستشرق الإنجليزي المسيحي مونتغومري وات، الذي حاول تفسير الوحي المحمدي بإرجاعه إلى مصدر اللاوعي الجماعي وإلى الخيال الخلاق.

---

(1) –توجد نظرية أخرى اعتبرت الوحي المحمدي –في ضوء التحليل النفسي دائما– بأنه حالة مرضية خاصة تصيب العظماء من الرجال، كما ذهب جولد زيهر، الذي فسر الوحي على أنه: «حالة من الأمراض التي تصيب الرجال الذين فوق البشر دون سواهم، والذين يستقون منها حياتا جديدة كانت قبل ذلك مجهولة، كما يتخذون منها قوة تمدهم جميع العقبات ومن ذلك حمية النبي أو الحواري» (العقيدة والشريعة، ص6).

وجوستايف لوبون الذي وصف الوحي المحمدي باطوس حينما قال: «وإذا عَدَوْت هوس محمد –مثل كل مفتون– وجدته حصيفا سليم الفكر، ويجب عدّ محمد من فصيلة المتهوسين من الناحية العلمية، كما هو واضح، وذلك كأكبر مؤسسي الديانات، ولا كبير أهمية لذلك، فأولئك الهوس وحدهم –لا ذووا المزاج البارد من المفكرين– هم الذين ينشئون الديانات ويقودون الناس. (حضارة العرب، ص102-103).

ولكننا لم نشأ إيراد هذه النظرية في المتن تجنبا للتكرار، إذ أن النقد الذي سيوجه لها موجود ضمنيا في النقد الموجه للنظريتين المذكورتين في المتن.

النظرية الثانية: قال بها المستشرق الفرنسي الملحد ماكسيم رودنسون، والذي حاول تفسير الوحي المحمدي باعتباره حالة من الحالات التي تعتري المتصوفين وهو الكشف والإلهام.

المطلب الأول: تفسير مونتغمري وات لنبوة محمد ﷺ

يعتبر المستشرق الإنجليزي المسيحي من الكتاب الغربيين الذين يحاولون رسم صورة جديدة للنبي محمد ﷺ بدلا من الصورة القديمة القاتمة التي وضعها له المستشرقون في القرون الماضية والتي تكشف عما يكنه هؤلاء للإسلام من حقد وكراهية.

من ذلك ما قاله الدكتور فلوور في كتابه تقدم التبشير العالمي: « إن سيف محمد والقرآن أشد عدو وأكبر معاند للحضارة والحرية والحق ومن بين العوامل الهدامة التي اطلع عليها العالم إلى الآن». وقال أيضا: «القرآن خليط عجيب من الحقائق والخرافات ومن الروائع والأساطير كما هو مزيج غريب للأغلاط التاريخية والأوهام الفاسدة، وفوق ذلك هو غامض جدا لا يمكن أن يفهمه أحد إلا بتفسير خاص له، والذي يعتقده المسلم أن المعبود هو الله الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد، فالله ملك جبار متسلط ليس له علاقة مع خلقه ورعاياه بالرغم أن الإسلام يذكر الرابطة الموجودة بينهما »[1].

أولا: نظرية اللاوعي الجماعي ومصدر الوحي المحمدي

حاول **وات** من خلال العديد من مؤلفاته حول تراث الإسلام ككتاب "محمد في مكة"، "الفكر السياسي في الإسلام"، "القضاء والقدر في الإسلام"، أن يكون مغايرا للكتاب الغربيين الذين لم يلتزموا بالحياد والموضوعية فيما يكتبون فهو يطمئن القراء المسلمين على أنه سيلتزم قواعد البحث العلمي إذ يقول في مقدمة كتابه " حياة محمد": «... ولقد حاولت المحافظة على الحياد في المسائل اللاهوتية (الدينية) التي يدور حولها النقاش بين المسيحية والإسلام، فمثلا: لتجنب الجزم بما إذا كان القرآن كلام الله أم لا، فقد تحاشيت استخدام التعبير "يقول الله" أو "يقول محمد" واستخدمت التعبير "يقول القرآن" ومع ذلك فأنا لا أتبنى المنظور المادي بحجة التزامي بالنزاهة التاريخية، فأنا أكتب كمؤمن بالتوحيد[2].

---

[1] –عماد الدين خليل: المستشرقون والسيرة النبوية، الدوحة، دار الثقافة، 1989، ص.17-18.

[2] –وات: محمد في مكة، مرجع سابق، ص.40.

ويضيف قائلا: « أما قرائي من المسلمين، فإنني أقول لهم شيئا مشابها فقد حاولت مع الالتزام بالمقاييس العلمية التاريخية الغربية ألا أقول شيئا يفهم منه رفض أي مبدأ من مبادئ الإسلام الأساسية، إذ لا يجوز أن تكون هناك هوة لا يمكن عبورها بين الثقافة الغربية والإسلام، فإذا كانت بعض النتائج التي توصل إليها علماء الغرب لا يتقبلها المسلمون، فربما كان السبب في ذلك أن علماء الغرب لم يكونوا دائما مخلصين لمبادئهم العلمية وأن استنتاجاتهم تحتاج إلى مراجعة حتى من وجهة النظر التاريخية البحتة »[1].

ولقد توصل وات بفضل قراءته لتاريخ الإسلام ولنصوص القرآن الكريم إلى الاعتقاد في وجود مصدرين اثنين للوحي المحمدي استطاع النبي ﷺ من خلالهما إنشاء مادة القرآن الكريم وهما اللاشعور الجماعي (الجمعي) والخيال الخلاق، فكيف اهتدى وات إلى هذين المصدرين؟ وما هي الأدلة التي اعتمد عليها في اكتشافه لهذين المصدرين؟ وهل طبق فعلا ما يتعهد به من الإلتزام بالحياد والموضوعية والعمل وفق المقاييس العلمية ؟

1-تعريف نظرية اللاوعي الجماعي:

وهي النظرية التي اعتمد عليها وات في تفسير الوحي المحمدي وتنسب هده النظرية إلى عالم النفس الشهير "كارل يونج" (Karl Yung) الذي قسم النفس البشرية إلى ثلاثة مستويات هي: الشعور، واللاشعور الشخصي، واللاشعور الجماعي.

أ-الشعور: وهو الجزء الملاحظ و الظاهر من النفس البشرية ونستطيع التعبير عنه بعدة وسائل كالانفعالات والعواطف والعادات والتذكر الإرادي. أما الجزء المختبئ من النفس والذي يمثل الجزء الأكبر منها فهو ما يسمى باللاشعور.

ب-اللاشعور: بعكس مصطلح الشعور فإن علماء النفس لم يتمكنوا من وضع تعريف محدد لمعنى اللاشعور وفي ذلك يذكر المؤلفان هوراس وايفا (HOURACE ET EVA) اللذان قاما بوضع قاموس حول علم النفس والتحليل النفسي: «بأنه يوجد ما لا يقل عن تسع وثلاثين من المعاني المختلفة لتعبير اللاشعور»[2].

---

[1] -وات: محمد في مكة، مرجع سابق، ص.41.

[2] -رؤوف عبيد: مرجع سابق، ج1، ص.44.

واللاشعور بالمفهوم العام والمتداول في علم النفس هو عبارة عن الجزء المختبئ من النفس البشرية والذي لا نعثر عليه إلا بالتوغل في أعماق الذات ولا يمكن ملاحظته أو التعبير عنه بإرادتنا: « فهو الجانب الذي لا نشعر بمجريات أموره والتي لا يمكن استحضارها إلى حياتنا الشعورية بوسائل التذكر المعتادة أي بالتذكر الإرادي »[1].

وبتعبير آخر فاللاشعور هو: « المستودع لما يترسب أو يكبت فيه من مواقف وذكريات تضطرنا الحياة إلى تنحيتها عن الوعي لأنها تؤلمنا أو لا تتفق مع آداب المجتمع وتقاليده »[2].

ولكن ما هي الوسائل التي تمكننا من معرفة الذكريات والحوادث التي ترسبت في اللاشعور؟ وبمعنى أوضح كيف تنتقل الحوادث والذكريات من الوعي إلى اللاوعي أو من الشعور إلى اللاشعور؟

ويجيب علماء النفس بأن هناك وسائل خاصة بمنطقة اللاشعور نستطيع من خلالها التعرف عما يدور في أعماق النفس من أحاسيس وانفعالات مكبوتة وهذه الوسائل هي الأحلام وفلتات اللسان والسلوك الغريب[3].

لقد شبه كامل عويضة أعماق اللاشعور بالتمساح في قاع النهر لا يشعر به أحد ولكنه يضرب الماء من آن لآخر بذنبه الضخم ضربا عنيفا يبدو أثره في السطح، وهو التخليل النفسي الذي يكشف عن هذه الناحية وما فيها من ذكريات أو عقد في السلوك تعرضه للانحراف[4].

***أنواع اللاشعور:** اهتم يونغ بدراسة العالم الداخلي للإنسان اهتماما كبيرا وقد يكون الدافع من وراء ذلك هو وجوده في أسرة لم تعرف طعم السعادة قط، فأبوه كان قسيسا أمضى حياته حزينا قلقا بسبب الشك في إيمانه وأمه كانت تتعرض من حين لآخر لاضطرابات انفعالية، تلك الوضعية أثرت سلبا على حياة كارل وجعلته يقضي طفولته وحيدا منعزلا عن

---

(1) –رؤوف عبيد: مرجع سابق، ج1، ص41.

(2) –كامل محمد عويضة: علم نفس الشخصية، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية، 1996 ، ص49-44.

(3) –المرجع نفسه، ص44.

(4) –المرجع نفسه، ص44.

الناس مفضلا العيش مع نفسه من خلال أحلامه وخيالاته[1].

لقد ميز يونغ بين نوعين من اللاشعور هما: اللاشعور الشخصي، واللاشعور الجماعي.

-**اللاشعور الشخصي:** هي منطقة الشعور مباشرة، وهو منطقة وسطى بين الشعور واللاشعور يتعلق بالفرد ويتألف من الدوافع والرغبات والذكريات والتجارب العديدة التي عاناها الفرد في حياته ونسيت وكبتت.[2]

-**اللاشعور الجماعي:** يأتي في المرتبة الثالثة وراء منطقة اللاشعور الشخصي مباشرة في جزء هو الأعمق في النفس[3].

ويتكون اللاشعور الجماعي من الأفكار والخبرات القديمة التي عرفتها البشرية، يقول يونج: «لقد تخيرت لفظة الجماعي لأن هذا الشطر من اللاشعور ليس شخصيا ولكنه عام، وهو على النقيض من الذات الشخصية يضع بين دفتيه محتويات ومنوالات في السلوك تكاد تكون بعينها ثابتة لا تتغير في كل مكان ولدى جميع الأفراد»[4].

وفي مكونات اللاشعور الجمعي أيضا قوى وإمكانات الخيال البشري الموروثة عن غيرنا يقول يونج: «إنها ذلك الراسب الذي يسيطر ويتحكم في كل شيء والمتخلف من خبرات السلف من ملايين السنين التي لا تحصى وصدى حوادث دنيا مضت سابقة إلى الصورة الذهنية الأولية هي أقدم وأعم ما في فكر البشرية »[5].

لقد جعل يونج من اللاشعور الجماعي المستودع الذي يجمع فيه كل الثقافات القديمة والعقائد والأساطير السائدة في المجتمع وأن الإنسان مرتبط بهذه الثقافات والعقائد والتي تمثل تراث أجداده وأسلافه الذي لم يستطع التحرر منه أو الخروج من دائرته.

---

(1) –محمد شحاتة ربيع: تاريخ علم النفس ومدارسه، القاهرة، دار الصحوة للنشر، 1996 ، ص311.

(2) –رؤوف عبيد: الجديد في التكوين الروحي والسلوكي، ج1، ص518.

–محمد شحاتة: مرجع سابق، ص315.

(3) –المرجع نفسه، ص 315.

(4) –رؤوف عبيد: مرجع سابق، ج1، ص518.

(5) –المرجع نفسه، ص519.

جـ-تطبيق نظرية اللاشعور الجماعي على الوحي المحمدي:

تبنى وات في تفسيره للوحي المحمدي نظرية **يونج** التي تقول: «إن ما ينبثق من اللاوعي إلى الوعي في رؤى الأفراد المنامية وأحلام اليقظة وكذلك في الأساطير الدينية لمجتمع كامل تأتي من الليبيدو وطاقة الحياة، وهو ينبوع النشاط في الناس، في الشخص الواحد يكون الليبيدو في أحد أجزائه شيئا خاصا وفي الجزء الآخر شيئا مشتركا بينه وبين أفراد جماعته ثم بينه وبين الجنس البشري كله، هذا الجزء المشترك بينه وبين الآخرين هو الذي يسميه يونج **باللاوعي المشترك** وإلى هذا اللاوعي المشترك تعزى كثير من الأساطير وكذلك المعتقدات الدينية، ولاسيما شخصيات مثل "البطل والقائد" و"الطفل الإلهي" و"العذراء" التي توجد في كثير من الأديان»[1].

طبق وات هذه النظرية ليستدل على صحة فرضيته حول ذاتية الوحي المحمدي، والتي تقول أن الوحي الذي أتى به محمد ﷺ ، هو وحي نفسي داخلي كان موجودا في ناحية من نواحي -محمد- العقلية وهي اللاشعور، وعليه فإن النبي كان على صلة بمادة الوحي قبل أن ينتقل إلى الشعور ويصير النبي واعيا به ومدركا له.

فالوحي المحمدي كان موجودا في منطقة اللاشعور الجماعي لنفس محمد ﷺ والتي تترسب فيها ثقافة وعادات وعقائد المجتمع الذي وجد فيه، ولم تكن لديه صورة ذهنية عن هذا الوحي أي أنه كان غير واع بوجود مادة الوحي في نفسه.

بعد مدة زمنية لم يحددها **وات** أصبح محمدا واعيا بالوحي عارفا له وذلك عندما انتقل من اللاشعور الجماعي إلى منطقة الشعور وعندئذ أعلن محمد أنه أتى بدين جديد.

يمكن أن نقول في هذا الصدد:

-لماذا بقيت تلك الآراء والمعارف الدينية في منطقة اللاشعور كل هذه المدة (40سنة) حتى انتقلت إلى الشعور؟

---

[1] -جعفر شيخ إدريس: مناهج مونتغمري وات في دراسة نبوة محمد ﷺ، ضمن مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، 1985، ص23

-ولماذا اختارت سن الأربعين للنبي محمد ﷺ حتى تنتقل إلى الشعور ولم تنتقل مثلا في سن الثلاثين أو الخمسين؟

-وماهي الوسيلة التي عرف بها وات أن تلك المعارف والمعلومات الدينية كانت مترسبة ومكبوتة في اللاشعور الجماعي للنبي محمد ﷺ؟

لقد ذكرنا سابقا أن الوسائل المتعلقة بمنطقة اللاشعور والتي نتعرف من خلالها عما يدور في أعماق النفس من أحاسيس وانفعالات ومعارف مكبوتة هي: "الأحلام"، "فلتات اللسان" و"السلوك الغريب".

لم يشر وات إلى أي من هذه الوسائل فالذي يعنيه هو الوصول إلى النتائج وكفى، أما كيف ولماذا وصل فلا أهمية له في منهج وات.

لقد وصل **وات** إلى ما أراد الوصول إليه وهي أن الرسول - صلى الله عليه و سلم- لم ينزل عليه الوحي من السماء وكل ما قام به هو إعادة الصياغة لأفكار وجدت في الديانات السابقة بطريقة لا شعورية؛ ثم تحولت هذه الأفكار إلى الوعي المتيقظ أين تحولت إلى مادة دينية نسج منها محمد القرآن، وهذا يؤدي إلى القول بأن محمد لم يأت بدين جديد.

وذلك ما يعتقده معظم المستشرقين الذين تناولوا بالبحث مصدر القرآن، يقول المستشرق الألماني ج.فوك J.Fueck: «وعلى كل حال لقد أصبح النظر في عدم أصالة الإسلام واعتماده على الأديان السابقة موضة (VOUGUE) بين عموم المستشرقين»[1].وما يعترف به **وات** في مواضيع كثيرة من مؤلفاته، إذ يقول: « لا يكاد يكون ضروريا لدراسة حياة محمد تحديد الأهمية النسبية للتأثيرات اليهودية والمسيحية خاصة وأن كثيرا من التفاصيل موضع خلاف، ولكن الضرورة الرئيسية هي أن ندرك أن مثل هذه الأشياء كانت منتشرة قبل مجيء القرآن إلى محمد وأنها كانت جزءا من إعداده وإعداد بيئته لرسالته»[2].

وبناء عليه فإن مادة القرآن الكريم والتي كانت مختزنة ومكبوتة في اللاشعور الجماعي للنبي هي انعكاس للثقافة والعادات والعقائد الموجودة في بيئته حسب نظرية يونج التي تبناها وات.

---

(1) -محمد عبد الله الشرقاوي: مرجع سابق، ص84.

(2) -وات: محمد في مكة، ص88.

وقد تضمن القرآن الكريم الإخبار بالأمور الغيبية سواء الماضية منها المتعلقة بالعصور الغابرة أو المستقبلية منها، فإذا فرضنا جدلا أن الإخبار عن الأمور الغيبية الماضية كانت ضمن الأمور المكبوتة في اللاشعور فكيف يكون حال الإخبار عن الأمور الغيبية المستقبلية؟، وخاصة المتعلقة منها بالحقائق العلمية التي أشار إليها القرآن الكريم منذ ثلاثة عشرة قرنا ونصف القرن والتي تم اكتشافها في العصر الحاضر –ومن قبل علماء الغرب أنفسهم– باستعمال المختبرات والتقنيات الحديثة والمتطورة.

إن لـ"وات" طريقة خاصة في الاستنباط والوصول إلى النتائج فبدلا من التوجه إلى أمهات الكتب والمصادر العربية والإسلامية، قام بعملية اقتناص للنتائج التي توصل إليها غيره وراح يطبقها على تجربة الوحي المحمدي، فبعدما تبنى نظرية يونج في اللاشعور الجماعي ها هو يأخذ الآن نتائج زميله "بولين" (POULAIN) التي توصل إليها من خلال دراسة قام بها عن الصلاة الداخلية الباطنية تناولت تجارب بعض القديسين المسيحيين، ومن أفكاره أن الوحي هو معان تقذف في النفس دون استخدام الكلمات[1]، ثم قام وات بمزج أو تركيب تلك النتائج وصاغها في شكل استدلالات يثبت بها أن القرآن الذي نزل على محمد ﷺ هو وحي داخلي نفسي.

وهذا يدل على أن **وات** كانت لديه أفكار وفرضيات مسبقة حاول إثبات صحتها من خلال عمليتي المزج والتركيب التي قام بها، وهذا يظهر لنا التناقض الصارخ الذي وقع فيه وات إذ يقول: «فإذا علينا أن نفهم محمد ككل متكامل وأن نصحح الأخطاء التي ورثناها عن الماضي، فلا بد أن نؤمن بإخلاصه وصدقه إلا إذا ثبت العكس ويجب أن لا ننسى أن البرهان الأخير (النتيجة النهائية) تتطلب استقامة أكثر بكثير مما يتطلبه استعراض المقولة القابلة للتصديق، فنظريات الكتاب الغربيين التي تفترض افتراضا مسبقا أن محمد غير صادق لن نناقشها كنظريات، ومع هذا فسنناقش هنا الأدلة التي سيقت للدلالة على عدم صدقه »[2].

حاول وات أن يقول أن البرهان الأخير (النتيجة النهائية) تتطلب اعوجاجا أكثر بكثير مما يتطلبه استعراض المقولة (القابلة للتصديق).

---

[1] –وات: محمد في مكة، ص26.

[2] –المرجع نفسه، ص.123.

2-نظرية الخيال الخلاق ونبوة محمد ﷺ

يقول وات: «إن الأنبياء والمصلحين الدينيين يشتركون في هذا الخيال الخلاق، طالما كانوا يعبرون عن القضايا الأكثر عمقا والأكثر أساسية الناجمة عن التجارب الإنسانية مع الإشارة الخاصة إلى مقتضيات وظروف زمانهم وأجيالهم »[1].

ويقول أيضا: «من وجهة نظري هناك خيال خلاق متدفق لدى محمد، وأن معظم الأفكار الناجمة عن هذا الخيال صحيحة وعادية ولكن ليست كل الأفكار القرآنية كذلك بل توجد على الأقل نقطة واحدة غير صحيحة ألا وهي أن الوحي أو الخيال الخلاف أسمى من تصرفات الإنسان العادية باعتبارها مصدر الوقائع التاريخية مجملة»[2].

هذه المرة يتناول وات مسألة الوحي المحمدي من زاوية أخرى وهي الخيال الخلاف فما هو الخيال الخلاق؟ وما هي بواعثه؟ وما هي المقاييس التي اعتمدها وات للتمييز بين الأنبياء المصلحين والموهوبين (الفنانين والشعراء) ؟.

أ-تعريف الخيال الخلاق: يرى وات أن هناك بعض الأشخاص الموهوبين كالفنانين والشعراء والكتاب ممن يتمتعون بخيال خلاق أخرجوا للبشرية روايات رائعة وشعرا بليغا ورسومات ومنحوتات عجيبة، وهناك العديد من المؤلفات الناجمة عن الخيال الخلاق معروفة عالميا، ولكن هذه المؤلفات والآثار ليست خيالية لأنها تعالج أمورا حقيقية ولكنها تستخدم رؤى وصور للتعبير عما وراء المفاهيم الثقافية[3].

إن الذي يعنيه وات من عبارة الخيال الخلاق أن هناك أشخاصا ذوو ملكات عقلية استطاعوا أن يحققوا إبداعات فنية وكشوفا علمية عن طريق الرؤى والأحلام، وهو بذلك يخصص للحديث عن عبقرية محمد ﷺ وكأنها هي الدافع لظهور نبوته.

فما المقصود بالعبقرية؟. وما هي نقطة الالتقاء بينها وبين النبوة؟.

---

(1) –وات: محمد في مكة، ص124.

(2) –منتغمري وات: محمد، نقلا عن: ساسي الحاج: الظاهرة الإستشراقية في الدراسات الإسلامية، ص365.

(3) –المرجع السابق، ص365.

ب-تعريف العبقرية: عرفها الفلاسفة الأقدمون على أنها حالات علوية لا شأن للعقل فيها وقال عنها أفلاطون: «العبقرية حالة إلهية مولدة للإلهامات العلوية »[1].

وتعرض لها المفكر **محمد فريد وجدي** بقوله: «شوهد في تاريخ البشرية حدوث تجديدات عقلية أو فنية في أرفع درجات السمو ولا يمكن تقليدها، حيث يؤكد الذين ظهرت على أيديهم أنها تتهم عفوا بدون إجالة نظر فيها، ولا محاولة منهم لإجرائها بل لم تكن تخطر لهم ببال وهي تظهر شذوذا ومن دون تمهيد، وقد تمر أجيال دون أن يظهر في أي بقعة من الأرض عبقري واحد »[2].

ووضع فولتير للعبقرية شروطا إذ يقول: «من شروط العبقرية أن يكون فيها ابتكار، فهذه الخاصية للابتكار هي التي تعتبر منحة إلهية»[3].

جـ-نقطة الالتقاء بين العبقرية والنبوة: تأتي العبقرية عن طريق الرؤى والأحلام يقول العالم النفسي **ج .هـ .هادفيلد J.. H. HADFIED** : «نرى من الملائم أن نلفت انتباه القارئ إلى أقوى الشواهد على ما نقوله وهو أن الكثير من المعضلات العلمية قد تسنى حلها على هذا النحو وأن بعض الكشوف العلمية العظيمة قد دانت لأصحابها في أحلامهم »[4].

من ذلك مثلا ما حدث للعالم الكندي "فريدريك جرانت بانتينج" (FREDERICK GRANT BANTING) (1881-1941) الذي اكتشف الأنسولين لعلاج مرضى السكري، وكان ذلك عن طريق الإلهام في الرؤيا، بعد فشل في عدة محاولات لاستخلاص الأنسولين نام نوما مضطربا وفي الثانية استمع إلى صوت يهمس في أذنه فدونه وهو يغالب النوم، وكان نصه: «اربط قناة البنكرياس في الكلب ثم انتظر ستة أسابيع إلى ثمانية حتى تضمر ثم استأصل ما فيها واصنع منه خلاصة»، وبعد هذه الرؤيا قام بإجراء التجارب على عشرة كلاب وفي يوم: 28 جويلية سنة 1921 نجح في استخلاص مادة الأنسولين التي ما زالت لحد الآن تستعمل كعلاج وحيد لمرض السكري، وقد كرم **فردريك** بسبب هذا الاكتشاف العلمي

---

(1) -محمد فريد وجدي: السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة، ط1، القاهرة، الدار المصرية اللبنانية، 1993، ص50.

(2) -المرجع نفسه، ص50.

(3) -المرجع نفسه، ص50.

(4) -المرجع نفسه، ص.50.

بالحصول على نوبل في الطب في سنة 1923[1].

وإذا كانت العبقرية (إلهام العباقرة) تأتي عن طريق الرؤى والأحلام فكذلك النبوة في المفهوم المسيحي فهي لا تثبت إلا عن طريق الرؤى والأحلام[2] كما أورد ذلك جورج بوست في مؤلفه قاموس الكتاب المقدس: «أما النبوة فكانت على أنواع مختلفة كالإلهام والرؤى والتبليغ وكثيرا ما كان الأنبياء يرمون الأمور المستقبلية من دون تمييز أزمنتها فكانت تقترن في رؤاهم الحوادث القريبة العهد مع البعيدة، كاقتران نجاة اليهود من الآشوريين بخلاص العالم بواسطة المسيح، وكانتصار إسكندر ذي القرنين بمجيء المسيح...إلخ»[3].

إن العلة في دراسة وات لعبقرية محمد ﷺ وإقصاء نبوته هو اشتراكهما في عنصر الإلهام والحدس وهو ما عبر عنه المستشرق ودي بارت باللاوعي حيث يقول: «إن اتخاذ محمد لهذه الأفكار الغريبة عنه لم يكن بطريق مباشر أو عن وعي وإلا كانت رسالته قد فقدت طابع الوحي، وبدلا من أن يكون نبيا كانت يصبح على أكثر تقدير رائدا من رواد أدب الترجمة الديني »[4].

بينما النبوة في العقيدة الإسلامية[5] وإن كانت تتفق مع الديانات اليهودية والمسيحية في الإقرار بمبدأ النبوة، فإن نبوة القرآن الكريم تختلف تماما من حيث طبيعتها وخصائصها إذ أنها تشترط ثلاثة عناصر لا تمثل النبوة وهي: وجود الوحي الإلهي، والملك المرسل، والكتاب المنزل، والشرع، في حين تكتفي نبوة الكتاب المقدس بعنصر الرؤى والأحلام والشرع أحيانا ثم إن تلك الرؤى متعلقة بالتنبؤات المستقبلية لا غير فزاد عنها القرآن حينما تكلم عن الأمور الغيبية الماضية وعن هذا تحدث محمد رشيد رضا[6] قائلا: « إن نبوة

---

(1) –رؤوف عبيد: مرجع سابق،ج1، ص521.

(2) –أنظر: الفصل الأول، المبحث الثاني: النبوة والوحي في اليهودية والمسيحية، ص34 .

(3) –جورج بوست: قاموس الكتاب المقدس، 10/12. نقلا عن: التهامي نقرة، الوحي في العقيدة الإسلامية، النشرة العلمية، للكلية الزيتونية للشريعة وأصول الدين، الجامعة التونسية، ع5، 1978-1979، ص105.

(4) –محمود حمدي زقزوق: الإسلام في الفكر الغربي، مرجع سابق، ص83.

(5) –أنظر الفصل الأول: المبحث الأول، ص. .

(6) –ترجمة: محمد رشيد

الإخبار عن الأمور المستقبلية –والتي يستدلون بها على كونهم مخبرين عن الله تعالى– كانت أحيانا كثيرة من دون تمييز زمنها ولا حوادثها، فكان بعضها يختلط ببعض فلا يظهر المراد منها إلا بعد حملها على شيء واضح بعد وقوعه كما يعمد في كل عصر من اختار من العرافين والمنجمين الروحانيين المكاشفة»[1]، ومنها ما ظهر خلاف هذا من جهة ومن جهة أخرى أن الوحي الذي تناولوه بالدراسة والبحث هو وحي القرآن الكريم وأشرت عند الحديث عن مفهوم الوحي في العقيدة الإسلامية إلى أن المادة المكونة للقرآن هي من نوع "الوحي الجلي" وهو الوحي الذي ينزل على الرسول ﷺ بواسطة الملك جبريل مع الاعتراف بوجود أنواع أخرى للوحي: كالوحي عن طريق الرؤيا الصادقة أو الوحي عن طريق الإلهام.

فالعقيدة الإسلامية لا تنفي مجيء الوحي للنبي ﷺ في صورة رؤى أو إلهامات مثال ذلك: ما حدث له قبيل معركة بدر وكيف أن الله ألهمه بأنه سينتصر على أعدائه، ولكنها ترفض أن يكون وحي الإلهام هو المكون لمادة القرآن الكريم.

ضف إلى ذلك أن المعرفة التي تجيء في صورة ومضات خاطفة من الإلهام والحدس معرفة ضنية لا ترقى إلى درجة اليقين كما لا يتصور عاقل أن يكون القرآن الذي جاء بنظام شامل لمختلف جوانب الحياة الأخلاقية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية ومن قوانين وتشريعات تحدد مسؤولية الفرد تجاه خالقه ومسؤوليته تجاه نفسه ومسؤوليته تجاه مجتمعه، هو من قبيل الإلهام والحدس.

3-كيفية بدء الوحي

تكلم **وات** عن كيفية بدء الوحي تحت عنوان رسالة النبي، وقد اعتمد على رواية الزهري حيث يقول: «وهذه الرواية ليست متصلة كرواية بن هشام بل هي تجمع مقاطع وصلت إلى علم الزهري، والنص كما وصل إلينا لا يحتوي على تقسيمات وقد أدخلنا بعض التقسيمات هنا للتسهيل.

أ– سمعت النعمان بن راشد يحدث عن الزهري عن عروة عن عائشة أنها قالت: كان أول ما ابتدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة، كانت تجيء مثل فلق الصبح.

---

[1] –محمد رشيد رضا: مرجع سابق، ص67.

ب- ثم حبب إليه الخلاء فكان بغار حراء يتحنث فيه الليالي ذوات العدد قبل أن يرجع إلى أهله، فيتزود لمثلها حتى فاجأه الحق فأتاه فقال: يا محمد أنت رسول الله.

جـ-قال رسول الله ﷺ فجثوت بركبتي وأنا قائم زحفت ترجف بوادري ثم دخلت على خديجة فقلت: زملوني، زملوني حتى ذهب عني الروع، ثم أتاني فقال: يا محمد أنت رسول الله.

د- قال: فلقد هممت أن أطرح نفسي من حالق جبل فتبدى لي حين هممت بذلك فقال: يا محمد أنا جبريل وأنت رسول الله.

هـ- ثم قال: اقرأ، فقلت ما اقرأ؟ قال: فأخذني فغطني ثلاث مرات حتى بلغ مني الجهد م قال: اقرأ باسم ربك الذي خلق، فقرأت.

و-فأتيت خديجة فقلت لقد أشفقت على نفسي فأخبرتها خبري، فقالت: أبشر فوالله لا يخزيك الله أبدا، ووالله إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتؤدي الأمانة، وتحمل الكل وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق. ثم انطلقت بي إلى ورقة بن نوفل بن أسد، فقالت: اسمع من ابن أخيك فقال: هذا الناموس الذي نزل على موسى بن عمران، ليتني فيها جذع، ليتني أكون حيا حين يخرجك قومك قلت: امخرجي هم؟ قال: نعم إنه لم يجيء رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي ولئن أدركني يومك أنصرك نصرا مؤزرا.

ز-ثم كان أول ما نزل عليه من القرآن بعد "اقرأ" ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ. مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ. وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ. وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ. فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ﴾[1]، ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ. قُمْ فَأَنذِرْ﴾[2] ﴿وَالضُّحَى. وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾[3].

حـ-عن الزهري قال: فتر الوحي عن رسول الله ﷺ فترة فحزن حزنا شديدا جعل يغدو إلى رؤوس شواهق الجبال ليتردى منها فكلما أوفى بذروة جبل تبدى له جبريل فيقول: « إنك نبي الله فيسكن لذلك جأشه، وترجع إليه نفسه».

---

[1] -سورة القلم، الآية: 1-5.

[2] -سورة المدثر، الآية: 1-2.

[3] -سورة الضحى، الآية:1-2. الطبري، دار المعارف، 1961، ج2، ص.298.

ط- فكان النبي ﷺ يحدث عن ذلك فيقول: فبينما أنا أمشي يوما إذ رأيت الملك الذي كان بحراء على كرسي بين السماء والأرض فجئت منه رعبا فرجعت إلى خديجة فقلت: زملوني.

ي-فزملناه -أي دثرناه- فأنزل الله عز وجل: يا أيها المدثر قم فأنذر وربك فكبر وثيابك فطهر[1].

ق-قال الزهري: فكان أول شيء نزل عليه قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾[2] حتى بلغ: ما لم يعلم. و يروي الزهري، ويعرف بابن شهاب أيضا رواية أخرى: «أن جابر بن عبد الله الأنصاري قال: «قال رسول الله ﷺ وهو يحدث عن فترة الوحي، بينما أنا أمشي سمعت صوتا من السماء، فرفعت رأسي فإذا بالملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض »[3].

تتحاشى هذه الرواية تعبير الراوي من (ي) إلى (ق) بقولها "دثروني"، وهذا مهم، لأنه طابع مميز للحديث المروي عن جابر والقائل بأن المدثر (السورة رقم 74) كانت أول الوحي[4].

ولربما كانت المقاطع من (أ) إلى (ح) متتابعة عند الزهري ولكنها ليست جميعها مروية عن عائشة، ولكن قطع بن إسحاق لرواية عائشة بعد المقطع الأول في (ب) سببه تفضيل ابن إسحاق لروايات أخرى عند هذه النقطة ولن نفوز بشيء إذا ناقشنا الإسناد ولهذا أقترح اعتبار شهادة المقاطع الداخلية ودراسة ما يمكن تسميته "معالم" الروايات المختلفة.

أ-مناقشة رواية الزهري كما أوردها الكاتب: ذكر وات بأن تقسيمه لرواية الزهري إلى مقاطع كان الدافع إليه هو التسهيل ليس إلا، ولكن أثناء مناقشتي لهذه الرواية تبين أن الأمر أكبر من ذلك بكثير كما سيأتي:

---

(1) -سورة المدثر، الآية: 1-2-3. المرجع نفسه، ص.305-306.

(2) -سورة العلق، الآية:1-2.

(3) -رواه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي. باب: كيف بدء الوحي، ج1، ص7.

-رواه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان. باب: بدء الوحي، ج1، ص98.

(4) -المرجع نفسه ج1، ص147وما بعدها.

-إن المقطع (أ) في الرواية التي ذكرها وات وهو: «كان أول ما ابتدئ به رسول الله ﷺ من الوحي هو الرؤيا الصادقة كانت تجيء مثل فلق الصبح». يقابل المقطع التالي -إن جاز لي التقسيم- في رواية البخاري عن عائشة رضي الله عنها: «أول ما بدئ به رسول الله ﷺ الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح».

-المقطع (ب) من رواية الزهري: «ثم حبب إليا الخلاء فكان بغار حراء يتحنث فيه الليالي ذوات العدد قبل أن يرجع إلى أهله فيتزود لمثلها حتى فاجأه الحق فأتاه فقال يا محمد أنت رسول الله».

-المقطع (2)من رواية البخاري: « ثم حبب إليا الخلاء، فكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه، وهو التعبد الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله فيتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو في غار حراء».

-المقطع (جـ) من رواية الزهري: « فجثوت على ركبتي وأنا قائم ثم زحفت ترجف بواري ثم دخلت على خديجة فقلت زملزني، زملوني، حتى ذهب عني الروع، ثم أتاني فقال: يا محمد أنت رسول الله».

- المقطع (3) من رواية البخاري: « فجاءه الملك، فقال: اقرأ، قال ما أنا بقارئ، قال: فأخذني فغطني حتى بلغمني الجهد ثم أرسلني، فقال: اقرأ فقلت: ما أنا بقارئ فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: اقرأ فقلت: ما أنا بقارئ فغطني الثالثة ثم أرساني فقال: اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان مالم يعلم، فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده فدخل على خديجة بنت خويلد فقال: زملزني، زملوني حتى ذهب عنه الروع ».

إلى غاية الفقرة (جـ) لا يوجد اختلاف من حيث تسلسل الأحداث بين رواية الزهري التي أوردها وات ورواية البخاري.

- المقطع (د)من رواية الزهري: «قال لقد هممت أن أطرح نفسي من حالق جبل فتبدى لي حين هممت بذلك فقال: يا محمد أنا جبريل وأنت رسول الله».

– المقطع (4)من رواية البخاري: « فقال لخديجة ما لي، وأخبرها الخبر لقد خشيت على نفسي فقالت خديجة: والله ما يخزيك الله أبدا، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق ».

– المقطع (هـ)من رواية الزهري: « ثم قال: اقرأ وقلت: ما اقرأ ؟ قال: فأخذني فغتني (فغطني) ثلاث مرات حتى بلغ مني الجهد ثم قال: اقرأ باسم ربك الذي خلق، فقرأت، فأتيت خديجة فقلت: لقد أشفقت على نفسي فأخبرتها خبري، فقالت: أبشر فالله لا يخزيك الله أبدا، و والله إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتؤدي الأمانة، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، ثم انطلقت بي إلى ورقة بن نوفل بن أسد قالت: اسمع من ابن أخيك....نصرا مؤزرا».

–المقطع (5) من رواية البخاري: «فانطلقت به خديجة حتى أتت ورقة بن نوفل....نصرا مؤزرا».

إن ظهور جبريل ومطالبة النبي بالقراءة جاء في رواية البخاري في المقطع الثالث أما الرواية التي ذكرها **وات** فإن مجيء جبريل للنبي ومطالبته بالقراءة جاء في المقطع الخامس (هـ) ووضع مكانه في المقطع (جـ) (3) وهو المقطع الذي يتحدث عن حالة الخوف والفزع التي أصابت النبي بعد رؤيته لجبريل ثم يليه المقطع (د) والذي يتحدث عن فترة انقطاع الوحي فالنبي حسب الترتيب الذي وضعه **وات** خاف وفزع حينما ظهر له جبريل (د) ثم فكر بأن يلقي بنفسه من أعالي الجبل حين انقطاع الوحي (د) بعد هذا تأتي الفقرة (هـ) والتي تتحدث عن أول نزول القرآن الكريم.

كان ينبغي على وات أن يلتزم بالتسلسل الحقيقي للرواية وهو أن النبي ﷺ فاجأه الملك في الغار فخاف وفزع وفي هذا المقطع حصل أول نزول للقرآن الكريم المتمثل في أوائل سورة العلق بعد هذا يأتي المقطع الذي يتحدث عن حيرة وقلق النبي بسبب انقطاع الوحي أما أن يقوم بالتصرف في نص الحديث فيقدم ويؤخر كيفما يشاء فهذا مما لا يتفق مع أسلوب الباحث المؤرخ الذي يفترض أن ينصب تفسيره حول الظروف التي صيغت فيها هذه الوثيقة التاريخية عند وجودها لا أن يقوم بالتصرف في نص الوثيقة كيفما يشاء.

ويذكر الكاتب في المقطع (ق): قال الزهري: « فكان أول شيء أنزل عليه ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ حتى بلغ "ما لم يعلم". ويروي الزهري ويعرف بابن شهاب أيضا رواية أخرى أن جابر بن عبد الله الأنصاري قال: قال رسول الله ﷺ وهو يحدث عن فترة الوحي: «بينما أنا أمشي سمعت صوتا من السماء فرفعت رأسي فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض».[1]

تتحاشى هذه الرواية تعبير الراوي من (ي) إلى (ق) بقولها دثروني، وهذا المعنى مهم لأنه طابع مميز للحديث المروي عن جابر والقائل بأن سورة المدثر (74) أول الوحي.

إن رواية جابر بن عبد الله لم تشر مطلقا إلى أن أول ما نزل من القرآن هو سورة المدثر وهذا باتفاق العلماء الذين ذكروا بأن أول ما نزل من القرآن هو (اقرأ)، بينما تتحدث رواية جابر على أن أول ما نزل من القرآن بعد انقطاع الوحي والذي دام ثلاث سنوات هو سورة المدثر[2].

ب-رؤى محمد: يقول وات: لا نملك دليلا قاطعا للشك في الفكرة الأساسية للمقطع (أ) وهي أن دعوة محمد بدأت "برؤيا حقيقية" وهذا يختلف كليا عن الأحلام.

كما نجد الرؤى في المقطع (ب) والمقطع (ي) إذا وضعنا جانبا ظهور جبريل في (د) و(ط) ويؤيد نص المقطع (أ) ما نعلم من سورة النجم، ولكنه مشتق بصورة مستقلة من ملاحظات محمد ويذكر لنا القرآن رؤيتين: والنجم إذا هوى، ماضل صاحبكم وما غوى، وما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، علمه شديد القوى، ذو مرة فاستوى....ربه الكبرى[3].

تفسير المسلمين لهذه الآيات يهيئ للاعتقاد بأنها تتحدث عن رؤيا جبرائيل ولكن هناك أسباب تحملنا إلى الاعتقاد بان محمدا قد فسرها على أنها رؤيا الله نفسه، فنحن لا نجد أي ذكر

---

(1) –رواه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي. باب: كيف كان بدء الوحي، ج1، ص7.

–رواه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان. باب: بدء الوحي، ج1، ص98.

(2) –السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، مج1، ص40.

(3) –المرجع نفسه، ج1، ص1147وما بعدها.

لجبرائيل في القرآن حتى في الفترة المدنية، وأن الكلمات في (5-10) يجب أن تعني عبد الله كما يعترف به المسلمون، ولكن هذا يجعل الجملة غير مستقيمة إلا إذا كان الله فيها الفاعل الضمير للأفعال والجملة في نهاية المقطع (ب) «حتى فاجأه الحق فقال..» لها نفس المعنى لأن "الحق" من أساليب الإشارة إلى الله.

إن العنوان الذي وضعه وات لهذه الفقرة، يوحي إلى أن نزول الوحي إلى النبي كان أثناء النوم وليس اليقظة، فالكاتب بتحليله هذا، يكون قد قام إما بإسقاط مفهوم النبوة في الكتاب المقدس -والتي لا تثبت إلا عن طريق الرؤى والأحلام- على نبوة محمد ﷺ، أو اعتمد على الإسرائيليات الواردة في تفسير الطبري والتي تقول بأن الوحي نزل على النبي وهو نائم في غار حراء «فقال رسول الله ﷺ فجاءني وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب...فقرأته، ثم انتهى، ثم انصرف عني وهبت من نومي وكأنه في قلبي كتاب» [1].

وهذا يتعارض مع ما اتفق عليه معظم كتاب السيرة من أن وحي الله لرسوله كان في حال اليقظة بغار حراء، ولو كان في حال النوم لأصبح ذلك رؤيا صادقة وليس وحيا وهي نوع من أنواع الوحي الرباني[2].

بعد هذا يقول وات إن تفسير المسلمين بأن الملك الذي رآه النبي هو جبريل تفسير خاطئ ويستدل على كلامه هذا بـ:

- عدم ورود اسم جبريل في الفترة المكية، أي في القرآن الذي نزل بمكة وبما ورد في سورة النجم قال تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى. إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى. عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى. ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى. وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى. ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى. فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى. فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى. مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى. أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى. وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى. عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى. عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى. إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى. مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى. لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ [3].

---

[1] -رواه الحاكم في المستدرك، كتاب التفسير. باب: تفسير سورة اقرأ باسم ربك الذي خلق، ج2، ص577.

[2] -أنظر الفصل الأول: الوحي والنبوة في العقيدة الإسلامية.

[3] -سورة النجم، الآية: 3-18.

- وما جاء في الحديث (حتى فاجأه الحق) ومخافة من الوقوع في التناقض عدل الرسول عن تفسيره الأول وهو رؤية الله، إلى التفسير الثاني وهو رؤية جبريل إذ أن الله في العقيدة الإسلامية ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾[1].

إن ما ذهب إليه وات يتعارض تماما مع ما جاء في كتب السيرة والحديث والتفسير، ولو تحامل على نفسه قليلا ورجع إلى بعض هذه الكتب، بدلا من الاعتماد على دراسات زملائه من المستشرقين أمثال بيل BILL ومؤلفه "ترجمة القرآن"، لما قال هذا الكلام.

كان ينبغي على وات أن يجمع مادة بحثه من مصادرها ومراجعها، وأن يحلل الوحي المحمدي وفق معطيات العقيدة الإسلامية وتصورها للوحي، لا بحسب المنظور المسيحي والعقيدة المسيحية، ولو التزم بهذه المقاييس لكفى نفسه كل هذا الخلط واللغو.

فمن أين عرف وات أن النبي ﷺ عدل عن تفسيره الأول وهو رؤية الله إلى التفسير الثاني وهو رؤية جبريل؟.

وكيف فسر قول الرسول (فجاءه الحق) على أن لفظ "الحق" تعني الله عز وجل على الرغم من وجود عدة معان لهذه اللفظة؟ ولماذا حصر معناها في لفظ الجلالة (الله) ولم يلتفت إلى بقية المعاني التي تطلق على هذه اللفظة؟

وكيف توصل إلى أن المقصود من لفظ الإشارة (هو) الواردة في آيات سورة النجم الله ﷻ؟.

نقول إن الأدلة التي ذكرها **وات** تدينه أكثر مما تؤيده، لأن القيام بإلقاء نظرة ولو بسيطة على بعض كتب الحديث والتفسير والسيرة، تقضي على استدلالاته الواهية واستنتاجاته المغرضة. فقوله إن اسم جبريل لم يرد في القرآن المكي قول باطل، تفنده آيات القرآن المكية التي تحدثت عن جبريل باسم آخر هو الروح أو روح القدس كما في قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾[2]، ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾[3]، ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ. عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾[4].

---

(1) –سورة الأنعام، الآية: 103.

(2) –سورة مريم، الآية: 26.

(3) –سورة النحل، الآية: 102.

(4) –سورة الشعراء، الآية: 193-194.

وقوله إن ما يستفاد من "فجاءه الحق" هو رؤية الله استنتاج خاطئ لأن لفظة الحق في اللغة العربية تحمل على عدة معان منها: التثبت كقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾[1] أي ثبت، وقوله: ﴿وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ﴾[2] أي وجبت وثبتت.

والتحقق هو العلم بالشيء، يقول الرجل لأصحابه إذا بلغهم خبر فلم يسيقنوه أنا أحق لكم هذا الخبر أي أعلمه لكم وأعرف حقيقته[3].

قال أبو إسحاق: «الحق أمر النبي ﷺ وأتى به من القرآن من ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾[4] وقوله أيضا: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ﴾[5]»[6].

وقال بن حجر بأن المراد من قوله: (فجاءه الحق) أي الأمر الحق أو الدين الحق.

أما قوله إن سياق الحديث الوارد في آيات سورة النجم يدل على أن المرئي هو الله ﷻ وليس جبريل فهو قول مردود لأن الضمير في "إن هو إلا وحي يوحى" يعود على القرآن وفي "هو بالأفق الأعلى" يعود على جبريل الذي ينزل بفيوضات الحكمة على الرسل والأنبياء، وضمير الغائب في "ولقد رآه نزلة أخرى" يعود على جبريل، وهو خطاب موجه إلى الذين أنكروا على النبي ﷺ رؤية جبريل، أي إذا كنتم تجحدون رؤيته في الأرض فلقد رآه رؤية أعظم منها إذ رآه في مكان آخر وهو سدرة المنتهى وهو المكان العلوي في السماء السابعة[7].

جـ-أمية الرسول ﷺ: افترض **وات** عدم أمية الرسول ﷺ فيقول: «إن المقصود من

---

(1) -سورة الأحقاف، الآية: 18.

(2) -سورة الزمر، الآية: 71.

(3) -ابن منظور، لسان العرب، ج2، ص940.

(4) -سورة البقرة، الآية: 42.

(5) -سورة الأنبياء، الآية: 18.

(6) -ابن منظور: لسان العرب، ج2، ص940.

(7) -الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، ص.95-96-104.

المقطع (هـ) "ثم قال: اقرأ قلت: ما اقرأ؟" هو معرفة محمد للقراءة والكتابة ويعلل ذلك بأن قول محمد (ما اقرأ) في رده على قول الملك "اقرأ" تعني "لا أستطيع القراءة" أو التلاوة، وفي رواية "ما أنا بقارئ" وفي التمييز عند بن هشام " ما اقرأ" و" ماذا اقرأ"، حيث التعبير الثاني لا يمكن أن يعني إلا "ماذا اقرأ" وهذا هو المعنى الطبيعي لقوله "ما اقرأ"، ثم يضيف بأن العلة في تمسك المسلمين بمسألة أمية الرسول محمد هو إضفاء صفة المعجزة على القرآن الكريم، إذ يقول: «ويبدو من المؤكد تقريبا أن المفسرين التقليديين اللاحقين تجنبوا المعنى الطبيعي لهذه الكلمة ليجدوا أساسا للعقيدة التي تريد أن محمد لم يكن يعرف الكتابة، وهذا عنصر رئيسي للتدليل على طبيعة القرآن المعجزة »[1].

ونرد على وات بأن أمية الرسول ليست هي الإعجاز الفريد للقرآن بل هي عنصر مؤيد لحقيقة القرآن المعجزة، وحتى لو افترضنا أن النبي كان يعرف القراءة والكتابة، فهذا لا يتناقض مع الإعجاز القرآني، لأن معجزة الرسول ﷺ قد امتازت عن غيرها من معجزات الأنبياء بعدة مميزات يذكرها ابن خلدون قائلا: «فاعلم أن معظم المعجزات وأشرفها وأوضحها دلالة القرآن الكريم المنزل على نبينا ﷺ فإن الخوارق في الغالب تقع مغايرة للوحي الذي يتلقاه النبي، ويأتي بالمعجزة ...فشاهده في عينه ولا يفتقر إلى دليل له كسائر المعجزات مع الوحي...فهو أوضح دلالة لاتحاد الدليل والمدلول فيه... وهذا المعنى قوله: «ما من نبي من الأنبياء إلا أوتي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحي إليه، فأنا أرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة »[2].

يشير إلى أن المعجز من كان بهذه المثابة في الوضوح وقوة الدلالة، وهو كونها نفس الوحي، كان الصدق لها أكثر لوضوحها فكثر المصدق والمؤمن وهو التابع والأمة »[3].

إن ما ادعاه وات بخصوص نفي الأمية عن الرسول ﷺ دعوى غير صحيحة، وينقضها الدليل التاريخي، أما عبارة "ما أنا بقارئ" فقد فسرها بن حجر قائلا: "ما أنا فيه" أي

---

(1) –مونغمري: محمد في مكة، ص126.

(2) –البخاري، مرجع سابق، ص20.

(3) –ابن خلدون: المقدمة، ص91.

ما أحسن القراءة، و(ما) هنا نافية، إذ لو كانت استفهامية لم يصلح دخول الياء. فلما قال ذلك ثلاثا قيل له: "اقرأ باسم ربك الذي خلق" أي لا تقرؤه بقويك ولا بمعرفتك ولكن بحول ربك واعانته، فهو يعلمك كما خلقك وكما نزع عنك علق الدم وغمز الشيطان في الصغر، فالرسول ﷺ ينفي عن نفسه القراءة[1].

وإن المستشرقين عادة ما يلجأون إلى هذه التهمة ليأسسوا عليها نظريتهم القاضية باستمداد الرسول لمادة القرآن من الديانات السابقة وخصوصا اليهودية والمسيحية، فيما أن الرسول يحسن القراءة والكتابة فهذا يعني أنه طالع كتب الأولين فحصل هذه العلوم والمعارف، ومن أمثال من قال بذلك كايتاني الذي يرى أنه من غير المعقول ألا يكون النبي قارئا كاتبا في حين قد احتوى القرآن على معارف كتابية كثيرة، وكان كثير من فتيان قريش من أمثاله وفي مثل سنه يقرؤون ويكتبون بل قد رأينا بعضهم يزعم أنه كان يكتب ويقرأ وإنما كان يحاول كتمان ذلك عن الناس عن أصدقائه[2].

والمستشرق بلاشير في الحاضر الذي يقول في كتابه" مدخل إلى القرآن": « إننا نرى وجود قرائن على أن محمد كان يعرف القراءة والكتابة، فظلا عن ذلك فلدينا من الأسباب ما يحملنا على الظن بأن هناك رجالا آخرين من أسرته، مثل عمه أبي طالب وابن عمه على كانت لديهم هذه المعرفة »[3].

يقول تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾[4]، فلو كان النبي ﷺ يعرف القراءة والكتابة لما خفي أمره على الناس لا سيما وأنه نشأ يتيما، وانتقل بين العديد من البيوت « والعادة الجارية بأن اليتيم الذي تتلقفه أيد كثيرة، وتتعدد عليه الولايات لا يخفى من أمره شيء، وتظهر أخلاقياته وتتضح سلوكيات، فلا شيء مستور منها»[5].

---

(1) –أحمد علي بن حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، راجعه: قصي محب الدين الخطيب، ط1، القاهرة، دار الرياض للتراث، (1407هـ–1986م)، ج1، ص32–33.

(2) –محمد دروزة: سيرة الرسول، بيروت، المكتبة العصرية، ج1، ص307.

(3)–Blachèr. R : Introduction au coran, P50.

(4) –سورة العنكبوت، الآية: 48.

(5) –عبد الكريم الخطيب: النبي محمد، ص.57.

ثم لو كان الرسول ﷺ قارئا كاتبا لكان كفار قريش أول من جادله و نازعه في هذا الأمر، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [1].

قال المفسرون: إن عبارة "تملى عليه" وعبارة "اكتتبها" بمعنى استكتبها، تفيد بإن الكفار كانوا يتهمونه بأنه كان يسمع إلى من يتلو عليه قصص الأمم السابقة حتى يحفظها، ثم يدعي أنها وحي من الله، وهذا يؤيد انه كان لا يقرأ ولا يكتب، وأن زعماء مكة كانوا يعرفون ذلك.

المطلب الثاني: تفسير رودنسون لنبوة محمد ﷺ

يعتبر رودنسون من المستشرقين المعاصرين الذين يحاولون الإلتزام بمواقفهم الحيادية تجاه قضية الإسلام ونبيه محمد ﷺ إذ رفض أقوال الباحثين الغربيين التي تصف الرسول بالمخادع والمزور. كما طرح كل الآراء التي تدعي أنه ﷺ مصاب بالصرع والهلوسة والهستيريا وغيرها من الأمراض النفسية والعصبية. ولذلك نجده يصف شخصية الرسول ﷺ على أنه: «رجل ذكي ومعتدل ومتوازن، وجد واقعي وأنه يتسم بالرحمة والحلم وبعد النظر والورع»[2].

وقبل التطرق إلى دراسة -شخصية الرسول ﷺ- يعلن ردنسون منذ البداية عن معتقده الديني من خلال كتابه "محمد"، يقول: «أريد أن أطلب من القراء المسلمين أن لا يتسرعوا في المناداة بالجهل وسوء النية إذا رأوا نقدا أو تجاهلا لبعض الأحداث التي تظهر لهم على أنها حقائق مثبتة تاريخيا»[3].

---

[1] -سورة الفرقان، الآية: 5.

[2]- أبو عمران الشيخ: الاستشراق أو الإيديولوجيا أو أصول الإسلام في الموسوعة العالمية، حوليات الجزائر، ع2، 198-1988، ص34.

[3]- Maxime Rodinson : Mqhomet, Edition du seuil, paris, 1961, p. 140

ثم يضيف بأن الأسلوب الذي اتبعه ليس له علاقة بالاستعمار والتغريب، لأن العلماء الأوروبيين طبقوا هذا المنهج على تاريخهم، يقول: «يقال لي بأنني ملحد لا أستطيع فهم الأفكار الدينية، ولكن عندي من القناعة بأن الملحد إذا تمكّن من أن يضع إلى جانب كل كره يعجزه وإحساس بالأفضيلة، يستطيع أن يفهم الأفكار الدينية التي يقول عنها أصحابها بأنها تأتي من عالم آخر غير الذي يعيشون فيه، وإذا كان الملحد يرى بأنه ليس هناك ما يبرهن عن الأصل غير البشري للأفكار الدينية، ولكن ليس له الحق أن ينقص من قيمة الرسالة»[1].

وطبقا لهذا التصريح جاء موقفه من نبوة محمد ﷺ ومن ظاهرة الوحي تباعا لموقفه العام من الأديان، والمتمثل في إنكار عالم الغيب وإنكار بعثة الرسل.

وبناء عليه يرى رودنسون بأن النبوة ظاهرة من الظواهر الاجتماعية التي تخضع لما تخضع له الظواهر الإنسانية عموما من قوانين ونواميس، لذلك بحثت في إطار التاريخ العام وبالضبط في إطار تاريخ الأديان، وهذا لا يتناسب وطبيعة العقائد الإسلامية، التي لا تخضع لمنهج التجربة ولا أن تصدر في حقها الأحكام العقلية.

وقد طبق المستشرقون هذه المنهجية في دراسة العقائد الإسلامية والتاريخ الإسلامي عموما بعدما طبقوها على معتقداتهم وديانتهم، مثل يوليوس فيلها وزن الذي قام بنقد العهد القديم بعد سلسلة من الدراسات عن تاريخ اليهود، وبعد ذلك تحول إلى دراسة التاريخ الإسلامي[2].

أولا: دوافع نبوة محمد

أما عن الأسباب التي أدت إلى قيام النبوة، فقد حصرها رودنسون في عدة عوامل، يأتي العامل الاقتصادي في مقدمتها.

1-الدافع الاقتصادي

تعتبر التجارة في منطقة الجزيرة العربية هي عصبة الحياة الاقتصادية لدى سكان المنطقة بسبب تضاريس المكان (أراضي صحراوية جذباء)، وكانت مكة هي أكبر وأهم

---

[1]-Maxime Rodinson: OP.Cit, p140.

[2]-محمد توفيق حسين: مقال سابق، ص532.

مركز تجاري في المنطقة بسبب موقعها الجغرافي، الذي يعتبر منطقة عبور للقوافل الآتية من الشمال تجاه الجنوب، والقوافل الآتية من الجنوب تجاه الشمال.

وقد لعبت قريش دورا هاما في تنشيط حركة التجارة بفضل قيام رجالها بمهمة توفير الأمن للطريق المار بالحجاز، والعمل على تنظيم القوافل بين الشمال والجنوب، فحققوا من وراء ذلك ربحا وخيرا كثيرا، إلا أن هذه الأعمال كانت في متناول فئة من الناس وهم كبار التجار والأغنياء، بسبب القوانين الجائرة التي كانت تسيّر النظام الاقتصادي السائد آنذاك، كالربا، والمضاربة، والغش، وغيرها من القواعد والتقاليد التي وضعت من طرف هذه الفئة لحماية مصالحها والذوذ عن نفوذها، الأمر الذي أدى إلى تعميق الهوة بين طبقة الأغنياء وطبقة الفقراء. وذلك ما عبر عنه رودنسون بقوله: «ويذهب المستعرب الألماني هربرت جريم (H.Grimme) إلى أن محمدا لم يكن في بداية أمره يبشر بدين جديد، ولكنه اقتنع بضرورة إصلاح مجتمعه في مكة الذي يعاني من الفساد، فوضع خطة لمساعدة الفقراء عن طريق فرض ضريبة على دخول الأغنياء. ولكنه فهم أن الحظ لن يواتيه لقبول هذا الحل من قبلهم، كما أنه لم يتخيل خطة لصراع الطبقات على طريقة القرنين التاسع عشر والعشرين، ومن هنا استخدم فكرة الحساب يوم القيامة كوسيلة للضغط على هؤلاء الأغنياء لقبول خطته الرامية إلى الإصلاح الاجتماعي في مجتمعه، ففرض عليهم الزكاة لتطهير أموالهم وأنفسهم»[1].

لقد ضغط المستشرقون -ذوو الاتجاه الماركسي- بقوة على الناحية الاقتصادية، وبالغوا في تصويرها للقارئ الغربي، بحيث جعلوا المجتمع العربي قبل الرسالة وكأنه على فوهة بركان وصل للانفجار والثورة ليحل بعده الهدوء والراحة والطمأنينة على يد المنقذ والمخلص محمد ﷺ بفضل حركته الدينية التي جاءت لنصرة الضعيف وتحقيق العدالة الاجتماعية.

---

[1]-Maxime Rodinson: OP.Cit, p102-103.

2-الدافع الاجتماعي

تميز المجتمع العربي قبل ظهور رسالة الإسلام بسيطرة الزعامة والعصبية القبلية ووجود نظام الطبقية، الذي قسم المجتمع العربي إلى طبقتين، طبقة الأحرار وطبقة الرقيق، وطبقة الأشراف وطبقة الموالي، وكان النظام الجاهلي يعاني من الاضطراب بسبب وجود نوعين من العلاقات التي تربط بين السكان وهما علاقة الدم والقرابة والتضامن القائم على المصلحة التجارية، بعد أن أصبحت مكة مركزا تجاريا هاما، الأمر الذي أذكى نار الأنانية الفردية وأضعف الروح الجماعية، وبذلك ازداد الغني غنى والفقير فقرا وشقاء[1].

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الوضع في العديد من الآيات كقوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[2]. ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ. أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾[3].

وحينما فشل الحل الجديد القائم على المصالح المادية في إنقاذ المجتمع المكي وتخليصه من حالة الفوضى والاضطراب التي يعيشونها، وإشاعة العدل والمساواة بين الناس، جاء الإسلام بحل آخر يقوم على الدين وما يأمر به من صدقة وإنفاق على الفقراء[4].

3-نشأة الرسول ﷺ

هذا الدافع، وإن كان لا يرقى إلى مستوى العامل الاقتصادي، إلا أنه يعدّ من بين الدوافع التي ساعدت على ظهور بنبوة محمد ﷺ، فنشأة النبي يتيما محروما من عطف الأب وحنان الأم، ووحيدا ليس له إخوة ولا أخوات، كان له تأثيرا كبيرا على تكوينه العقلي، وقد

---

(1) -وات: محمد في مكة، مرجع سابق، ص73.

(2) -سورة الحجرات، الآية: 13.

(3) -سورة الزخرف، الآية: 31-32.

(4) -وات: محمد في مكة، مرجع سابق، ص73-74.

تحدث المستشرق "روم لاندو" عن التنشئة الاجتماعية للنبي، وتأثيرها في عملية الوحي المحمدي قائلا: «ما استشعره الشاب الحساس من وحدة وانفراد، والأثر الذي كان لا بد من هذا الوضع أن يتركه في تكوينه العقلي، والواقع أن ما نزل عليه من وحي لم يهبط في خواء بل هبط في جو من الاستبطان (Instopetion) المحتوم، والتساؤل الروحي، وهو الجو الذي يلائم في العادة حياة غلام فقد أباه وأمه، مع عدم وجود الاخوة والأخوات»[1].

إن النبي ﷺ على الرغم من أنه عاش يتيما محروما من عطف وحنان الوالدين، إلا أنه لم يعش وحيدا ولا محروما (بالمعنى الذي يقصده روم لاندو)، وإن كانت حكمة الله قد شاءت أن ينشأ يتيما[2]، غير أنه لم يتركه وحيدا، فقد عوضه عن والديه بعطف وحنان جده عبد المطلب.

وتذكر الروايات أن الرسول ﷺ كان معه جده عبد المطلب بعد موت آمنة بن وهب، فكان يوضع لعبد المطلب فراش في ظل الكعبة، وكان بنوه يجلسون حول فراشه ذاك حتى يخرج إليه، لا يجلس عليه أحد من بنيه إجلالا له، قال ابن إسحاق: «فكان رسول الله ﷺ يأتي وهو غلام صغير حتى يجلس عليه، فيأخذه أعمامه ليؤخروه عنه فيقول عبد

---

[1] –روم لاندو: الغرب والإسلام، ص97.

[2] –إن نشأة اليتم التي اختارها الله لنبيه محمد ﷺ تعتبر دليلا يضاف إلى مجموع الدلائل الدالة على صدق نبوة رسول الإسلام، وذلك من وجهين اثنين. الوجه الأول: أن الظروف التي أحاطت بالنبي ﷺ أثناء طفولته كانت في أحسن تقدير أن تجعل منه رجلا عاديا نجا من السير في طريق الضياع والانحراف. أما أن تجعل منه ملكا يمشي على الأرض فذلك ما لم يحصل لامرئ قط، ففي الأمر إذن شيء غير طبيعي هو الذي جعله يضاهي الملائكة في الأدب والأخلاق. (انظر: الفصل الأول، ص من الدراسة). الوجه الثاني: أن نشأة اليتم هذه ستقف –في الطرف المقابل– في وجه من يعتمد على المحيط أو الوسط الاجتماعي وخصوصا الأسرة ودورها في تكوين شخصية الطفل وتوجيهه نحو الوجهة التي تريدها، يقول البوطي: «لقد اختار الله هذه النشأة لحكمة باهرة، لعلّ من أهمها ألا يكون للمبطلين سبيلا إلى إدخال الريبة، أو إيهام للناس بأن محمد ﷺ إنما رضع لَبَانَ دعوته ورسالته التي نادى بها منذ صباه بإرشاد وتوجيه من أبيه وحده، ولما لا؟ وإن جدّه عبد المطلب كان صدرا في قومه، فلقد كانت إليه الرّفادة والسقاية». البوطي: فقه السيرة، ص78.

الرفادة: شيء كانت قريش تترافد به في الجاهلية؛ أي تتعاون به، فيخرج كل إنسان بقدر طاقته فيجمعون مالا عظيما، فيشترون به طعاما وزبيبا ونبيذا ويطعمون الناس ويسقونهم أيام موسم الحج حتى ينقضي.

المطلب: دعوا ابني هذا، فوالله إن له لشأن، ثم يجلسه معه على فراشه ويمسح ظهره بيده ويسره ما يرّاه يصنع»[1].

وقال بن جبير: «كان رسول الله ﷺ يكون مع أمه أمنة بنت وهب، فلما توفيت قبضه إليه جده عبد المطلب وضمه ورق عليه رقة لم يرقها على ولده، وكان يقربه منه ويدنيه، ويدخل عليه إذا خلى ونام، وكان يجلس على فراشه فيقول عبد المطلب إذا رأى ذلك: دعوا ابني إنه يؤسس ملكا»[2].

إن الذي يريد روم لاندو الوصول إليه -كبقية المستشرقين- من خلال تعرضه لحياة النبي ﷺ هو الاستدلال على فرضية ذاتية الوحي المحمدي وأن تلك النشأة التي عاشها النبي وهي الوحدة وما يترتب عليها، كالإحساس المرهف والابتعاد عن اللجوء إلى التأمل، كانت من بين الصفات التي أعانت الرسول على السير في طريق النبوة.

ذلك ما أراد المستشرق أن يوصله للقارئ الغربي الذي لا يعرف شيئا عن تاريخ الإسلام ولا عن سيرة نبيه، وقد توصل إلى ذلك عن طريق ليّ الحقائق وتطويعها خدمة لأغراضه الدينية والنفسية، هذا على الرغم من أن أسلوب الباحث (كتاب العرب والإسلام) يوحي للوهلة الأولى بأن صاحبه من ذوي الاتجاه العلمي الذين يتميزون بالموضوعية والحياد.

ويساند رودنسون ما ذهب إليه زميله حينما قال في محاضرة ألقها عام 1969 «...ففي الأساس ثمة نواة إلهام انطلاق أولي، وسواء كان ذلك صادرا عن الله أو عن محمد إلهام أعدّت له على الأقل -إذا لم تكن كيفته- ظروف اجتماعية وتاريخية وسياسية وثقافية... ومع ذلك تجيب على أسئلة وجودية أبدية...»[3].

---

[1] -ابن كثير: السيرة النبوية، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، دط، بيروت، دار الفكر، (1398هـ-1978م)، ج1، ص237-238.

[2] - المصدر نفسه، ص238.

[3] -ماكسيم رودنسون: الماركسية والعالم الإسلامي، مرجع سابق، ص60.

ثانيا: طريق النبوة

وكنتيجة لتلك الحياة التعيسة ولتلك الظروف القاسية التي أحاطت بالنبي منذ نشأته الأولى راح يبتعد عن الناس ويعتزل المجتمع، وفي ذلك يقول رودنسون: «إن محمدا كانت له ميول زهدية أملتها ظروف حياته الشخصية عندما كان طفلا ومراهقا ورجلا ناضجا، وأنه بدأ يمارس حياة "الزهد" التي هي –إحدى دراجات الصوفية– منذ زمن مبكر من حياته»[1]. ويقول أيضا: «إن المتصوفين المسيحيين والمسلمين تخطوا هذه المرحلة إلى أعلى منها وهي الاتحاد مع الله والحلول فيه، وهو يرى أن محمدا قد مرّ بمرحلة الزهد وأخذ في التأمل والعبادة بغار حراء، ولكنه لم يشعر أبدا أنه وصل إلى مرحلة الاتحاد بالله»[2].

هنا رودنسون يريد القول بأن الرسول ﷺ قد تأثر في حياته قبل البعثة بالزهد والتصوف الذي كان موجودا في المسيحية[3]، وهو بذلك يردد ما قاله زملائه من المستشرقين أمثال "فلهاوزن" الذي يعتقد «بأن المسيحية قد أثرت في العرب تأثيرا كبيرا قبل الإسلام، وأنها قد أثرت كذلك على الرسول ﷺ[4] وما قاله "نيكلسون": «لقد غرست المسيحية –لا الكنيسة المسيحية بل المسيحية غير التقليدية وغير المنظمة– بذور الزهر في بلاد العرب قبل البعثة المحمدية، وكان آثرها يعمل عمله في تطور الزهد في الأمبراطورية الإسلامية في عصورها الأولى، ونحن نعلم أن المسيحية كانت منتشرة قبل الإسلام بين قبائل شمالي الجزيرة العربية وأن كثير من العرب كانوا على علم بعقائد المسيحية وطقوسها وقد يفسر لنا تأثير المسيحية على حركة الزهد التي ظهرت في أوائل عهود الإسلام، وكيف كان محمد وأتباعه الألون يقومون الليل كله أو بعضه تهجدا وعبادة»[5].

---

[1]-Maxime Rodinson : Op.Cit, P106.

[2]-Ibid, P106.

[3]–ردد رودنسون آراء المدرسة الاستشراقية الفرنسية التي ترى أن التصوف الإسلامي صادرا عن التصوف المسيحي. (عبد القادر محمود: الفلسفة المسيحية، ص9).

[4]–عبد الله الشرقاوي: الاتجاهات الحديثة في دراسة التصوف، مرجع سابق، ص78.

[5]–المرجع نفسه، ص79.

لم يخالف رودنسون السياق العام للمستشرقين الذين يحاولون رد كل شيء في الإسلام إلى عناصر أجنبية كلما وجدوا تشابها أو تقاربا بين الإسلام وتلك الديانات. ومن ذلك ما كان يقوم به النبي قبل البعثة وهو التوجه إلى غار حراء[1] طلبا للخلوة وللتأمل، محاكيا في ذلك المتصوف من المسيحيين الذين كانوا متواجدين في البلاد العربية.

فما الذي كان يسعى إليه النبي من وراء خلوته بغار حراء؟

وعلى أي شرع كان يتعبد قبل البعثة؟ وإلى أين قاده هذا التعبد؟

هذه الأسئلة أثارها العديد من المستشرقين يهدفون من ورائها إلى نفي خاصيّة الاصطفاء والاختيار الإلهي عن النبوة في العقيدة الإسلامية. والقول بأن النبي كان صوفيا يذهب إلى غار حراء للخلوة وللتحنث وللتفكير في إقامة دين جديد يعيد توزيع الثروة توزيعا عادلا بين أفراد المجتمع، ويعمل على إزالة الفوارق الطبقية التي كان يعاني منها المجتمع المكي والعربي.

والتأمل هو من صورة من صور العبادة الصوفية المسيحية التي كانت موجودة في البلاد العربية زمن بعثت النبي ﷺ فما كان من النبي إلا تقليد صوفية المسيحيين في سلوكه لطريق التعبد والتأمل آملا في الحصول على الكشف والإلهام الذي يحصل عادة للمتصوفين والواصلين. وفي ذلك يقول رودنسون «في عالم يبدو فيه للإنسان مدى ضعف قدرته بل في عالم تنشأ فيه ظروف تعيد خلق هذا الضعف لدى كل فرد، نجد أنه أقرب إلى طبيعة الأمور، وأن يكون الإدراك الإجمالي للعالم من طبيعة دينية، وأن ما شعر به محمد شأنه شأن الكثيرين، وهو شعور بالارتهان تجاه ذلك السرّ الأخاذ الرهيب الذي يحيط به، وقد تبلور هذا السرّ وتجلى عبر حضرة إلهية هائلة الحضور»[2].

وقد ذهب بعض المستشرقين إلى أن عادة التحنث هي عادة يهودية نصرانية دخلت إلى العرب الجاهليين عن طريق «الرهبان الذين كانوا قد اعتكفوا في مواضع متعددة من

---

[1]-حراء: يقصر ويمدّ، ويصرف ويمنع، وهو جبل بأعلى مكة على ثلاثة أميال منها عن يسار المارّ إلى منى، له قلّة مشرفة على الكعبة منحنية، والغار في تلك الحنية، ويسمى الجبل الذي يوجد فيه الغار بجبل النور. (ابن كثير: السيرة النبوية، ج1، مرجع سابق، ص391).

[2]-Maxime Rodinson : Op.Cit, P106.

جزيرة العرب وقد ذهب "هيرشفيلد"[1] (Hiroschfeld.H) وهو يهودي إلى أن (التحنث) معربة عن أصل عبراني وهو تحنيوت (Tehinnot) أو تحينوت (Tehinnoth) معناها الاعتكاف والتوجه بالصلاة إلى الله[2].

نقول إنّ النبي ﷺ لم يذهب إلى غار حراء بحثا عن النبوة ولا من أجل التفكير في إقامة دين جديد، بل إن الذي دفعه إلى التحنث في غار حراء هو الضلال الذي كان عليه قومه، وتلك الأوثان والأصنام التي كانوا يعبدونها ويقدمون لها القرابين ويقيمون من أجلها الطقوس والاحتفالات. في حين أدرك ﷺ بفطرته السليمة وقلبه الطاهر بأن تلك الآلهة ما هي إلا حجارة لا تضرّ ولا تنفع، وفي غار حراء «كان حائرا في الطريقة التي يعبد الله تعالى بها، فهو متجه باستقامة نفسه وقلبه إلى الله تعالى، وعبادته وحده، ويريد أن يقوم بحق الله، وكانت ديانة إبراهيم قد جهلت ولا يعرف طريقها إلا قليلا، فكان لا بد أن تصيبه حيرة، حتى يهديه الله تعالى إلى شيء ممّا بقي من دين إبراهيم»[3].

فالنبي لم يسع أبدا إلى النبوة على الرغم من أن كل الدلائل من حوله كانت تشير إلى أنه النبي المنتظر، ولكنه لم يكن على علم بذلك، ولو كان يعرف ذلك لما خاف وارتعد وفزع حينما نزل عليه الوحي لأول مرة، كما جاء في حديث كيفية بدأ الوحي «...فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده، فدخل على عائشة فقال: زملوني، زملوني، فزملوه حتى ذهب عنه الروع...»[4].

---

[1]-هرتويج هيرشفيلد (1854-1934): مستشرق ألماني وباحث يهودي في غاية التعصب ضد الإسلام، حاصل على دكتوراه من جامعة اشتراسبوج، والتي تحمل عنوان "العناصر اليهودية في القرآن"، من أهم كتبه: "نشر كتاب التعريفات لإسحاق الإسرائيلي"، "بحوث جديدة في ترتيب القرآن وتفسيره"، "الإسلام واليهودية". (نجيب العقيقي: مرجع سابق، ج3، ص995. عبد الرحمن بدوي: موسوعة المستشرقين، مرجع سابق، ص609).

[2]-محمد جواد علي: تاريخ العرب في الإسلام، دط، بيروت، دار الحداثة، دت، ص163.

[3]-محمد أبو زهرة: خاتم النبيين، مرجع سابق، ج1، ص275.

[4]-رواه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، كيف كان بدء الوحي، ج1، ص5.

-رواه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان. باب: بدء الوحي، ج1، ص136.

وذكر في الآثار أن الرسول كان يتحنث أي يتعبد في غار حراء الليالي ذوات العدد شهرا من كل عام، يتحنث على عادة المتحنثين (المتعبدين) في قريش، قال محمد بن إسحاق: «كان رسول الله ﷺ يخرج إلى حراء في كل عام شهرا من السنة يتنسك فيه، وكان من نسك قريش في الجاهلية، يطعم من جاءه من المساكين حتى إذا انصرف من مجاورته لم يدخل بيته حتى يطوف بالكعبة»[1].

وقوله في الحديث (والتحنث: التعبد) تفسير بالمعنى وحقيقته من حيث البنية فيما قاله السهيلي هو الدخول في الحِنْثْ، كما تفيد الخروج من ذلك الشيء تتحنث كتحنث أي خرج من الحنث وتحرّج وتأثّم.

وقال ابن الأعربي، إنما هو يتحنث من الحنفية دين إبراهيم عليه السلام[2].

ثالثا: كيفية تلقي الوحي المحمدي

اتبع رودنسون في تفسيره للوحي المحمدي نفس الأسلوب الذي اعتمده جلّ المستشرقين المعاصرين حينما يتناولون مسألة الوحي، فهو يعتقد في صدق النبي محمد ﷺ وأن ما جاء به كان قد سمعه حقا، ولكنه لا يعتقد في أن ما سمعه الرسول حقا قد جاءه من السماء، إذ يقول: «من الصعوبة القول إن محمدا محتال، بل إن الحقائق العلمية والروايات والأسانيد الصارمة تجعلنا نجزم أن محمدا كان صادقا مخلصا»[3]. ثم يضيف «...إن النبي بدأ يمارس حياة الزهد التي هي -إحدى درجات الصوفية- منذ زمن مبكر من حياته، ومن خلال حياته، ومن خلال حياته الزاهدة الرافدة لكل ألوان الملذات والآخذة بأسباب التعبد والصلاة الطويلة والتبتل، فأخذ يتراء له (الكشف) المصحوب بالأصوات المسموعة، وهذه المظاهر الصوتية والمرئية نجدها أيضا لدى المصابين بالأمراض العقلية كالهستيريا وانفصام الشخصية، إلا أن كبار المتصوفين يتعرضون لهذه المظاهر غير العادية ويعتدونها»[4].

---

[1]-ابن كثير: السيرة النبوة، مصدر سابق، ج1، ص390.

[2]-المصدر نفسه، ص391.

[3]-Maxime Rodinson : Op.Cit, P104.

[4]-Ibid, P106.

لقد ذهب رودنسون إلى الاعتقاد بصحة الفرضية التي انطلق منها وهي إنكـــار أن يكون مصدر الأصوات التي كان يسمعها النبي ﷺ مصدرا سماويا، بل هي أصوات تـواءت له بسبب ريادته لطريق التصوف، وجرّاء قيامه بالرياضات الروحية الرامية إلـــى تصفيـة النفس وتنقيتها مما علق بها من الشوائب، والانتقال بها من حال إلى حال حتى وصـل إلـى المرتبة التي حصل له فيها الكشف والإلهام، وهي مقام يتوسط مقام الزهد ومقـــام الاتحـاد والحلول.

فالوحي في نظر هذا المستشرق كان نتيجة للحالة النفسية التي كان عليـــها النبـي محمد ﷺ، وهي حال من القلق والحيرة، وهذا بدوره كان نتيجة مؤشرات عدة، منها الذاتيـة والتي تتعلق بشخصيته كالذكاء والفطنة وصفاء الفطرة وسمو الأخلاق، ومنـــها الاقتصاديـة وهي الناحية التي ركز عليها رودنسون واعتبرها العامل الحاسم في ظهور نبوة محمـد ﷺ، ومنها الاجتماعية كانتشار الفقر وتفشي الفساد وسيطرة الأقوياء على الضعفاء، ومنها الدينيـة بسبب تناقض وفساد الديانات التي كانت سائدة في مجتمعه.

فهذه الأمور مجتمعة كان لها الأثر البالغ على نفسية محمد ﷺ الأمر الذي دفعه إلى العزلة والخلوة في غار حراء، وهناك استطاع أن يؤلف القرآن من إلهامه ومكاشفاته، وإلـى مثل هذا أشار درمنغام الذي يقول: «...ولكن نواة هذه الثورة النفسية لم تظهر في صـــورة إصلاح اجتماعي، بل بدلا من ذلك دفعته إلى اتجاه ديني أعلنه في اعتقاد ثـابت لا يتـأرجح بأنه رسول من الله لينذر أتباعه»[1].

أشار رودنسون إلى الحديث عن زهد الرسول ﷺ وعن تصوفه الذي لم يرق إلـــى درجة تصوف المسيحيين، في حين أن حقائق التاريخ تبين لنا أن التصوف في زمن الرسـول لم يكن قد عرّف بعد هذه المراحل والدرجات، ثم إن التصوف كحركة تهتم بالجانب الروحي في الإسلام، ظهر في منتصف القرن الثالث للهجري، مع المحاسبي (243هـ)، وتبلور فـي

---

[1]-إميل درمنغام، مرجع سابق، ص85.

مرحلة لاحقة مع مدرسة الجنيد (297هـ)، ثم وصل إلى غايته الأخيرة لدى الغزالي (505هـ) [1]، فمن أين أتى بهذه المعلومات والأفكار؟

إن هذه الأمور التاريخية العلمية لا تعني رودنسون في شيء، فالذي يعنيه أولا وأخيرا هو كيف يستدل على فرضيته حول بشرية القرآن وإنكار المصدر الإلهي للوحي المحمدي، أما أن تكون هذه الأدلة صحيحة أو خاطئة فذلك أمر لا يزعجه على الإطلاق.

أما فيما يتعلق بالدرجة التي وقف عندها النبي وهي كما قال تتوسط مقام الزهد ومقام الحلول والاتحاد، فهذا الكلام يوحي إلى وجود أشخاص من الصوفية تفاضلوا على النبي وامتازوا عليه حينما وصلوا إلى المرحلة الأخيرة وإلى الغاية المنشودة من التصوف وهي التجلي والحلول.

فهذا الرأي يعود في الأصل إلى الصوفية ذات الاتجاه المغالي أو المنحرف، والتي تقول بأفضلية الأولياء عن الأنبياء، وهو قول مرفوض ومردود من قبل الإسلام الذي حارب بشدة مثل هذه الأفكار الغريبة عنه في العديد من الآيات القرآنية. وأبقى على التصوف المعتدل أو ما يعرف بالتصوف السني الذي يمثل بحق الحياة الروحية كما جاء بها الإسلام.

وهناك ملاحظة أخرى وهي لو كان الرسول قد تأثر حقا بالزهد الموجود في المسيحية لكان قد التزم بقواعده ولما أقدم على الزواج البتّة[2]، لكن الرسول كان يحيا حياة طبيعية ككل أفراد قومه له أسرة، وله أولاد، وله عمل يرتزق منه، وكل ما فعله هو أن نفسه الزكية وأخلاقه الكريمة أبت إلا أن تترفع عن السخافات والعبث الذي يمارسه معظم سكان المدينة وكل شباب القوم.

وفي موضع آخر من كتابه (محمد) يقول رودنسون: «لو أن محمد قد شعر مخلصا بان الأصوات التي سمعها وتلقاها آتية له من الله، وقد تعوّد استقبال هذا الوحي كيفما كان يأتيه، ولا يمكن الشك في صدق محمد وإخلاصه»[3].

وبقوله هذا يكون قد التحق بالمستشرقين القائلين بالوحي النفسي.

---

[1]-عبد القادر محمود: مرجع سابق، ص54.

[2]-نفس الفكرة أشار إليها ساسي الحاج في كتابه "الظاهرة الاستشراقية في الدراسات العربية والإسلامية"، ص50.

[3]-Maxime Rodinson : Op.Cit, P252.

إذن، بهذه الكيفية، تناول المستشرقون المعاصرون ذووا الاتجاه العلمي موضوع الوحي والنبوة، وهي كيفية -كما رأينا- لا تعكس مطلقا ذلك التوجه العلمي الذي يتحدثون به في كل مناسبة تتاح لهم. ولو رجعنا بذاكرتنا إلى مفهوم المنهج ووظيفته لوجدنا أن المنهج قد عيِّبَ تماما في تحليله لهذا الموضوع.

ذلك أن موضوع الوحي والنبوة من الحقائق التي لا سبيل إلى معرفتها إلا من طريق الوحي، فهذه الحقيقة وطبقا لتميزها عن الحقائق الأخرى ينبغي أن تتميز أيضا في طريقة تفسيرها.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الخـــاتـــمـــة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

طبق المستشرقون في تحليلهم وتفسيرهم للنبوة والوحي في العقيدة الإسلامية نوعين من المناهج هما المنهج التشكيكي، ومن مستخدميه اتخذنا المستشرق المسيحي منتغمري وات كنموذج والمنهج الماركسي، الذي اتخذنا المستشرق الملحد ماكسيم رودنسون كنموذج أيضا.

فالمنهج التشكيكي الذي تبنى معياري الأصل والتأثير، انصبت جهوده على البحث عن الأشباه والنظائر التي حاولوا ربطها بما سبقها من الديانات والعقائد عملا بمنطق تبعية اللاحق للسابق. والمنهج الماركسي الذي اعتمد على الأسس المادية، فربط ظهور نبوة محمد ﷺ بالظروف الاجتماعية والاقتصادية للمجتمع المكي، وتوصل إلى أن الدعوة التي قام بها النبي ﷺ ما كانت لتوجد أصلا لولا تدهور الوضع الاجتماعي والاقتصادي لأكثرية سكان مكة وما جاورها. وعملا بمنطق المادية التاريخية، فإن النصر حتما سيكون لصالح تلك الدعوة الإصلاحية التي جاءت لتقوض دعائم النظام الجاهلي والقضاء عليه.

وكما رأينا، فإن كلا المستشرقين قد توصلا إلى نتيجة واحدة وهي نفي المصدر الإلهي للقرآن الكريم، ونفي نبوة محمد ﷺ، على الرغم من الاختلاف العقائدي بينهما، فالأول مؤمن يعترف بوجود الله وبوجود مصدر غيبي للمعرفة ممثلا في الوحي، والثاني ماركسي ملحد لا يؤمن بوجود الله، ولا يعترف بوجود مصدر آخر للمعرفة غير طريق الحواس، وهو نفس التفسير الذي وصلت إليه إسهامات المستشرقين في القرون الوسطى، ولكن بطرح جديد بعيد عن أسلوب الحدة والعنف والمواجهة.

ونرى أن السبب في إصرار المستشرقين المعاصرين على التمسك بتلك الأحكام بالرغم من تغير الظروف السياسية التي نتج عنها تطور في الموقف الغربي من الإسلام، وما رافق هذا من تطور في ميدان العلوم الإنسانية، وظهور فئة من المستشرقين الذين اعترفوا بأخطاء أسلافهم وبتحاملهم على الإسلام، يرجع إلى وجود عقبات ثلاث تعوقهم عن الوصول إلى نتائج علمية صحيحة.

1- أن المستشرقين باعتبار غالبيتهم من اليهود والنصارى، انتهجوا في دراستهم لنبوة محمد ﷺ منهجا يعكس بصورة جلية وواضحة مفهومهم للوحي، ذلك المفهوم الذي يقربه من مدلول الكشف والإلهام الذي عادة ما يحصل للعارفين والواصلين عن طريق الرؤية

أو المنام، وهو المفهوم ذاته الذي أرادوا أن يسقطوه على الوحي الذي كان ينزل على الرسول ﷺ.

2- أن المرجعية الفكرية التي ينطلق منها المستشرقون في فهمهم لنبوة محمد ﷺ لا يمكن أن تقدم لنا مفهوما صحيحا لمعنى النبوة في الإسلام. ذلك أنها تنطلق من فلسفات وضعية تنكر الوحي وتقدس العقل والمادة، وعليه فهي قاصرة على إدراك المفاهيم الدينية التي ترمز في نظرها إلى المرحلة الأولى من تاريخ الفكر الإنساني، وهي مرحلة التفكير البدائي الساذج التي كان فيها الإنسان يلجأ إلى التفسير الغيبي للظواهر المحيطة به، بسبب جهله وعجزه عن معرفة الأسباب الحقيقية لها. أما الآن وقد وصل العقل إلى المرحلة الوضعية التي بلغ فيها قمة التطور والتقدم، فيجب أن تختفي تلك التفسيرات الغيبية، ويختفي معها الدين وكل ما له صلة بالعالم الغيبي (الماورائي).

لقد كان لهذا التصور الإلحادي نتائجه الخطيرة على المستشرقين المعاصرين -ذوي الاتجاه العلمي- الذين تشكلت قناعة لديهم بضرورة بحث وتحليل موضوع "النبوة في الإسلام" بعيدا عن المجال الماروائي، بل يجب أن تبحث وتناقش في إطار الظواهر الاجتماعية التي لها أسبابها ودوافعها التي حتمت ظهورها في تلك الفترة بالذات.

ولذلك صُنف النبي ﷺ ضمن المصلحين والعظماء الذين حفظت لهم ذاكرة التاريخ ما قاموا به من مهام ومن جلائل الأعمال، وإن كانوا قد منحوا لنبي الإسلام مكانة أسمى، فهو بطل الأبطال وقائد القواد، والأول على قائدة سلسلة الأبطال والعظماء. كل ذلك لأنه -في نظرهم- استطاع أن يؤسس دينا وأن ينشئ دولة بمفرده وبمجهوده الخاص.

3- طبيعة الدين الإسلامي التي لا تقبل التجزئة أو الانقسام، فالإسلام الذي جمع بين المادة والروح يستحيل أن تتم دراسته أو دراسة أحد عناصره باستعمال منهج مادي صرف يخضع كل شيء للمعايير المادية التي لا تتفق وطبيعة الموضوع المبحوث وهو النبوة، وأن أية محاولة من هذا القبيل محكوما عليها بالفشل. ذلك أن النبوة كما هو معلوم من الأمور السمعية (السمعيات) التي نحتاج في معرفتها إلى الأنبياء الذين يقومون بوظيفة الإخبار والتبليغ عن الله ﷻ.

وعليه فإن الباحث في هذا النوع من المواضيع يحتاج إلى منهج خاص؛ أي إلى منهج يقر بوجود نوع آخر من المعرفة تأتي من غير طريق الحواس، ويعترف بالخصائص الأساسية المكونة لموضوع النبوة وهي الوحي والمعجزة ووجود الملك المرسل.

وبسبب هذا الاختلاف بين طبيعة الموضوع (النبوة) ومناهج البحث، وقع الخلل والخطأ -كما رأينا- في النتائج التي توصل إليها المستشرقون، ومن هنا يتضح لنا قصور المناهج الاستشراقية عن إدراك ومعرفة حقيقة النبوة في العقيدة الإسلامية.

4- إننا قد نجد بعض العذر لهؤلاء الباحثين -ذوو الاتجاه العلمي- الذين لم يُوفقوا في الوصول إلى نتائج علمية صحيحة بسبب موروثاتهم العقدية والثقافية والاجتماعية، والتي لم يستطيعوا الفكاك عنها. ولكن هذا العذر يزول إذا اتجهنا إلى دراسة الأدوات المستعملة في تفسيرهم لنبوة محمد ﷺ -وقد ذكرنا معظمها-، فهي في نظرنا ليست أسلوبا يحاول الكشف عن الحقيقة، بل كانت بمثابة معاول هدم أتت على البحث الاستشراقي من الأساس. فإن كان توفر واحدة من هذه الأدوات في أي بحث سينقص من القيمة العلمية لهذا البحث، فما بالنا إذا اجتمعت كل هذه الأدوات في بحث واحد هو موضوع النبوة في الإسلام.

ومن هنا فإن التصريحات والاعترافات التي يدلون بها في مقدمة كل كتاب يتناولون بالبحث فيه الحديث عن الإسلام، والتي تتحدث عن موضوعيتهم وحيادهم وسعيهم للبحث عن الحقيقة لا غير لا أساس لها من الصحة حينما يتعرضون للحديث عن نبوة محمد ﷺ.

ولا يسعنا في ختام هذا البحث إلا أن نقول بأننا ما زلنا نفتقد إلى التحكم في آليات وطرق وأدوات البحث العلمي الأكاديمي، وذلك بسبب نقص التجربة في هذا المجال، فإن وفقنا فذلك ما نرجوه، وإن أخطأنا فيكفينا أننا بذلنا ما استطعنا ولا يكلف الله نفسا إلى وسعها.

كما نرجو أن تكون مادة هذا البحث حافزا لظهور بحوث ودراسات أكثر دقة لتكشف عن مناهج المستشرقين في جوانب أخرى من جوانب العقيدة الإسلامية.

الفهـــــارس

أولا: فهـــرس الآيـــــــات

ثانيا: فهـــرس الأحـــاديـــث

ثالثا: فهـــرس الآثـــــار

رابعا: فهـــرس الأعـــــلام

خامسا: فهرس المصادر والمراجع

سادسا: فهرس الموضـــوعات

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أولا: فهرس الآيات

الآية	الرقم	الصفحة
-البقرة-		
-﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ...﴾	10	137
-﴿وَإِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ...﴾	23	31
-﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ...﴾	42	227
-﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا...﴾	62	156
-﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ...﴾	87	52
-﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ...﴾	10	137
-آل عمران-		
-﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ...﴾	33	21
-﴿ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ...﴾	44	32
-﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَامَرْيَمُ...﴾	45	202
-﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ...﴾	59	157، 202
-﴿قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ...﴾	64	52
-﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾	191-190	142
-النساء-		
-﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ...﴾	58	138
-﴿يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ...﴾	171	52، 157
-المائدة-		
-﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ...﴾	3	138
-﴿فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ...﴾	3	138

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

-﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ...﴾	17	202
-﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا...﴾	48	141
-﴿وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ...﴾	49	138
-﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ...﴾	69	156
-﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ...﴾	111	4
-الأنعام-		
-﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا...﴾	90	166
-﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ...﴾	94-93	200
-﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ...﴾	103	226
-﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ...﴾	112	3
-﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ...﴾	121	4
-﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي...﴾	162-161	24
-﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى...﴾	164	157
-الأعراف-		
-﴿يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ...﴾	139-138	30
-﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ...﴾	172	60
-﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا...﴾	179	92
-يونس-		
-﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا...﴾	64	38
-﴿قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾	101	15
-هود-		
-﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ...﴾	49	33

-يوسف-		
-﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ...﴾	102	33
-النحل-		
-﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ...﴾	2	4
-﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ...﴾	68	3
-﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ...﴾	102	226
-﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ...﴾	103	152
-الإسراء-		
-﴿وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً...﴾	59	30
-﴿قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتْ الْإِنسُ وَالْجِنُّ...﴾	88	31
-﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنْ الْأَرْضِ...﴾	93-90	31، 196
-مريم-		
-﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنْ الْمِحْرَابِ...﴾	11	3
-﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا...﴾	17	226
-طه-		
-﴿فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ...﴾	87-86	191
-الأنبياء-		
-﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ...﴾	18	227
-﴿وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا...﴾	36	196
-الحج-		
-﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ...﴾	17	156
-﴿وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ...﴾	25	58

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

-﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ...﴾	52	22
-﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ...﴾	75	21
-المؤمنون-		
-﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ...﴾	203-101	200
-الفرقان-		
-﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ...﴾	1	166
-﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ...﴾	5	230
-﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ...﴾	7-4	152
-﴿لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ...﴾	7	196
-الشعراء-		
-﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ...﴾	195-192	7
-﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ...﴾	194-193	226
-النمل-		
-﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ...﴾	59	21
-القصص-		
-﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى...﴾	7	4
-﴿وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي...﴾	9	191
-﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ...﴾	31-30	7
-العنكبوت-		
-﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ...﴾	46	199
-﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ...﴾	48	229

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

-العنكبوت-		
-﴿الم. غُلِبَتْ الرُّومُ...﴾	4-1	33
-﴿أولَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أنفُسِهِمْ...﴾	8	15
-لقمان-		
-﴿ولَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ...﴾	25	59، 154
-سبأ-		
-﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ...﴾	28	166
-الصافات-		
-﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَابُنَيَّ...﴾	105-102	6
-الزمر-		
-﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ...﴾	3	59
-﴿ولَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾	71	227
-فصلت-		
-﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً...﴾	13	32
-﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ...﴾	26	32
-﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ...﴾	37	59
-﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا...﴾	40	59
-الشورى-		
-﴿مَا وَصَّى...﴾	13	207
-﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ...﴾	51	4، 5، 8
-﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا...﴾	52	4، 22، 52

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

-الزخرف-		
-﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ...﴾	32-31	233
-الفتح-		
-﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ...﴾	27	8
-الحجرات-		
-﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى...﴾	13	233
-الطور-		
-﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ...﴾	37-29	32
-النجم-		
-﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى...﴾	10-1	176
-﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى...﴾	18-3	225
-﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى...﴾	49	59، 155
-القلم-		
-﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ...﴾	5-1	220
-﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾	52	166
-المدثر-		
-﴿يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ...﴾	2-1	220
-﴿يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ. قُمْ فَأَنْذِرْ...﴾	3-1	221
-الضحى-		
-﴿وَالضُّحَى. وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾	2-1	220
-﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى...﴾	8-6	24

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

-العلق-		
-﴿اقرأ باسم ربّك الذي خلق...﴾	2-1	221
-﴿اقرأ باسم ربّك الذي خلق...﴾	5-1	10
-الزلزلة-		
-﴿بأنّ ربّك أوحى لها﴾	5	4
-﴿فمن يعمل مثقال ذرّة خيرًا يره...﴾	8-7	157

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ثانيا: فهرس الأحاديث والآثار

الحديث	الصفحة
-أ-	
[...وأكثر ما كنت أراه على صورة...]	7
[أرأيتكم لو أخبركم أن خيلا بالوادي...]	28
[إنّ أول ما بدئ به رسول الله ﷺ ...]	6
[إن روح القدس نفث...]	6
[أن عمر بن الخطاب قال لرجل ما...]	18
[أنتم أعلم بأمور دنياكم...]	138
-ب-	
[بينما هو يلعب مع الغلمان...]	25
-ر-	
[الرؤيا ثلاث رؤيا من الله...]	37
[الرؤيا جزء من أربعين جزء من النبوة...]	38
-ت-	
[تقتلك الفئة الباغية...]	33
-س-	
[سأل هرقل أبا سفيان...]	26
-ف-	
[فأخبره رسول الله ما رأى...]	185
[فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده...]	10، 238
[فقال رسول الله ﷺ فجاءني وأنا نائم...]	255
[فلقد رأيته ينزل عليه الوحي...]	8

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

-ق-	
[قال رسول الله ﷺ بينما أنا أمشي...]	221، 224
[قد التبس علينا أمر محمد...]	31
-ك-	
[كان رسول الله ﷺ يخرج إلى حراء...]	239
[كان رسول الله ﷺ يوم بدر..]	9
[كان رسول الله ﷺ يوما في بدر...]	9
[كان لنا جار من يهود ...]	99
-ل-	
[لم يبق من النبوة إلا المبشرات...]	38
-م-	
[ما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية...]	25
[من كتب عني غير القرآن فليمحه...]	9
-و-	
[والله ما منكم أحد أعلم...]	31
[ولو كنت أعلم أن نبيا يبعث...]	28
-ي-	
[يا سارية الجبل الجبل...]	18

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ثالثا: فهرس الأعلام

العلم	الصفحة
-أ-	
إدوارد سعيد	75، 78، 106
آربري	159
آرنولد توماس	165، 166
ابن إسحاق	227
ألبرايت. و.ف	145
إيداك.ج	183
انجلز	66
-ب-	
باديس عبد الحميد	111
بارت رودي	82
بارتملي	104
باكون روجر	143
بانتنبج فريدريك جرانت	217
بترجاي	127
بدوي عبد الرحمن	142
بروكلمان كارل	150، 198
بلاشير ريجي	201، 229
بلديك جوليان	201، 204
بن ميمون موسى	44
بنسالم حميش	99
البهي محمد	67، 139

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

بوست جورج	47، 218
البوطي سعيد رمضان	05
بوقر شارلز فرنسيس	145
بولس الرسول	54
بولين	215
البيجوري	21
بيكون روجر	91
بيل	226
-ت-	
ترينون	172
تزيني الطيب	106
توريز	190
التونسي خير الدين	111
تيخونوفا	113
-ج-	
الجبري عبد المتعالي	81
جريم هربت	232
الجمل شوقي عطا الله	93
الجندي أنور	173
جودي أغناطيوس	77
جورافيسكي الكسي	194، 197
جورفسكي أليكس	88، 90
جويني ارنولد	110
جيب هاملتون	104

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ابن جبير	235
-حـ-	
حتي قليب	204
الحداد	187
ابن حزم	21
حسنين طه	193، 98
-خـ-	
الخطيب عبد الكريم	187
ابن خلدون	14، 37، 38، 45
خليفة محمد خليفة حسن	188
خيون فريجتوف	151
-د-	
داروين تشارلز	133، 134، 135
دانيال نورمان	158
درمنغام إيميل	89، 202
دقوت	96
الدمشقي يوحنا	197
دوركايم إميل	129
ديكارت	141، 148
ديورانت ويل	40، 44، 56، 181
-ر-	
الرافعي مصطفى صادق	33
راكوبرت روفس	94
رضا محمد رشيد	186، 218

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ابن رفش سلامة	199
رودنسون ماكسيم	88، 101، 121، 122، 168، 209، 230، 235، 236، 237، 240، 241
رينان ارنست	74
-ز-	
زكريا فؤاد	125
أبو زهرة محمد	49، 202
زيهر جولد	136، 156، 166، 180، 198
-س-	
السامرائي قاسم	75، 96
السباعي مصطفى	77، 83
سبينوزا	41، 44، 45، 144، 148
ستروك جان	144
سخاو	166
سميث كلنسي جوليا	112
-ش-	
شاينر لاري	125
شنكال	82
-ص-	
الصالح صبحي	47، 199
صديقي عبد الحميد	162
-ط-	
طاليس	63

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

-ع-	
عبد الحميد عرفان	117
عبد الرازق علي	98
عبد الله عبد الرزاق إبراهيم	93
عبد الوهاب محمد	111
عبده محمد	111
عبود عبد الغاني	55
عروة أحمد	129
العسقلاني بن حجر	228
علي جواد	186
-غ-	
غابرييلي	97
غرونباوم فون	101
-ف-	
الفارابي محمد	13
فريد لي	17
فلهاوزن يوليوس	145، 165
فلوور	209
فوجت	16
فوروهلت طوماس	124
فوك. ج	214
فولتير	218
فيلهاوزن يوليوس	231
فيورباخ	129

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفيومي إبراهيم	61، 85، 153، 157
قرافز مرتمر	107
قسوم عبد الرزاق	37
قنواتي جورج	121
-ك-	
ابن كمونة	35، 39، 55
كاريل أليكسيس	20
كامبيل	25، 26
كامبيل	126
كروازيه	19
كريسون أندري	131
كليمانص الخامس	93
كونت أوغست	129، 129، 130، 144
كونفورث	161
كوهين دافيد	104
-ل-	
لاندو روم	234، 235
لوبون جوستاف	75، 92، 99، 152، 183، 208
لويس بيرنارد	158
لينين	65
-م-	
مارسيل	96
ماركس كارل	160، 161، 162، 168
ماركوس مارجريت	110

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الماوردي أبو الحسن	22
مرجليوث	104
المسيري عبد الوهاب	126
ماسينيون لويس	104، 119
منتغمري وات	149، 151، 164، 198، 209، 210، 213، 214، 215، 216، 219، 224، 226، 228
موسى سلامة	124
مولكوفسكي	96
مولوتوف	78
مونج	96
ميكوبات	105
-ن-	
نابليون	96
ابن نبي مالك	75
نولدكه	165، 166
نيكلسون	104، 236
-هـ-	
هادفيلد. ج.هـ	217
هايسلوب جيمس	19
الهراوي حسن	91
هرماس عبد الرزاق	120
هوار كليمار	192
هيجل	168
هيراقليطس	63

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

هيرشفيلد	238
هيز	67
-و-	
وايغا هوراس	210
وجدي محمد فريد	217
ويلز موريس	51
-ي-	
يونج كارل	18، 210
يويو عبد الحميد	81

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

قائمة المصادر والمراجع

أولا: القرآن الكريم

ثانيا: كتب التفاسير

1. الرازي محمد، تفسير الفخر الرازي (التفسير الكبير ومفاتيح الغيب)، ط1، بيروت، دار الفكر، (1401هـ-1981م).
2. الطبري بن جريري، تفسير الطبري (جامع البيان في تفسير القرآن)، ط1، بيروت، دار الفكر، (1398هـ-1978م).
3. بن عاشور محمد الطاهر، التحرير والتنوير، دط، تونس، الدار التونسية للنشر، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب.

ثالثا: كتب الحديث

4. الألباني محمد ناصر، سلسلة الأحاديث الصحيحة، دط، الرياض، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، (1415هـ-1995م).
5. الإمام مالك، الموطأ، إعداد: أحمد راتب عكرموش، ط10، دب، دار النفائس، (1407هـ-1987م).
6. البخاري محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، دط، دار الفكر، (1401هـ-1981م).
7. الحاكم أبو عبد الله ، المستدرك على الصحيحين في الحديث، دط، بيروت، دار الكتاب العربي، دت.
8. العجلوني إسماعيل بن محمد، كشف الخفاء ومزيل الالتباس عما اشتهر من الحديث على ألسنة الناس، أشرف على طبعه وتصحيحه والتعليق عليه: أحمد القلاش، ط4، بيروت، مؤسسة الرسالة، (1405هـ-1985م).
9. ابن ماجه أبو عبد الله، سنن ابن ماجه، دط، دب، دار الفكر، دت.
10. مسلم أبو الحسين، صحيح مسلم، دط، بيروت، دار الفكر، دت.
11. النسائي أبو عبد الرحمن، سنن النسائي، دط، بيروت، دار الكتاب العربي، دت.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

رابعا: كتب العقيدة

12. الأصفهاني الراغب، الاعتقادات، تحقيق: شمران العجلي، ط1، بيروت، مؤسسة الأشراف، 1988.

13. أعوشت بكير سعيد، القرآن ومذهب داروين، ط1، قسنطينة، دار البعث للطباعة والنشر، (1404هـ-1989م).

14. الإيجي عضد الدين، المواقف في علم الكلام، دط، القاهرة، مكتبة المتنبي، دت.

15. البوطي محمد سعيد رمضان، كبرى اليقينيات الكونية، ط8، دمشق، دار الفكر، 1402هـ.

16. البيجوري إبراهيم بن محمد، شرح جوهرة التوحيد، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية، 1903.

17. جعفر محمد كمال، الإنسان والأديان، ط1، الدوحة، دار الثقافة، 1985.

18. الجويني أبو المعالي ، الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد، تحقيق: أسعد تميم، ط1، بيروت، مؤسسة الكتب الثقافية، 1985.

19. ابن حزم علي بن محمد، الفصل في الملل والأهواء والنحل، تحقيق: محمد إبراهيم نصر، عبد الرحمن عميرة، ط1، المملكة العربية السعودية، مكتبة عكاظ، 1982.

20. الرازي الفخر، محصلة أفكار المتقدمين والمتأخرين من العلماء والحكماء والمتكلمين، دط، دب، مكتبة الكليات الأزهرية، دت.

21. رضا محمد رشيد، الوحي المحمدي، دط، الجزائر، دار الكتب، (1408هـ-1988م).

22. الزرقاني محمد عبد العظيم، مناهل العرفان في علوم القرآن، دط، لبنان، دار الفكر، 1988.

23. السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، دط، دب، دت.

24. الصالح صبحي، مباحث في علوم القرآن، ط17، بيروت، دار العلم للملايين.

25. عروة أحمد، العلم والدين، المناهج والمفاهيم، ط1، دمشق، دار الفكر، 1987.

26. الغزالي محمد، عقيدة المسلم، دط، باتنة، دار الشهاب، 1985.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

27. الماوردي أبو الحسن، أعلام النبوة، ضبط نصه وعليق عليه: الشيخ خالد عبد الرحمن العك، ط4، دب، دار النفائس، 1994.

28. بن نبي مالك، الظاهرة القرآنية، ط4، دمشق، دار الفكر، 1997.

خامسا: كتب السيرة

29. أحمد إبراهيم خليل، محمد ﷺ في التورات والإنجيل والقرآن، ط5، مصر، دار الجيل للطباعة، 1983.

30. إدريس جعفر شيخ، منهج منتغمري وات في دراسة نبوة محمد ﷺ -ضمن مناهج المستشرقين في الدراسات العربية والإسلامية-، المنظمة الوطنية للتربية والثقافة والعلوم، 1985.

31. خليل عماد الدين، دراسة في السيرة، ط6، بيروت، دار النفائس، 1982.

32. دورزة محمد، سيرة الرسول ﷺ، دط، بيروت، المكتبة العصرية، دت.

33. أبو زهرة محمد، خاتم النبيين، دط، صيدا، بيروت، المكتبة العصرية، 1979.

34. السحار عبد الحميد جودة، أضواء على السيرة النبوية ومقارنة الأديان، دط، مصر، دار مصر للطباعة، 1992.

35. ابن كثير، السيرة النبوية، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، دط، بيروت، دار الفكر، (1398هـ-1978م).

36. هيكل محمد حسين، حياة محمد، ط9، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، 1965.

37. وجدي محمد فريد، السيرة النبوية نحن ضوء العلم والفلسفة، ط1، القاهرة، الدار المصرية اللبنانية، 1993.

سادسا: كتب الفلسفة

38. إمام عبد الفتاح، المنهج الجدلي عند هيجل، ط2، القاهرة، دار المعارف، 1985.

39. ديكارت رينيه، مقال عن المنهج، ترجمة: محمود محمد الخضيري، ط3، مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1985.

40. رينان أرنيست، ابن رشد والرشدية، تر: عادل زعيتر، وعيسى البابي الحلبي، دط، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، 1957.

41. زقزوق محمود حمدي.

- المنهج الفلسفي بين الغزالي وديكارت، ط3، الكويت، دار القلم، 1983.
- دراسات في الفلسفة الحديثة، ط3، القاهرة، دار الفكر العربي، 1993.

42. سبينوزة، رسالة في اللاهوت والسياسة، تر: حسن حنفي، فؤاد زكريا، ط3، بيروت، دار الطليعة، 1994.

43. الفارابي أبو نصر، آراء أهل المدينة الفاضلة، تحقيق: ألبير نصري نادر، ط1، بيروت، المطبعة الكاثوليكية، 1959.

44. كريسون أندري، تيارات الفكر الفلسفي، تر: نهاد رضا، ط2، بيروت، منشورات البحر المتوسط، منشورات عويدات، باريس، 1982.

45. محمود عبد القادر، دراسات في الفلسفة الدينية والصوفية والعلمية، دط، دب، دار الفكر، 1978.

46. ميمون الربيع، مشكلة الدور الديكارتي، ط2، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1982.

سابعا: كتب التاريخ

47. الجمل شوقي عطاء الله، وإبراهيم عبد الله عبد الرزاق، تاريخ أوروبا الحديثة والمعاصرة، دط، القاهرة، دار الثقافة، 1995.

48. ابن خلدون، مقدمة ابن خدون، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية، 1993.

49. خليل عماد الدين، التفسير الإسلامي للتاريخ، ط5، بيروت، دار العلم للملايين، 1991.

50. زيدان جورجي، تاريخ آداب اللغة العربية، دط، بيروت، منشورات دار مكتبة الحياة، 1983.

51. سالم عبد العزيز، تاريخ العرب قبل الإسلام، دط، مصر، شباب الجامعة الإسكندرية، دط.

52. شلبي أحمد، موسوعة التاريخ الإسلامي، مكتبة النهضة، ط13، القاهرة، 1988.

53. عاشور عبد الفتاح، حضارة ونظم أوروبا في العصور الوسطى، دط، بيروت، دار النهضة العربية، 1976.

54. عثمان فتحي، التاريخ الإسلامي والمذهب المادي في التفسير، ط1، الكويت، الدار الكويتية للطباعة والنشر، 1969.

55. علي محمد جواد، تاريخ العرب في الإسلام، دط، بيروت، دار الحداثة، دت.

56. الفيومي محمد إبراهيم، في الفكر الديني الجاهلي، ط3، القاهرة، دار المعارف، 1982.

57. الفيومي محمد إبراهيم، في الفكر الديني الجاهلي، ط3، القاهرة، دار المعارض، (1402-1983م).

58. نسيم جوزيف، دراسات في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، الإسكندرية، شباب الجامعة، 1988.

59. ويل ديورانت، قصة الحضارة، تر: زكي نجيب محمود، دط، بيروت، دار الجيل، دت.

ثامنا: كتب الاستشراق

60. أرنولد توماس، الدعوة إلى الإسلام، تر: حسين إبراهيم حسن، عبد المجيد عابدين، ط2، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، 1957.

61. بروكلمان كارل، تاريخ الشعوب الإسلامية، تر: نبيه أمين فراس، منير البعلبكي، ط3، بيروت، دار العلم للملايين، 1960.

62. بنسالم حميش، الاستشراق في أفق انسداده، ط1، الرياض، منشورات المجلس القومي للثقافة، 1991.

63. الجبري عبد المتعال محمد، الاستشراق وجه للاستعمار الفكري، القاهرة، مكتبة وهبة، 1995.

64. جورافيسكي أليكسي، الإسلام والمسيحية، ترجمة: خلف محمد الجراد، دط، الكويت، 1996.

65. الحاج ساسي، الظاهرة الاستشراقية وأثرها في الدراسات الإسلامية، ط3، طرابلس، الجامعة المفتوحة، 1997.

66. خالدي مصطفى، عمر فروخ، التبشير والاستعمار في البلاد العربيـــة، دط، صيـــدا، بيروت، منشورات المكتبة العصرية، 1986.

67. أبو خليل شوقي، الإسقاط في مناهج المستشـــرقين والمبشـــرين، ط1، بـــيروت، دار الفكر، (1416هـــ-1995م).

68. خليل عماد الدين، المستشرقون والسيرة النبوية، الدوحة، دار الثقافة، 1989.

69. درمنغام إيميل، حياة محمد، تر: عادل زعيتر، ط2، دب، دار إحياء الكتب العربـــي، 1949.

70. الزيادي محمد فتح الله، انتشار الإسلام وموقف المستشرقين منه، ط1، بـــيروت، دار قتيبة، 1990.

71. زيهر جولد، العقيدة والشريعة في الإسلام، تر: محمد يوسف موسى وآخـــرون، دط، بيروت، دار الرائد العربي، 1910.

72. السامرائي قاسم، الاستشراق بيـــن الموضوعيـــة والافتعاليـــة، ط1، منشـــورات دار الرفاعي، 1983.

73. السباعي مصطفى، الاستشراق والمستشرقون، ط2، بـــيروت، مطبوعـــات المكتـــب الإسلامي، 1979.

74. سعيد إدوارد، الاستشراق في: المعرفة- السلطة- الإنشاء، ترجمة: كمال أبو ديـــب، ط2، بيروت، مؤسسة الأبحاث العربية، 1984.

75. سميلوفيتش أحمد، فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر، القاهرة، دار الفكر العربي، (1418هـــ-1992م).

76. الشرقاوي عبد الله، الإسقاط -دراسة تحليلية تقويمية-، دط، القاهرة، كلية دار العلوم، 1992.

77. الشرقاوي محمد عبد الله، الاتجاهات الحديثة في دراسة التصوف الإسلامي (مصادره وآثاره)، دط، القاهرة، كلية دار العلوم، 1993.

78. شلبي عبد العزيز، رد مفتريات المبشرين علـــى الإســـلام، ط2، الريـــاض، مكتبـــة المعارف، 1985.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

79. صبرة عفاف، المستشرقون ومشكلات الحضارة، دط، مصر، دار النهضة العربية، 1985.

80. عبد الحميد عرفان، المستشرقون والإسلام، ط2، دمشق، المكتب الإسلامي، دت.

81. العقيقي نجيب، المستشرقون، ط4، القاهرة، دار المعارف، 1980.

82. فريجتوف خيون، كيف نفهم الإسلام، ترجمة: عفيف دمشقية، ط2، بيروت، دار الآداب، 1984.

83. الفيومي إبراهيم، الاستشراق رسالة استعمار، دط، مصر، دار الفكر العربي، (1413هـ-1993م).

84. لوبون جوستاف، حضارة العرب، تر: عادل زعيتر، ط4، دب، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، دت.

85. مجموعة من العلماء، مناهج المستشرقين في الدراسات العربية والإسلامية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، 1985.

86. مغلي محمد بشير، مناهج البحث في الإسلاميات لدى المستشرقين وعلماء الغرب، رسالة ماجستير، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، معهد أصول الدين، قسنطينة، 1990.

87. الميداني حبنكة، أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها، التبشير- الاستشراق- الاستعمار، ط7، دمشق، دار العلم، دت.

88. وات منتغمري، الفكر السياسي الإسلامي، ترجمة: أحمد أمين، دط، القاهرة، مكتبة مدبولي، 1983.

89. وات منتغمري، محمد في مكة، ترجمة: عبد الرحمن الشيخ، حسين عيسى، دط، مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2002.

90. يوسف جوزيف نسيم، دراسات في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، دط، الإسكندرية، شباب الجامعة، 1988.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

تاسعا: كتب علم النفس

91. جابر عبد الحميد، علاء الدين كفافي، معجم علم النفس والطب النفسي، دط، القاهرة، دار النهضة العربية، 1993.

92. ربيع محمد شحاتة، تاريخ علم النفس ومدارسه، القاهرة، دار الصحوة للنشر، 1996.

93. عبيد رؤوف، الجديد في التكوين الروحي والسلوكي، دط، دب، دار الفكر العربي، 1982.

94. عويضة كامل محمد، علم نفس الشخصية، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية، 1996.

95. لابلانش جان، ج.ب.بونتاليس، معجم مصطلحات التحليل النفسي، ترجمة: مصطفى حجازي، ط2، لبنان، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، (1407هـ-1987م).

عاشرا: كتب في مقارنة الأديان

96. الكتاب المقدس، دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط، 1989.

97. أحمد محمد خليفة حسن، تاريخ الديانة اليهودية، ط1، القاهرة، دار قباب، 1990.

98. حموي صبحي اليسوعي، معجم الإيمان المسيحي، دط، بيروت، دار المشرق، دت.

99. أبو زهرة محمد، محاضرات في النصرانية، الجزائر، شركة الشهاب، 1989.

100. شاهين مصطفى، النصرانية تاريخا وعقيدة، دط، القاهرة، دار الاعتصام، 1991.

101. شلبي أحمد. المسيحية، ط8، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، 1984.

102. الطهطاوي محمد عزة، النصرانية في الميزان، ط1، دمشق، دار القلم، 1995.

103. عبد المنعم فؤاد، أبحاث في الشرائع اليهودية والنصرانية والإسلام، دط، الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، (1414هـ-1994م).

104. عبود عبد الغني، المسيح والمسيحية والإسلام، ط1، دب، دار الفكر العربي، 1984.

105. ابن كمونة سعد بن منصور، تنقيح الأبحاث للملل الثلاث، اليهودية، المسيحية، والإسلام، دط، القاهرة، دت.

106. نخبة من الأساتذة، قاموس الكتاب المقدس، ط10، القاهرة، دار الثقافة، دت.

107. الهواري محمد، الختان في اليهودية والمسيحية والإسلام، ط1، القاهرة، دار الهاني للطباعة والنشر، (1407هـ-1987م).

108. ويلفنسون، إسرائيل، موسى بن ميمون، حياته ومصنفاته، ط1، دب، مطبعة لجنة التأليف والنشر، 1936.

حادي عشر: كتب عامة

109. الباهي محمد، الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، ط2، بيروت، دار الفكر، 1973.

110. بدر أحمد، أصول البحث العلمي ومناهجه، ط5، دار المعارف، 1989.

111. بدوي عبد الرحمن، مناهج البحث العلمي، القاهرة، دار النهضة العربية، 1963.

112. البوطي محمد سعيد، شخصيات استوقفتني، ط2، دمشق، دار الفكر، 1999.

113. تيزيني الطيب، على طريق الوضوح المنهجي، ط1، بيروت، دار الفارابي، 1989.

114. الجندي أنور، طه حسين وفكره في ضوء الإسلام، ط1، بيروت، دار الرائد العربي، 1984.

115. حسين طه في الأدب الجاهلي، ط3، دب، دار العلم للملايين، 1978.

116. الحوالي سفر، وباء العلمانية وهل له مبرر في العالم الإسلامي؟ ط1، البليدة، دار ابن تيمية، 1409هـ.

117. خفاجي محمد عبد المنعم، شرف عبد العزيز، الإنسانية تعود إلى الإسلام، ط1، بيروت، دار الجيل، 1992.

118. داروين تشارلز، أصل الأنواع، ترجمة: إسماعيل مظهر، بيروت، مكتبة النهضة، 1971.

119. الشعراوي محمد متولي، المعارك الإيديولوجيا في تاريخ الإسلام، ط2، قضايا الفكر الإسلامي، -منظمة الندوة العالمية للشباب الإسلامي-، 1978.

120. شلبي عبد الجليل، رد مفتريات المبشرين على الإسلام، ط2، الرياض، مكتبة المعارف، 1985.

121. الصالح صبحي، الإسلام ومستقبل الحضارة، ط2، بيروت، دار الشورى، دمشق، دار قتيبة، 1990.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

122. عبد الحق أحمد محمد جاد، فلسفة المشروع الحضاري بين الإحياء الإسلامي والتحديث الغربي، ط1، سلسلة الرسائل الجامعية، 16 (قضايا الفكر الإسلامي)، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، (1416هـ-1995م).

123. العظمة عزيز، العلمانية من منظور مختلف، ط1، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 1992.

124. العقاد عباس محمود، المجموعة الكاملة، مج5، الإسلاميات1، ط3، بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1986.

125. عقيل حسين عقيل، فلسفة مناهج البحث العلمي، دط، القاهرة، مكتبة مدبولي، 1999.

126. عمر محمد زيان، البحث العلمي مناهجه وتقنياته، ط4، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1983.

127. الفيومي محمد إبراهيم، رسالة في الحوار الفكري بين الإسلام والحضارة، دط، القاهرة، عالم الكتب، 1981.

128. قاضي صبحي عبد الحفيظ، قضايا معاصرة في الحضارة الإسلامية، ط1، بيروت، دار الرائد العربي، 1984.

129. قسوم عبد الرزاق، عبد الرحمن الثعالبي والتصوف، دط، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، دت.

130. قطب محمد، مذاهب فكرية معاصرة، ط7، القاهرة، دار الشروق، 1993.

131. المسيري عبد الوهاب، عزيز العظمة، العلمانية تحت المجهر، ط1، دمشق، بيروت، دار الفكر، المعاصر، 2000.

132. الملقي هيام، ثقافتنا في مواجهة الانفتاح الحضاري، ط1، الرياض، دار الشواف للنشر والتوزيع، (1415هـ-1995م).

133. هوفمان مراد، الإسلام كبديل، ط1، دب، مؤسسة بافاريا للنشر، 1993.

ثاني عشر: التراجم

134. سعد، الطبقات الكبرى، دط، بيروت، دار بيوت للطباعة والنشر، دت.

135. الأثير، أسد الغابة في معرفة الصحابة، دط، بيروت، دار إحياء التراث العربي، دت.

136. قتيبة، الشرع والشعراء، دط، مصر، 1964.

137. الزركلي خير الدين، الأعلام، ط7، بيروت، دار العلم للملايين، 1976.

ثالث عشر: الموسوعات والمعاجم

138. بدوي عبد الرحمن، موسوعة الفلسفة، ط1، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1984. موسوعة المستشرقين، ط3، بيروت، دار العلم للملايين، دت.

139. البعلبكي منير، موسوعة المورد، ط2، بيروت، دار العلم للملايين، 1991.

140. الحفني عبد المنعم، موسوعة الفلسفة والفلاسفة، دط، دب، دد، 1999.

141. روزنتال.م، وب.يودين، الموسوعة الفلسفية، ترجمة: سمير كرم، دط، بيروت، دار الطليعة، دت.

142. محمد علي عصام الدين، الديانات ومذاهب أهل العالم، دط، الإسكندرية، دار المعارف، دت.

143. الموسوعة الفلسفية المختصرة، ترجمة: فؤاد كامل، جلال العشري، عبد الرشيد الصادق، دط، بيروت، دار القلم، دت.

144. أنس إبراهيم وآخرون، معجم اللغة العربية، المعجم الوسيط، دط، مصر، مطبعة مصر، 1961.

145. التهانوي محمد الفاروقي، كشف اصطلاحات الفنون، تحقيق: لطفي عبد البديع، دط، القاهرة، الهيئة المصرية للكتاب، 1972.

146. السابق جروان، الكنز (قاموس فرنسي عربي)، ط1، بيروت، دار السابق، 1984.

147. ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دط، دب، دار الفكر، دت.

148. الفيروزأبادي، القاموس المحيط، ط3، مصر، دد، 1301هـ.

149. ابن منظور، لسان العرب، دط، بيروت، دار الجيل، 1988.

150. وجدي محمد فريد، دائرة معارف القرن العشرين، دط، بيروت، دار الفكر، 1979.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

رابع عشر: الدوريات والملتقيات

151. إبراهيم عبد الله، المركزية الغربية، إشكالية التكوّن والتمركز، الاجتهاد، بيروت، ع47-48، س12، (1421هـ-2000م).

152. إسبوزيتو جون، الإسلام المعاصر، إصلاح ديني أم ثورة ، الاجتهاد، بيروت، ع47-48، س12، (1421هـ-2000م).

153. باقادر أبو بكر، العلماء من الدراسات التاريخية إلى الدراسات الاستراتيجية، الاجتهاد، بيروت، ع47-48، س12، (1421هـ-2000م).

154. براين ترنر، الإستشراق ومشكلة المجتمع المدني في الإسلام، الاجتهاد، بيروت، ع47-48، س12، (1421هـ-2000م).

155. التهامي نقرة، الوحي في العقيدة الإسلامية، النشرة العلمية للكلية الزيتونية، للشريعة وأصول الدين، الجامعة التونسية، ع5، 1978-1979.

156. الدجيني فتحي عبد الفتاح، أبو الأسود الدؤلي ونشأة النحو العربي، القافلة، الظهران، السعودية، مج47، ع9، يناير، 1999.

157. الربيعو تركي علي، الخلفية التاريخية للدعوة الوهابية في منظور الاستشراق الروسي، الاجتهاد، بيروت، ع47-48، س12، (1421هـ-2000م).

158. سليمان الخطيب، دور المناهج الغربية في سيادة فكر التغريب الحضاري والثقافي على العقل المسلم، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، الجزائر، 9-12سبتمبر، 1989.

159. الصمدي عبد الرحمن، الاستشراق حركة فكرية هدامة، الزميل، بيروت، ع46، أكتوبر، 1995.

160. عمران الشيخ، الاستشراق والإيديولوجيا أو أصول الإسلام في الموسوعة العالمية، حوليات الجزائر، ع2، 1987-1988.

161. لاشين كمال، الاستشراق، آفاق الثقافة والتراث، دبي، الإمارات، ع2، ديسمبر 2000.

162. محمد توفيق حسين، الإسلام في الكتابات الغربية، عالم الفكر، مج1، ع10، 1879.

163. محمد يحيى التأويل، البيان، ع72، شعبان 1414هـ، يناير/فبراير 1994.

164. مصطفى تاج الدين، النص القرآني ومشكلة التأويل، إسلامية المعرفة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، س4، ع14، خريف (1419هـ-1998م).

165. هرماس عبد الرزاق، مطاعن المستشرقين في ربانية القرآن، الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة الكويت، س14، ع38، أوت، 1999.

166. يويو عبد الحميد، أصالة الاستشراق واستشراق الأصالة، المنعطف، وجدة، المغرب، ع9، (1415هـ-1994م).

خامس عشر: المراجع باللغة الأجنبية

167. Balchère .R :

- Histoire de la lidélirature arabe des origines à la fin du 15eme siècle de J.C, « Dibrairie d'Amirique et d'orient, Paris, T2, 1980.
- Introduction au coran.
- Le problème du Mahomet, P.U.F, Paris, 1952.

168. Dictionnaire de Français : Achète, France, 1996, Orient.

169. Dictionnaire des religions par E.Reyston. pike. Paris, 1954.

170. Dictionnaire Encyclopèdique 2000 / La rousse , La rousse bordas, H^{er} 1999 matière prophète.

171. Le petit robert, Dictionnaire alphabetique et analogique de la lange Français, Paris, Les dictionnaires le Robert, 1992, Orient.

172. Le prophetisme : Lumiere et vie, Revue de formation et de réflexion, Théologique, 2place, Gailleton, 62002, Lyon, P. Novembre- Décembre, 1973.

173. Lo Bouyer : Dictionnaire dielogique, desclée.

174. Longman dictionnory of contemporary English, 3rd edition, Matiere (Prophet).

175. Maxime Rodinson.

- Mahomet, Edition du seuil, paris, 1961.
- La fascination de l'Islam, Paris, F.Maspero.

176. Vocabulaire de théloogie Biblique, Les éditions du C.E.R.F, 29 Boulvard, Latonr, Manboury, Paris, 1962.

سادسا: فهرس الموضوعات

المقدمة..... أ

الفصل الأول: الوحي والنبوة

المبحث الأول: الوحي والنبوة في العقيدة الإسلامية 3

المطلب الأول: الوحي في العقيدة الإسلامية..... 3

المطلب الثاني: النبوة في العقيدة الإسلامية 20

المبحث الثاني: الوحي والنبوة في اليهودية والمسيحية 34

المطلب الأول: الوحي والنبوة في اليهودية..... 34

المطلب الثاني: الوحي والنبوة في الديانة المسيحية..... 46

المطلب الثالث: الوحي والنبوة في الفكر الإلحادي..... 58

الفصل الثاني: الإستشراق ومذاهبه في الدراسات الإسلامية

المبحث الأول: الاستشراق الدوافع والنشأة..... 72

المطلب الأول: تعريف الاستشراق..... 72

المطلب الثاني: الدوافع والنشأة..... 79

المبحث الثاني: مذاهب المستشرقين في الدراسات الإسلامية..... 87

المطلب الأول: مذهب الاستشراق التقليدي..... 87

المطلب الثاني: مذهب الاستشراق الاستعلائي..... 93

المطلب الثالث: مذهب الاستشراق العلمي..... 100

الفصل الثالث: أنواع المناهج الاستشراقية

المبحث الأول: المنطلقات الأساسية لمناهج البحث الاستشراقي المعاصر..... 117

المطلب الأول: المنطلقات التاريخية..... 117

المطلب الثاني: المنطلقات الفكري..... 124

المبحث الثاني: تصنيف المناهج 143

المطلب الأول: تعريف المناهج..... 143

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المطلب الثاني: المنهج التشكيكي..... 149
المطلب الثالث: المنهج الماركسي..... 162
المبحث الثالث: أدوات المناهج الاستشراقية 176
المطلب الأول: الأدوات العامة..... 176
المطلب الثاني: الأدوات الخاصة..... 178

الفصل الرابع: تفسير المستشرقين لنبوة محمد ﷺ

المبحث الأول: استمرار شبهة مصادر القرآن في مذهب الإستشراق العلمي.... 199
المطلب الأول: نشأة مبحث مصادر القرآن 199
المطلب الثاني: أسباب تمسك مذهب الاستشراق العلمي بشبهة مصادر القرآن..... 201
المبحث الثاني: موقف المستشرقين من نبوة لمحمد ﷺ 211
المطلب الأول: تفسير منتغمري وات لنبوة محمد ﷺ 211
المطلب الثاني: تفسير رودنسون لنبوة محمد ﷺ 233
الخاتمة 246
الفهارس 250

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية